مجلة جامعة ابن رشد في هولندا

دورية علمية محكمة تصدر فصليا

العدد التاسع



مجلة جامعة ابن رشد في هولندا العدد التاسع

Averroes University In Holland

مجلة

جامعة ابن رشد في هولندا

دوريّة علمية محكَّمة تصدر فصليّا

عنوان المراسلة

Lorsweg 4, 3771 GH, Barneveld
The Netherlands
Website www.averroesuniversity.org
E-mail ibnrushdmag@averroesuniversity.org
Telefax: 0031342846411

رقم التسجيل في هولندا 08189752 - السجل الضريبي NL242123028B01

البحوث المنشورة يُجري تقويمها أساتذة متخصصون.

ثمن العدد 10 يورو أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي

الاشتراك السنوي	**الأفراد**	**المؤسسات**
لمدة سنة	60	80
لمدة سنتين	110	150
لمدة ثلاث سنوات	160	200

طبعت بمطابع مجلة كه وانة [القوس] الكوردستانية ومسجلة برقم

العدد التاسع نيسان أبريل 2013

الفهرس

التصنيف	ص.
مفتتح	أ، ب
الأدب وعلوم اللغة	001
كتاب الأغاني وأهميته في بعث مفردات لغة العرب وتجديدها أ.د.عبد القادر سلاّمي	002
رؤيا العالم في الشعر العربي المعاصرد. عبد القادر فيدوح	047
المديح في مساجلات الأزهار الأندلسية الدكتورة آمنة بن منصور	077
الأسواق والخانات التجارية و ملامح نسائها في مدن ألف ليلة و ليلة\ دراسة في متن حكايات ألف ليلة وليلة الدكتور محمد عبد الرحمن يونس	090
دراسات فكرية اجتماعية	121
المركز والهامش والحقيقة: من شرعية وجود الأنا إلى شرعية ممارسة التهميش الدكتور أحمد مداس	122
فلسفة	148
نظرية العقل عند الكندي الدكتور محمد أعراب	149
الاقتصاد و إدارة الاعمال	160
دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية إعداد فؤاد غالب كردي حنني	161
العلوم السياسية	197
الإصلاح السياسيّ والتشريعيّ في القرن التاسع عشر \ دراسة في السياق والآفاق الدكتور علي الصّالح مُولَى	198
الفنون	219

الخطاب السينمائي؛ إشكالات التلقي والتأثير \ دراسة في الأبعاد الدلالية لصورة المسلمين والعرب في السينما الأمريكية عرض وتقديم الأستاذ: رضوان بلخيري	220
العلوم النفسية والتربوية	241
دور السيناريوهات البيداغوجية في فعالية إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال. \ تأثير إدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية على كفايات الإدراك السمعي لدى تلامذة السنة الأولى ثانوي إعدادي. خنوس محسن	242
واقع مرشدي التعليم الجامع والتربية الخاصة في مديريات التربية والتعليم الفلسطينية \ سلوكيات وممارسات د.إدريس محمد صقر جرادات	268

*** تصميم الغلاف الدكتور معتز عناد غزوان**

*** لوحتا الغلاف للفنان التشكيلي العراقي الدكتور سعدي البابلي**

مفتتح

دوريتنا العلمية واقعية تماما في التعامل مع محيطها وظرفها.. ومن هنا يأتي بعدها عن الادعاء واعترافها الثابت بأنها ليست الكمال ولا تخلو من هنة أو ثغرة أو ما يتطلب الاستكمال والإنضاج؛ ولكن مع موقف ثابت في مواصلة الجهد لتجاوز ما يعترضها من مصاعب وتعقيدات.. والأمل هنا في الزميلات والزملاء تفهمهم ما ينجم عن تلك الظروف من بعض تلكؤات ولكنها الشكلية وليست مما يمس الجانب العلمي بالتأكيد،.. على أن من يتابعنا سيجد جدية ومثابرة مثمرة تتفاعل وتطلعات ترسم مسارها بموضوعية وخط نمو تصاعدي مستقر.

اليوم نقدم بعددنا الجديد، جملة من الجهود المتنوعة التي حاولت مناقشة أمور نظرية وأخرى ميدانية بروح علمي مسؤول.. فقدمنا جهدنا البحثي في اللغة والأدب جامعا بين قراءة المنجز التراثي بعين معاصرة والمنجز الحداثي بروح ينتمي للجذور وللتراث النقدي. فيما قدمنا جدل الحوار الفلسفي الفكري في مادتين ناقشت الأولى المركز والهامش فيما ناقشت الأخرى نظرية العقل عند الكندي.. ولم نترك الاقتصاد ومعالجته كما ورد في باب التعاونيات الزراعية في مرحلة تحمل في رحمها تناقضات حادة بشان البيئة والزراعة ومستقبلها في بلداننا. وسيجد الباحث عن النشاط العلمي ومنجزه حوارات في الخطابات النفسية التربوية وأخرى في الفنون وفي العلوم السياسية بما يمثل قراءات مقترحة بحركة الإصلاح السياسي في القرن الـ19 وفي السينما والتمييز العنصري وفي السناريوهات البيداغوجية بواقع مرشدي التعليم الجامع في فلسطين.

ويبقى طموحنا الثابت لدفع الكفاءات العلمية بخاصة هنا النسوية والشابة، كيما تأخذ دورها في الارتقاء بنسبة المساهمة في بحوث كل عدد. إلى جانب تناول قضايا ملحة سواء منها النظرية أم التطبيقية مما يمس حيوات بلداننا ومجتمعاتنا كافة.

وربما ملنا في مرحلة لاحقة إلى إفراد كل عدد لملف بعينه في محاولة لتسليط الضوء جديا على موضوعمحدد نأمل أن يناقش باستفاضة ومن زوايا مختلفة وبوساطة مناهج متعددة وجهود باحثات وباحثين من بيئات قد تشترك في المشكلة الرئيسة أو تختلف ولكن الفائدة ستكمن في مفاعلة الرؤى والمعالجات..

إننا ننتظر مقترحاتكم وتصوراتكم لتوضع بين يدي هيأتي الاستشارة والتحرير ونعمل على تطبيق المتاح.. وسنعلن مع الأعداد القابلة خطة العام 2014 بأعداده الأربعة وملفاته التي نأمل دراستها بحثيا. من جهة أخرى نود أن نجدد التشديد على ضرورة الالتزام بالشروط والمحددات الخاصة بالنشر ويؤسفنا هنا أن يتم استبعاد عدد من البحوث لعدم الالتزام بواحد أو أكثر من الشروط والمحددات. وسيكون من شأن الالتزام على سبيل المثال بشكليات طباعية مساعدة فنية وتسهيلا لجهدنا التقني الذي يحاول توحيد المنهج من جهة وتوحيد الإخراج الطباعي الذي يلتزم بالشروط.

ونشير هنا إلى أننا في وقت طبعنا الأعداد التي صدرت ألكترونيا ونواصل الجهد لاستكمال طباعة جميع الأعداد؛ فإننا في الوقت ذاته نتطلع لاستكمال التفاعل بما يهيئ شروط توفير نسخ الأعداد المطبوعة للمساهمين. علما أنها باتت متاحة في عدد من أسواق المطبوعات والمكتبات العامة وسنواصل تقديم نسخ مهداة لعدد من مكتبات الجامعات كما بمكتبات جامعات كوردستانية وأخرى في بغداد، البصرة، وغيرهما فضلا عن جامعات عربية وشرق أوسطية.

إننا نفكر بمزيد من فرص تفعيل دوريتنا ولدينا خطط نهوض نثق بنجاحها بفضل تعاون جميع المعنيين مع هذه المؤسسة العلمية البحثية التي تعمل وتنتج جهدها في إطار جامعة ابن رشد في هولندا. وحتى نلتقي في عدد تال نرجو للجميع كل الخير والسؤدد.

رئيس التحرير

الأدب وعلوم اللغة

كتاب الأغاني وأهميته في بعث مفردات لغة العرب وتجديدها

رؤيا العالم في الشعر العربي المعاصر

المديح في مساجلات الأزهار الأندلسية

الأسواق والخانات التجارية و ملامح نسائها في مدن ألف ليلة و ليلة

دراسة في متن حكايات ألف ليلة وليلة

كتاب الأغاني وأهميته في بعث مفردات لغة العرب وتجديدها

أ/د.عبد القادر سلاّمي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات   جامعة تلمسان-الجزائر

Abstract:

This study seeks to establish one lists of some words and graceful locutions penned by Abu alfaraj in writing songs and other analysis on lexicon and semantics in this arrangement, taking into account that the original article, we include below Word or phrase where the words that refer to that article are to aspects of tradition and innovation, arranged by alphabetical order and arrangement of some of the lives of Ispahan and systematization in the book of songs and its significance in the study of language.

***ملخص:**

تسعى الدراسة الموالية سرد ثلّة من الألفاظ والعبارات الرشيقة التي صاغها أبو الفرج في كتابه الأغاني وتحليل أخرى من جهة المعجم والدلالة، مراعين في هذا الترتيب أن نذكر المادّة الأصلية وندرج تحتها الكلمة أو العبارة التي جاءت فيها الألفاظ التي ترجع إلى تلك المادة، ملمحين إلى مظاهر الأصالة والتجديد فيها، مرتّبين إيّاها ترتيبا هجائيا وبما يكفل التعرض لبعض من حياة الأصفهاني ومنهجه في كتاب الأغاني وأهميته في دراسة اللغة.

أولاً-حالة بغداد في عصر بني بويْه(العصر العباسي الثلث):

كانت دمشق دارًا لملك بني أمية وشعارهم البياض في راياتهم ولباسهم، فلمّا جاء بنو العبّاس اتّخذوا بغداد مقرا لكرسيهم والسّواد شعارًا لهم، وكانت جنودهم تُسمّى "المسودّة" لأنّ راياتهم سود[1]. والأصل في اتّخاذ العباسيين الأسود شعارا لهم مُخالفة الأمويين وتلك سنة اختلاف الملوك عن أسلافهم، وممّا يُذكر أنّ المأمون (813-833م/198-218هـ)[2] الخليفة العباسي لَبِسَ الأخضر مُجاملة للعلويين، فكاد يختل أمر المُلْك فرجع بعدَ أسبوع المأمون إلى الأسود. وصارت بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد (786-808م/170-193هـ) وابنه المأمون مَنْبعا للحضارة ومشرقا للمعارف والآداب.[3]

ولم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرائها، وكثرة علمائها وأعلامها وتميّز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها*، وكثرة دورها ومنازلها، دروبها وشعوبها، محَّالها وأسواقها، مساجدها وحمّاماتها، وطرزها وحاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحّة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدد سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع، ثمّ حدثت بها الفتن وتتابعت على أهلها المحن، فخرّب عُمرانها وانتقل قطانها، إلاّ أنّها كانت قبل وقتينا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقض في جميع الأحوال متباينة لجميع الأمصار ومخالفة لسائر الديار.[4]

وقد حكى ابن الأثير (ت 630 هـ) في تاريخه عن عظمة بغداد ووصف لنا أهبّة ملوكها وسلاطينها وصوّر لنا كلّ ذلك في قوله :"لمّا وصلت رسل ملك الرّوم إلى بغداد في سنة 305 هـ في خلافة المقتدر، رُتِّب من العسكر في دار الخلافة مئة وستون ألفا ما بين راكب وراجل، ووقف بين يدي الخليفة سبعمائة حاجب وسبعة آلاف خادم، وزُيِّنت دار الخلافة بأنواع الأسلحة، وغرائب الزينة، وفُرِشت أرضها بالبُسط، وكانت عُدّة البُسط اثنين وعشرين ألف بساط، وعُدّة الستور المعلّقة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الدِّيباج المذهّب. وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها

---

1 -القلقشندي:صبح العشى،273/3-.274.

2- يوسف عون الخوري:مختصر أغاني الصفهاني، 156./3

3- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ،259/1.

* الطرار: الأطراف والنواحي.ينظر: ابن منظور،: لسان العرب،500/4،مادة(طرر).

4- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 119/1.

وأوراقها وطيور الذهب على أغصانها وألقيت المراكب والزبازب* في دجلة أحسنَ زينة، وكان هناك مئة سبع مع مئة سبّاع إلى غير ذلك من الأحوال الملوكية.[5]

وليس أدلّ على عظمة بغداد في ذلك العصر من شعر إسحاق الموصلي**
(ت 850 هـ) حين خرج مع الواثق بالله (841-846م/227-232هـ) إلى النجف فقال متشوقا إليه :[6]

أَتَبْكِي عَلَى بَغدادَ وهي قَرِيبةٌ فكيف إذا مَا أَزْدُدْتَ منها غَدًا بُعدَا
لعمرك ما فارقت بغداد عن قِلَي لو أنّا وجدنا من فراق لها بُدًّا
إذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت من الشوق أو كانت تموت بها وجدا
كفى حُزنا إن رُحت لم تستطع لها وداعا ولم تُحْدث لِسَاكِنها عَهْدَا

ولا نزيد عصر العباسيين وصفا ولا حضارتهم تعريفا بغير قول الخطيب البغدادي أحد المعاصرين لها في كتابه تاريخ بغداد لأنّه أوفى وأصدق كتاب وصفها وكتب عن علمائها.[7]

2- علوم العصر :

كان التعليم في البلاد الإسلامية في أوّل الأمر مقصورا على العلوم الدينية وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية، حيث كانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيء من العلوم إلاّ بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها وبصناعة الطبّ فإنّها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة النّاس إليها وذلك صونًا منهم لقواعد الإسلام وعقائد أهله من تطرّق الخلل من علوم الأواخر قبل الرسوخ والأحكام واستمرّ ذلك إلى آخر عصر التّابعين، ثمّ حدث اختلاف الآراء وانتشار المذاهب،فآل الأمر

---

* الزبازب: السفن الصغيرة.ينظر: ابن منظور:لسان العرب،446/1،مادة(زبب).
5- القلقشندي: صبح الأعشى،272/3.
** مغني العصر العباس، عرف بابن النديم نسبة إلى أبيه غبراهيم الموصلي،انقطع إلى الرشيد والبرامكة.من آثاره :كتاب أغانيه.ينظر: الأب لويس معلوف اليسوعي،: المنجد في اللغة والأعلام،،ص.44
6 -أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني، 285/9.
7 طبع الكتاب في 1407هـ-1987م،عن دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،وهو المعتمد في البحث.

إلى التدوين، وما نشر من العلوم في عهد بني أميّة كان مرتبطا منها بالدّين بعكس ما كانت عليه الحال في أيّام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية أو الكونية أيضا كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها ولم يكن عصر العباسيين عصر تخصص وإنّما كان العالم أديبا وفقيها غويا وشاعرا ومتكلّما، وكانت الدروس فيها تفسير، وفيها حديث، وفيها فقه، وفيها لغة، وفيها جدل ديني.[8]

فالعلوم التي تداولها المسلمون في مساجدهم ومجالسهم العلمية في صدر الإسلام، وعهد بني أميّة كانت تتلخّص فيما كتبه ابن خلدون في مقدّمته إذ يقول :" وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلّف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنّة، فلابدّ من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أوّلا، وهذا هو علم التفسير، ثمّ بإسناد نقله وروايته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم الذي جاء به من عند الله واختلاف الرّواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم، وهذه علوم الحديث، ثمّ لابدّ في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يُفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذه أصول الفقه، وبعد هذا تحصّل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين وهذا هو الفقه، ثمّ النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدّمه العلوم اللسانية لأنّه متوقف عليها، وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النّحو وعلم البيان، وعلم الأدب، وهذه العلوم النقلية كلّها مختصة بالملّة الإسلامية ".[9]

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أنّ الفقه والقراءة والتفسير والحديث كانت عِلْما واحدا في أوّل الأمر ثمّ استقلّت بعضها على بعض تبعا للتطوّر والارتقاء الذي مسّ كلّ العلوم هذا فيما يختصّ بالعلوم النقلية، أمّا العلوم العقلية فكانت قليلة في عهد الأمويين، ويمكن أن نقول أنّها كانت مهجورة إنّ صحّ القول بيْدَ أنّ اشتغال العرب بالعلوم العقلية من كيمياء وطبّ وفلك وتاريخ ونحوها لم يكن له أثر إلاّ في صدر الدولة العباسية وعلى الأخصّ في عهد المأمون الذي حمل لواء حركة الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية.[10]

3- سبب ازدهار العلوم في العصر العباسي :

من العوامل الفعّالة في سرعة ازدهار العلوم في النهضة العباسية أنّ الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كلّ مرتخص وغال في سبيل

---

8 - أحمد أمين: فجر الإسلام،201./1.

9- ان خلدون، عبدالرحمن:المقدمة،ص.486

10- جرجي زيدان:تاريخ التمدن الإسلامي،27/3 وأحمد أمين: ضحى اُسلام،262./2.

نقل هذه الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والكرم بقطع النّظر عن ملَلِهم أو نحلهم أو أنسابهم حتّى إنّ صاحب كشف الظنون يقول في هذه المناسبة :" والحق أنّ أعظم الأسباب في رواج العلم وكساده رغبة الملوك في كلّ عصر".[11]

وثمّة عامل آخر كان له الأثر البالغ في نشر العلم والتعليم وهو استعمال الورق، فمِمَّا لاشكّ فيه أنّ حركة العلم وتدوينه في العصر العباسي ما كانت لتصل إلى ذلك القدر من الرقي لو ظلّت أدوات الكتابة على حالتها الأولى من السذاجة أو الندرة.[12]

فالتعليم إذًا مدين لصناعة الورق الذي به كثرت الكتب والمكاتب وخزائنها وأصبحت مصدرا عظيما للثقافة فساعدت المتعلّم على الأخذ بمناهل العلم، وربّما تأثير استعمال الورق في النهضة العلمية في الإسلام مثل تأثير فنّ الطباعة في النهضة الأوروبية في أواخر العصور الوسطى.[13]

وكان لاستنباط رفعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتّى بدا أنّ الناس جميعا من الخليفة إلى أقلّ أفراد العامّة شأنا قد غَدَوْ فجأة طلاّبا للعلم، أو على الأقل أنصارا للأدب، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء موارد العلم والعرفان ثمّ يعودون إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ، ثمّ يصنّفون بفضل ما بذلوه من جُهْدٍ متّصل بهذه المصنّفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف.[14]

لقد تأثرا المسلمون بهذه العلوم التي نقلوها إلى اللغة العربية، فلم تكد تُعرف لديهم حتّى أخذوا في درسها والاشتغال بها، وكان اشتغالهم بها في أوائل الأمر لا يتعدّى النّظر والتلخيص والشّرح حتى إذا اكسبوا ملكاتها ونضج تمدّنهم وانتشرت العلوم في البلاد أخذوا يتدبّرون كلّ علم يدرسونه منها، ويحقّقون مسائله بكلّ ما أوتوه من قوّة وعقل وصحّة وفهم وأصبحت العلوم عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب.[15]

وكانت بغداد أثناء هذه النهضة كعبة العلم ومقصد العلماء، ولمّا اضطربت أحوال الخلافة بعد زمن المأمون ونشأت الدولة الجديدة في مصر والأندلس تفرّق العلماء وأصبح للعلم مراكز جديدة، وهكذا أثمرت بذور العلم التي ألقاها خلفاء النهضة العباسية في جميع العالم الإسلامي في خراسان

---

11 -حاجي خليفة: كشف الظنزن عن أسامي الكتب والفتون ،29./1

12 -أحمد أمين:ضحى الإسلام،21/2-.22

13 - محمد عبد الجواد الأصمعي:أبو الفرج الأصفهاني،ص.58

14 -المرجع نفسه،ص.57

15 -المرجع نفسه،ص57-.58

وأذربيجان وما وراء النهر ومصر والشام والأندلس واقتدى حكام هذه البلاد بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم إلى عواصمهم فكان الأصبهاني أحدهم.[16]

4- النهضة العلمية والأدبية فيه وحظّ أبي الفرج الأصفهاني:

نشأت النهضة العلمية والأدبية في البصرة والكوفة، ثمّ تحوّلت إلى بغداد فأصبحت قبلة العلم والعلماء ومنتدى الأدب والأدباء وبلغت في ذلك ذروة المجدِ وصار العلم بضاعة رائجة فيها، فراح العلماء يستنيرون بمشكلاتهم ويقتبسون منها، وفوق هذا كانت بغداد مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، فكمْ عُقدت من مجالس للأدب والبحث والمناظرة، وكم نظمت فيها حلقات؛ وفي هذه الحلقات المختلفة نضجت الحياة العقلية الإسلامية العربية، وأتت ثمرتها ونبغ فيها في أيام أبي الفرج نخبة صالحة من أعلام العلماء وتخرّج عليهم جمهور عظيم ممّن نالوا الشهرة الواسعة والصيت الذّائع، منهم المفكرون والمشتغلون بالعلم والأدب من الشعراء والأدباء والمنشئين والجغرافيين واللغويين والفلاسفة وغيرهم ممّن لهم مقام كريم وذكر جميل في محافل الأدباء ومشيخة العلماء.[17]

وسرّ هذا النبوغ هو تسابق الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء إلى نصرة العلماء الذين كانوا يُقبلون إليها من كلّ فجّ وصوبٍ ويعيشون في ظلّهم يقرّبوهم ويلينون لهم الجانب ويجزلون عليهم الأرزاق الوافرة ويهبون لهم الهبات العديدة، فكانوا لهذا التشجيع المستمر وتلك الهبات المتواصلة من أكبر محبِّي العلم الآخذين بناصر العلماء وأخذ النّاس يتسابقون في خدمة العلم كما يتسابق ملوكهم إلى مساعدة العلماء ونصرتهم.[18]

ومِنْ حُبِّهم للعلم والاستزادة منه أنّ عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجّاج، انظر لي رجلاً عالما بالحلال والحرام، عارفا بأشعار العرب وأخبارها، أستأنس به، وأجد عنده معرفة فوجِّهه إليّ من قِبلكَ، فوجّه إليه الشعبيّ، وكان أجمع أهل زمانه. قال الشعبيّ:" فلم ألقَ واليا ولا سوقة إلاّ وهو يحتاج إليّ ولا أحتاج إليه، ما خلا عبد الملك ما أنشدته شعرا، ولا حدّثته حديثا إلاّ وهو يزيدني فيه، وكنت ربّما حدّثته وفي يده لقمة فأمسكها فأقول: يا

---

16 - جرجي زيدامك تاريخ التمدن الإسلامي ،167/3-.169

17- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ومدينة السلام، ،112./1

18- المرجع نفسه،112/1-.113

أمير المؤمنين، أسغ طعامك فإنّ الحديث من ورائه، فيقول ما تحدّثني به أوقع في قلبي من كلّ لذّة وأحلى من كلّ فائدة ".[19]

ومن الذين نالوا حظّا وافرا ومركزا ممتازا لدى الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء من علماء عصره وأدباء وقته أبو الفرج الأصبهاني لمكانته العلمية والأدبية حتّى سبقهم جميعا (مع وساخة جسمه وقذارة ثيابه) لبراعة بيانه وامتلاكه عنان اللغة ومتانة نسجه للأخبار التي يرويها، ولا يُدانيه في العربية إخباريٌ آخر ودليل هذا كتابه "الأغاني" الذي يُعدّ نسيج وحده، وقد وصل به إلى الذّروة وبلغ النهاية، وكان منهلا عذبا لكل أديب وكاتب مؤرخ منذ ألف سنة لجودة وضعه، وجمال تأليفه وحسن قصصه التي صوّرها فيه أبدع تصوير، وكان السّبيل إلى البراعة وما ناله أبو الفرج في جميع العصور الإسلامية من الشهرة الواسعة والصيت الذائع، وكما كان في حياته ينهال عليه طلاّب العلم ببغداد من كل فج يقتبسون من نبراسه الساطع، ويغترفون من بحره الزاخر، كذلك كتابه الأغاني الذي يعدّ في عالم الأدب منذ ألْف حتّى الآن أشهر من نار على علَم لأنّه الكتاب النادر المثال الذي هو أشبه بالبحر الطامي مهما غاص الغائصون فيه يستمزجون الدرر العصماء فهيهات أن تنضب معينه.

وقد اتّفق المؤرخون من عرب و عجم على أنّ أوّل طالع سعيد لارتقاء الأمّة العربية كان في القرن الثاني من الهجرة حيث سطع نور العلم من بغداد فأنار جميع الآفاق ومصر والأندلس، لأنّه في هذا العصر شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقه التفسير، وصنّف ابن جريح التصانيف بمكّة، وصنّف سعيد ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وصنّف مالك الموطأ بالمدينة، وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف معمر باليمن، وصنّف سفيان الثوري كتاب الجامع، ثمّ بعد يسير صنّف هشام كتبه وصنّف الليث بن سعد وعبد الله بن لهعية، ثمّ ابن المبارك القاضي أبويوسف يعقوب وابن وهب وعيسى بن عمر النحوي، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ورتّبت ودوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيّام النّاس، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلّمون عن حفظهم ويروُون عن صحف صحيحة غير مرتّبة فسهل بذلك تناول العلم.[20]

19- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 30./1

20 -الحطيب البغدادي: تاريخ بغداد ومدينة السلام، 114./1

ثانياً-أبو الفرج: حياته، ثقافته، آثاره وموقع الأغاني منها:

1-مولده ونشأته:

هو أبو الفرج علي بن الحسين بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمان بن مروان بن عبد الله بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد الشمس بن عبد المناف القريشي الأموي، من أعلام الأدب في القرن الثالث الهجري، وهو سليل الأسرة الأموية.[21]

ولد أبو الفرج بأصبهان سنة أربع وثمانين ومائتين(284هـ-897م)في خلافة المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق، وهي السنة التي مات فيها البحتري الشاعر، ولا يعرف على وجه اليقين موضع ولادته فقالوا إنّه أصفهاني المولد استنادا إلى لقبه الذي يعرف به، وكانت نشأته ببغداد واستوطن بها وكانت داره واقعة على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة وملاصقة لدار أبي الفتح البريدي ولهذا قالوا إنّه بغدادي المنشأ والمسكن. ولعلّ أجداده كانوا يعيشون في أصفهان بعد سقوط دولتهم، ثمّ نزح أحفادهم إلى بغداد وأقاموا بها وكانت يومئذ أجمل مُدُن الأرض في عصره، وفيها كلّ شيء جديد سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها أم في عقول أبنائها ونبوغ علمائها، يحمل إلينا من الأفاق بدائع ما صنع البشر وأنتجت عقولهم، وناهيك بعاصمة مملكة بني العباس، وكانت سيّدة الممالك ودرّة البلدان وبها عرش أعظم مدينة إسلامية حافلة بالعلماء والأدباء والمؤرخين واللغويين، وازدهرت فيها المعارف والعلوم والآداب، فبغداد هي مهد الحضارة الإسلامية ومنها انتشرت المعارف والعلوم والآداب التي كان لها الأثر الحسن في ترقية المدارك وإنارة البصائر، وتشهد بما كان لعلمائها من مجدٍ عظيمٍ ومقامٍ كريمٍ.[22]

2- دراسته العلمية:

نشأ أبو الفرج ببغداد في أزهى عصور الإسلام، وكانت بغداد يومئ مهد الحضارة الإسلامية ومنبع العلوم، ومنتدى الأدب، فأكبّ على الدّرس وجدّ في التحصيل، ودأب على قراءة الكتب في العلوم، ثمّ اتّصل بأعيان العلماء وأقطاب أصحاب الأدب وعلماء الحديث وأئمة النّحو والأدب، فحذق العربية وبرع فيها وجوّد البيان أيّما تجويد حتّى صار زعيما للحياة الأدبية

21- أبو الفرج الأصفهاني: الأعاني/6./1.

22 - عمر القاق: مصادر التراث العربي في اللغة والأدب والتراجم ،ص107.

الناشطة في بغداد، وعاش حينذاك عيشة الأديب الجوّال، ونال رعاية سيف الدولة وإسماعيل بن عباد والمهلبي**، كما نال رعاية الأمويين بالأندلس مع أنّه لم يَسْعَ إليهم بشخصه، واتّصل بصدور أهل العلم والفضل والأدب يصاحبهم ويلابسهم ويلازم مجالسهم وصاحب أهل الظرف وأصحاب البدائع والبداءة وشاركهم في أسمارهم.[23]

وناهيك ببغداد في ذلك العصر الذهبي الذي كان زاهيا بالعلوم والفنون، زاهرا بالآداب والمعارف، وقد كانت غاصّة بالعلماء والأدباء والفقهاء والمحدّثين واللغويين وكبار الرّجال المبرّزين، ولهم تآليف قيّمة وآثار خالدة تشهد برسوخ قدمهم في العلوم والمعارف والآداب وتبرهن على ما وصلوا إليه في البحث والاطّلاع فنالوا آيات الثناء والإكبار والإجلال. وتاريخ بغداد للخطيب حافل بتراجم كثير منهم، والفهرست لابن النديم كتاب شامل لجميع مصنّفاتهم.[24]

درس أبو الفرج على نخبة صالحة من العلماء الأجلاّء واستفاد من معارفهم وعلومهم وحفظ كثيرا من فنون الأدب، وأصبح ذا دراية تامة بها كما حفظ كثيرا من علوم اللغة وكان متقدّما فيها، متقنا لها مستكثرا منها فنبغ نبوغا عظيما في التاريخ الأدبي ففاق معاصريه ولم يلحق به في هذا الميدان أحد، ووصلت شهرته إلى أسماع سيف الدولـة فاتّخذه نديما ببلاطه.[25]

روى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم**، وقد كان العلماء والأدباء في ذلك العصر يذكرون في مجالسهم الأخبار الرائقة والأشعار الفائقة وطرائف الحكمة والفوائد الأدبية والفوائد اللغوية من آثار السّلف الصالح، وقد وصف أبو سعيد السّكري هذه المجالس بقوله:

وذكّرني حلوُ الزمان وطيّبه مجالس قومٍ يملأ ون المجالس

وسمعتَ من آخرين لا يُحصون مع شهرة كلّ واحد منهم، وما امتاز به في حياته العلمية ليكون نبراسا يُهتدى به ومثالا يُحتدى من

حديثا وأشعارا وفقها وحكمة برّأ ومعروفا وإلفاً مُؤانســــــــــــــا

** من وزراء بني بويه.

23- محمد عبد الجواد الأصمعي: ابو الفرج الأصفهاني،ض.106

24 - ابن النديم، إسحاق: الفهرست،ص.509

25 - أحمد تمامك في ذكرى وفاة الصفهاني.موقع google.com.

** نحو: أي بكر بن دريد (ت321هـ) و أبي بكر بن الأنباري(ت328هـ) والأخفش الأوسط(ت215هـ)وغيرهم.ينظر:ابن الثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،241/3 و ابن خلكان: وفيات الأعيان،709/1-714 و ابن النديم: الفهرست،ص75 ، 80.

حيث كثر موريدوه وتلامذته[**]، وقد تعدّدت مرويات أبي الفرج وحصيلته المعرفية من الشعر والأغاني والأخبار والآثار واللغة والنحو والخرافات لذلك استحقّ أن يوصف بالعلاّمة النّابه الإخباري الحافظ وتأهل للعمل كاتبا لدى ركن الدولة فوفّر له ذلك الحظوة عند أمير حلب، ثمّ انقطع إلى الوزير بن محمد المهلبي فكان من خاصة ندمائه وله فيه عدد من المدائح.[26]

3-نبوغ أبي الفرج وذيوع صيته:

أـقوة حفظه وصفاء ذهنه:

كان أبو الفرج حادّ الذهن، قويّ الحافظة، فوعى في ذاكرته ألوفا من الأشعار والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث والأنساب بأسانيدها وأسماء قائليها ورواتها فضلا عن حفظه من علوم أخرى كاللغة والنّحو والسّير والمغازي وعلوم البيزرة[*] والبيطرة والطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وأصبح في عصره إمام المؤلفين وزعيم الأدباء ورئيس الكتاب وعميد النّدماء وعمدة المؤرخين، واجتمع له من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يسبق اجتماعه في عصر من العصور.[27]

وكان لهذا شأن كبير وأثر محمود على شواطئ دجلة، فقد ازدهرت تلك المعارف وأينعت ثمراتها وتحقق ما كانت ترتجيه من النّجاح في نشرها ببغداد، ولا تزال بقايا آثارها مكلّلة بتاج من الفخار ما زال بهاؤه ساطعا برغم تصاريف الزّمان وعبث الأيّام، ولم يقتصر أبو الفرج من العلوم والآداب على الحفظ والاختزان والتعليم كما يفعل كثيرون، لكنّه تدبّر تلك المعارف وأخرج

** نحو : أبي الحسن عليّ بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي الدارقطني(ولد سنة306) و أبي الفرج الحافظ الكبير يحي بن مالك بن عائذ أبو زكريا الأندلسي(ت 376هـ) و أبي الفرج أبو الحسين عليّ بن محمّد بن عبد الرّحيم بن دينار الكاتب. ينظر: ابن حلكان: وفيات الأعيان،470/1-471و ابن العماد الجنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب،93/3، وياقوت الحموي: معجم الأدباء،210/5-211و 3//377-.378

26- ابو الفرج الأصبهاني: الأغاني،67/1.

* علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحّتها وإزالة مرضها ومعرفة العلامات اللّة على قوذتها في الصّيد وضعفها في ذلك.ينظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط،78/1،مادة(البيزار).

27 -محمد عبد الجواد الأصمعي:أبو الفرج الأصفهاني،ص108.

من فرائدها وفوائدها كتبا نفيسة قيّمة نافعة أشهرها كتابه "الأغاني" وبه اشتهر، ولا تزال تفتخر به الأجيال حتّى الآن.[28]

ب-عبقريته:

كان أبو الفرج موهوبا ملهمًا وعبقريا فذًّا، وفنّانًا بارعا قد استمدّ وحْي البلاغة وسِحرَ البيان من علماء بغداد أعلام في عصره وأصبح يُعَدُّ من مفاخر بغداد، فهو المحدّث الثقة، والكاتب البليغ، والشاعر المبدع والمصنّف المنتج، وقد تجلّت عبقريته في كتابه النّفيس "الأغاني" فهو عنوان نبوغه في الأدب وسرّ شهرته بين علماء عصره، وقد بلغ به الذّروة ووصل إلى النهاية لأنّه استطاع أن يصوّر بأسلوبه الرّائع، وفنّه البديع الحياة الاجتماعية والعمرانية في أزهى العصور الإسلامية، فقد كان كتابه من هذه الناحية منهلا عذبا لكل كاتب وأديب أو مؤرخ منذ ألف سنة، وتسابق الملوك والأمراء والوزراء والأدباء في كلّ عصر إلى اقتنائه. وقد دفع الخليفة الحكم** ألف دينار من الذهب العين في اقتناء نسخة منه، واعترض أحدهم على هذا المبلغ وقال: هل مِن مزيد؟ وكان الخليفة الحكم محبا للعلوم مكرمًا لأهلها، جماعة للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، وقد جمع لنفسه مكتبة خصوصية احتوت على أربعمائة ألف مجلدا كلّها من النفائس والغرر.[29]

والأغاني لا يعدّ أهمّ مرجع للتاريخ الأدبي إلى القرن القرن الثالث الهجري فحسب، بل يعتبر كذلك أهمّ مصدر لتاريخ الحضارة الإسلامية للدولتين الأموية والعباسية، وتعتبر الآن المرجع الوحيد في العالِم بأخبار العرب وأشعارها وأيّامها ومثالها ووقائعها.[30]

وقد استفاد منه كل عالم أو أديب ولا تجد كتابا قديما أو حديثا كتب عن العرب وآدابهم إلاّ وكتاب الأغاني هو المورد العذب لمؤلفيه، لذا تزاحم عليه طلاّب الفضل وعشّاق المعالي وأهل العلم والعرفان.

4- بعض صفاته وأخلاقــه :

لقد كان أبو الفرج دائم المحبّة لأصدقائه، صادق المودّة لإخوانه، وفيّا لأساتذته وهي من الأخلاق النبيلة التي اتّصف بها، حيث يحدّث عن نفسه

28- المصدر نفسه،ص108-109.

** هو الحكم بن مروان أحد ملوك الأندلس.

29- أحمد بن ومحمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،1/.25.

30- المرجع نفسه،2/.49.

قال :" بلغ أبا الحسن جحظة أن مدرك بن محمد الشيباني الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره، فكتب إليّ يقول:[31]

أبَا الفرج أهجَى لديْكَ ويُعْتَدَى ... عليَّ فَلاَ تَحْمِي لِذَاكَ وتَغْضَبُ
لَعُمْرُكَ مَا أنصَفْتَنِي في مودَّتِي ... فكنْ مُعْتِبًا إن الأكارم تعتبُ

فكتب إليه:[32]

عَجِبْتُ لِمَا بُلِّغْتُ عنى باطـلا ... وظنَّكَ بي فيه لَعُمْـرُكَ أعجبُ
ثكلت إذا نفسي وعُزِّيَ أَسْرتي ... بفقدِي ولا أدركتُ ما كنت أطلب
فكيف بمن لاحظ لي في لقائِهِ ... وَ سيَّان عندِي وَصلـه والتجنُّبُ
فثق بأخٍ أصفاكَ مَحْضَ مَوَدَّةٍ ... تُشاكلُ منها مـا بـدَا والمغيبُ

5-شعـره:

لقد كان أبو الفرج من الشعراء المجيدين، وصفه هلال بن المحسّن بقوله :" وله شعر جيّد إلاّ أنّه في الهجاء أجود، وإن كان في غيره غير متأخر، وكان النّاس على ذلك العهد يحذرون لسانه ويتّقون هجاءه، ويصبرون في مجالسته ومعاشرته ومؤاكلته ومشاربته على كلّ صعب من أمره، لأنّه كان وسخا في نفسه، ثمّ في ثوبه وفعله، قذرا حتّى إنّه لم يكن ينزع درّاعة يلبسها إلاّ بعد إبلائها وتقطّعها، ولا يعرف لشيء من ثيابه غسلا، ولا يطلب منه في مدّة بقائه عوضا ".[33]

قال أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصبهاني يهجو أبا سعيد السيرافي:[34]

لستُ صدْرًا ولاً قرأتُ على صدْ ... ـرٍ ولا عِلْمِكَ الـبَكَى بكَّاف
لَعَنَ اللّـهُ كـلَّ شِعْرٍ وَ نَحـوٍ ... وَعَرُوضٍ يَجيئُ مِنْ سِـيرَافِ

وكان الرّاضي بالله في سنة 327 هـ قد ولى أبا عبد الله البريدي – وكان قد خرج عليه بنواحي البصرة- الوزارة، فتحدّى النّاس أنّ الراضي إنّما قصد بتقليد أبي عبد الله الوزارة طمعًا في إيقاع الحيلة عليه في تحصيله، فقال أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني في ذلك قصيدة طويلة تزيد على مائة بيت يهجو فيها أبا عبد الله ويؤنّب الرّاضي في توليته وطمعه فيه، أوّلها :[35]

---

31 -الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد،399./11.
32-المرجع نفسه،399/11-.400.
33- ياقوت الحموي:معجم الأدباء،152./5.
34 -المرجع نفسه،58./3.
35- المرجع نفسه،165./5.

قدْ تولّى الوِزارة ابن البريـدي — يَا سماء اسْقُطِي ويا أَرْضُ ميدي
وبلاءٌ أشـابَ رَأسَ الـوَلـيدِ — جلّ خَطْبٌ وحَلَّ أمرُ عُضالُ
ـهَجَ طول اللّباسِ وشَى البرود — أَخْلَقْتَ مُهْجَةَ الزّمـانِ كمَا أنْـ

إلى أن يقول:[36]

وتوهمت أنْ سيخدعه ذَا — كَ فيغتاله اصطيادُ للصيود
هُوَ أزنى ممَّا تقدَّر أمّـا — ليس ممّا يَصَادُ بـالـتقليد

فانتهت هذه القصيدة إلى أبي عبد الله البريدي، فلمّا بلغ إلى البيت الأخير ضحك وضرب بيديه ورجليه وقال: لو عرف أبو الفرج ما في نفسي وأزال الوحشة وصار إليّ لباغت في صلته والإفضال عليه من أجل هذا البيت.[37]

وقال يرثي ديكا وهو من جيِّدِ ما قيل في مراثي الحيوان، ومن مختار الشعر، والقصيدة طويلة عُدّت من عيون الشعر لجودة وصفها، وإحكام رصفها، فإنّها عذبة الألفاظ، بديعة المعاني، مطردة الأجزاء، منسّقة القوافي، وهي تبرهن على أنّ أبا الفرج كان من فحول الشعراء في الوصف وسعة الخيال مع دقّة المعنى، منها قوله:[38]

خَطبُ طَرَقْتُ به أمَـرَّ طَرُوقِ — فَظّ الحُلُـول عَلَيَّ غيْرُ شَقِيـقِ
فَكَأنَّهَا نُوَبُ الـزَّمَانِ مُـحيطَـةٌ — بِي رَاصِدَاتٌ*لي بكلِّ طَرِيـقِ
حَتَّى بِدِيكٍ كُنْـتُ آلـفُ قُرْبَـهُ — حَسَنٍ إلـيَّ مِنْ الدُّيُوكِ رَشيـقِ
أَلْقَى عليهِ الدَّهْـرُ منهُ كَلْكَـلاً — يُفْنَى الـوَرَى وَيُشِتُّ كلَّ فَرِيقِ
غَلَبَتْ صُرُوفَ الدّهْرِ فيهِ تَخَالُنِي — أنِّي لَـرَيْبَ الـدّهْر غَيْرُ مُطِيقِ
حُزْنِي عليهِ دَائـمُ مَـا غَرَّدْنَ — وُرقُ الحَمَامِ ضُحَى بِذِرْوَةِ نيقِ
لَهْفِي عليكَ أبَا النذير لـوْ أنّـه — دَفَعَ الـمنايا عنْـكَ لَهْفَ شفيقِ
وكُسِبْتَ كَالطاووسِ ريشًا لامعًا — مُتَلألِـئا ذَا رَوْنَـقِ وبريـق
كـالجُلّنارة * أو صفـاءِ عقيقة — أو لَمْعُ نارِ أو وميض بـرُوقِ
أبْكِي إذا أبصرتُ ربْعَكَ مُوحِشًا — بتحنُّنِ وتـأسُّفٍ وَ شـهيق
ويـزيدني جزعًا لفقدِكَ صادحُ — فـي منـزل دانِ إليَّ لصـيق
قَرَعَ الفُؤادُ وقَـدْ زقـا فكأنّـه — نَادَى بِبَيْنِ أو نـعَي شقيـق

36- المرجع نفسه،165/5-.166.
37 -المرجع نفسه،165./5.
38- الأصفهاني:الأغاني،22/1-29 والحموي: معجم الأدباء،155/5.
* راصدات:راقبات.ينظرك ابن منظور: لسان العرب،197/3،مادة(رصد).
* الجلنار:زهر الرمّان.ينظر: المرجع نفسه،144/4،مادة(جلنر).

فتأسّفي أبـدًا عليك مُواصـلُ بِسَوَادِ لَيْلٍ أوْ بـيَاضِ شُـرُوقِ
صبرًا لفقدِكَ لاقِلِيَّ لك بل كمَـا صَبَرَ الأسيرُ لـشدَّةٍ ومـضيقِ

ورثاء الحيوان من الأمور الهامّة في هذا المجال؛ إذْ لم صل الشعراء وفيهم الأصبهاني إلى رثاء الحيوان إلاّ نتيجة هذا الفساد والانحلال، فانصرفوا في أغراض الجدّ كالرثاء إلى العبث والمجون.

ج-دقّة تحقيقه:

يعدّ التحقيق عملية يتمّ من خلالها الوقوف عل حقائق الأمور، ونفي الشبهات والأغاليط وتنقية المؤلفات من كلّ ما يشوبها من أوهام وأخطاء بمختلف أنواعها، وهو بذلك إحقاق للحقّ، بوصفه أحد الأعمال التي تُشكِّل نوعا آخر من الدّراسة التوثيقية وكونه يجعل المؤلفات مزوّدة بحاشية تفسيريه، ووضع وثائق نادرة في متناول العلماء والباحثين، فإنه ذو أهمية بالغة في مجال الدّراسات التاريخية اللغوية وغيرها،[39]من حيث أدرك أبو الفرج الأصفهاني هذه الحقائق ،فعدّ مُحقِّقا بشهادة الجميع في دقّة تحقيقه في تحرِّي الصواب، وشدّة عنايته فيما يذكره من الأشعار المنسوبة لقائليها، فكان أبو الفرج ينسب النّسخ لأصحابها قدر استطاعته والتعرف على خصائصها مع إبراز مزاياها ونقائصها والتفطن لما فيها من إشارات التضبيب والتصحيح إضافة إلى تعريفه بالأماكن والأعلام من الشعراء والمغنيين الذين وردت أسماؤهم، ويشرح الاصطلاحات العلمية والفنية وأمثال هذا كثيرة نذكر منها هذه الأبيات التي أوردها لداود بن سلم وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية: يقول :[40]

قُلْ لأسماء انجـزي الميعادَا وانظري أنْ تُزَوِّدِي منكِ زَادَا

إنْ تكوني حَلَلْتِ رَبْعًا منَ الشا مِ وجاورتِ حِمْيَرًا أو مُـرادَا

لوْ تناءت بكِ النَّوى فلقد قُدْ تِ فُـؤادِي لِحينِـهِ فـانْقَـادَا

ذاكَ أنِّي عَلِقتُ مِنكِ جَوَى الحُـ بِّ ولـيدًا فزِدْتُ سـنًّا فـزادَا

-39 ينظر:مطاع الطرابيشي:في منهج تحقيق المخطوطات ،ص.9
40- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،9/6.

ثمّ قال:" وقد كنّا وجدنا هذا الشعر في رواية عليّ بن يحيى عن إسحاق منسوبا إلى المرقّش وطلبناه في أشعار المرقشيْن** جميعا فلم نجده، وكنّا نظنّه من شاذّ الروايات حتّى وقع إلينا في شعر داود بن سلم وفي خبر أنا ذاكره في أخبار داود، وإنّما نذكر ما وقع إلينا عن رُوّاته، فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفنا على صِحّته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره وما لم يجِر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لومَ خطأ لم نتعمّده ولا اخترعناه، وإنّما حكينا عن روّاته واجتهدنا في الإصابة وإن عرف صوابا مخالفا لِمَ◌َا ذكرناه وأصلحه، فإنّ ذلك لا يضِرّه ولا يخلو به من فضلٍ وذكْرٍ جميلٍ إنْ شاء الله ".[41]

6- اختلاف المؤرخين في وفاته وتحقيق ذلك :

اختلف المؤرخون في سنة وفاة أبي الفرج، ففي "تاريخ بغداد"[42] للخطيب ووفيات الأعيان لابن خلّكان[43] ومعجم الأدباء لياقوت الحموي[44] والنجوم الزاهرة لابن الثغري بردي[45] أجمعوا على أنّها سنة 356 هـن وزاد ابن العماد "عن ثلاث وسبعين" نقلا عن ابن خلدون، وزاد ياقوت "في خلافة المطيع بالله"، وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني "سنة 357هـ".[46]

وعلّق ياقوت في معجمه[47] على سنة وفاته 356 هـ بخطه مَاهو نصّه :" وفاته هذه فيما نظر وتفتقر إلى تأمل لأنّه ذكر في كتاب أدب الغرباء من تأليفه: حدّثني صديق قال: قرأت على قصر معزّ الدولة بالشماسية: يقول: فلان بن فلان الهروي، حضرتُ هذا الموضع في سماط معز الدولة والدّنيا عليه مقبلة وفاضلة، وهيبة الملك عليه مشتملة، ثمّ عدت إليه في سنة 362هـ فرأيت ما يعتبر به اللّبيب –يعني من الخراب- وذكر في موضع آخر من كتابه هذا قصّة له مع صبيّ كان يحبّه، يذكر فيها موت معز الدولة وولاية

** يعني بالمرقّشين: المرقّش اكبر والأصغر، والأكبر هو: عمرو بن سعد بن ملك بن ضبعة بن قيس بن ثعلب بن بكر بن وائل.والمرقش الأصغر هوك ربيعة بن حرملة، وهو ابن أخي المرقش الأكبر، وهو ايضا عمّ طرفة بن العبد.ينظرك ابن منظور/ لسان العرب،305/6،مادة(رقش).

41- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني/10/6-.11

42- ينظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد،11/.400

43- ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان،1/.476

44 -المرجع نفسهن5/.149

45- ابن الثغريبردي:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،4/.15

46- ينظر: الخطيب البغدادي:تاريخ بغداد،5/.400

47- ياقوت الحموي: معجم الأدباء،5/.149

ابنه بختيار، وكان ذلك في سنة 356هـ، ويزعم في تلك الحكاية أنّه كان في عصر شبابه فلا أدري ما هذا الاختلاف ".[48]

فلو تأمل ياقوت مليًّا فيما سرد في تاريخ أبي الفرج من أقوال العلماء والمؤرخين لتأكّد بأنّ القصّة التي ساقها عن أبي الفرج في أيّام شبيبته وصباه وذكر فيها أنّه كان يحبّ فتى من أولاد الجند في السنة التي توفِّي فيها معز الدولة بدليل:

- انّ أبو محمّد المهلبي قال: سألت أبا الفرج في كَمْ سنة جمعت هذا الكتاب؟ فقال: في خمسين سنة، وأنّه كتبه مرّة واحدة في عمره، وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدّولة فأنفذ له ألف دينار.[49]

- أنّ الخليفة الحكم الذي جمع لنفسه مكتبة خصوصية احتوت على أربعمائة ألف مجلّد كلّها من النفائس والغرر وأرسل إلى أبي الفرج في طلب نسخة من كتابه "الأغاني" فأرسلها إليه تولى خلافة الأندلس في سنة 350هـ، وتوفِّي في سنة 366 ه.[50]

فهل يُعقل بعد هذا أن يكون أبو الفرج في سنة 356هـ، كان في أيّام شبيبته وصباه، لاشكّ بأنّ هذا بعيد عن الحقيقة والصواب؛ لأنّه ثبت في غير مرجع من مراجع كتب التاريخ أنّ أبا محمّد الوزير المهلبي عندما سأله في كَمْ سنة جمع كتابه هذا، ذكر أنّه جمعه في حمسين سنة، والوزير المهلبي هذا توفِّي في سنة 352هـ. كما أنّ الخليفة الحَكم توفِّي سنة 366هـ، والحقيقة التي لا تدع مجالا للشكِّ ومجالا للرَّيب أنّ وفاة أبي الفرج كانت سنة 356هـ كما ورد في أكثر كتب التاريخ التي ذكرناها.

7-آثـــاره وموقع الأغاني منها:

رسمت كتب المعاصرين لأبي الفرج صورة ذات ألوان قاتمة وظلال شاحبة، فهو لا يعتني بمظهره، يبدو دائما متَّسخَ الثياب، قذرا في شكله وفعله، بعيدا عن مظاهر السلوك الحميد والتصرُّف الأنيق الذي يتّصف به دائما مَنْ يُنادم الملوك والأمراء. وأيًّا ما كان الرأي حول هذه الصفات ومدى مبالغتها في رسمِ هذه الصورة السيِّئة، فإنَّ هناك إجماعا من المؤرخين على سِعَةِ عِلْمِهِ وكُثْرة محفوظه وجودة شعره وكُثْرة تأليفه.

---

48 المرجع نفسه،150./5.
49- المرجع نفسه،150/5-.151.
50- ابن خلكان: وفيات الأعيان،201./1.

وقد ذاعت شُهرته في تاريخ الأدب العربي إلى تأليفه "الأغاني" الذي يُعَدُّ أضخم مؤلَّفاته، إضافة إلى أكثر من 30 كتابا لم تسلم –كلُّها- من عوادي الزَّمن ووصل إلينا منها: "الإماء الشواعر" و "مقاتل الطالبيين" الذي يتناول فيه سيرة أكثر من مائتين من قتلى الطالبيين وشهدائهم منذ زمن – الرسول صلى الله عليه وسلّم- إلى الوقت الذي انتهى فيه من تأليفه سنة 313هـ. وكانت شخصيته عليّ بن أبي طالب –رضي الله عنه- هي أهمّ شخصية تناولها بالترجمة فأفرد لها صفحات كثيرة، ثمّ تتابعت شخصيات العلويين لتشمل الحسن والحسين ابنيْ علي بن أبي طاب وغيرهما من آل البيت.[51]

وله مؤلّفات أخرى مثل "أخبار القيان" و "أشعار الإماء والمماليك" و "أخبار جحظة البرمكي" و "أيّام العرب"، وجمع عددا من دواوين الشعراء وزيّنها على الأنواع والأغراض كدواوين أبي تمام وأبي نواس والبحتري. وله كتاب كذلك في النّفس ورسالة في شرح أصوات الأغاني، وكتاب أدب السماع وغيرهما من المؤلفات ذات الطابع الإخباري و "معرفة الأنساب"؛ غير أنّ أهمّ كتبه هو "الأغاني" الذي نال شهرة واسعة لم ينله كتاب في الأدب العربي منذ أن ظهر للنّاس في القرن الرابع الهجري حتّى يومنا هذا.[52]

وَوَصفه ابن خلدون بأنّه :" ديوان العرب، وجامع أشتات المجالس التي سلفت لهم في كلّ فنٍّ ".[53]

وله مصنّفات أخرى لم يصلنا منها إلاّ بعض منها: "مقاتل آل أبي طالب" وكتاب"تفضيل ذي الحجة" وكتاب " الأخبار النوادر" وكتاب " أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب" وكتاب "مجموع الآثار الأخبار" وكتاب "الخمارين والخمارات"[54]وكتاب "الدّيارات"[55] وكتاب "صفة هارون" وكتاب "الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار" وهي رسالة ألفها في هارون بن المنجّم، وكتاب "نسب بن عبد شمس" وكتاب "جمهرة النسب والتعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها" وكتاب "الغلمان والمغنيين" وكتاب "دعوة النّجار"[56]وكتاب "نسب بني شيبان".[57]

51- أحمد تمام: في ذكرة وفاة أبي الفرج،WWW.GOOGLE.COM
52 -المرجع نفسه.
53- ابن خلدون: المقدمة،ص.445
54- ورد في ابن خلكان: وفيات الأعيان: للخمّتارين والحانات.
55 -ورد في ياقوت الحموي:معجم الأدباء، تحت عنوان(كتاب الديانات).
56- ورد في المرجع نفسه بالتاء (التجار) وفي نسخة بالطاء (الأطباء.
57- ينظر: ابن النديم:الفهرست،ص507-509.

ثالثاً–كتاب الأغني ومنهج الأصفهاني فيه:

1-تمهيد:

كتاب الأغاني لاَ يُدَانيه كتاب في منزلته وغزارة مادّته، فقد اجتمع فيه ما لم يجتمع لسواه من تراث العرب الأدبي، وقد استوعب ثقافة عصره وحصيلة معارفه وحَوَى عُيون الشعر والنثر والقصص والأخبار والاجتماع والجدّ والمجون والغناء وتراجم الأدباء.

والأغاني –فضلا عن ذلك كلّه- يعدّ في مادّته مصدرًا ثمينا لدراسة الحياة الاجتماعية في عصره والاطّلاع على تقاليد النّاس وعاداتهم، وما كانت عليه مجالس طربهم وأجناس شرابهم وأنواع زينتهم ومآكلهم ومشاربهم وأزياؤهم. ومن خلال الأغاني يقف القارئ على حال المرأة وما يعتري حياة النّاس من مظاهر العبودية والتّرف والحرمان والنّعيم وَالشقاء.

هنا تكمن القيمة الحقيقية لكتاب الأغاني برغم أنّ أبا الفرج نفسه لم يفطن إلى أهمية هذا الجانب عندما كان يؤلِّف كتابه، فنحن بعد أكثر من ألف عام نرى من خلاله كيف كانت الكتاتيب في تلك الأيّام، وكيف كان الطلاّب يختلفون إلى المساجد.

جمع أبو الفرج في كتابه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيّامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في مئة الصوت التي اختارها المغنّون للرّشيد، وقد استهلّ المؤلّف كتابه الكبير بالكلام على الأصوات التي بَنَى عليها كتابه فأورد ما ذكره إسحاق بن إبراهيم الموصلي من أنّ الرّشيد أمر أباه إبراهيم باختيار أصوات من الغناء القديم*، فاختار له من غناء أهل كلّ عصر ما اجتمع علماؤهم على براعته وإحكام صنعته ونسبته إلى من شدا به، ثمّ أتى إلى المحدّثين*وأخذ يُورد لهم ما يطابق هذه الأصوات وبعد أن اختار إبراهيم وابن جامع وغيرهما الأصوات المائة أمرهم باختيار عشرة، فاختاروها ثمّ أنّ يختاروا ثلاثة ومنها لحن المغنّي معبد في شعر أبي قطيفة الشاعر القرشي ثمّ لحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة وغيرهم.[58]

---

* الغناء القديم يقصد به ما ارتبط لالعصر الجاهلي وحتى أوائل العصر العباسي.
* المحّدثون: جيل جديد ظهر بشكل كبير مع ظهور الشعوبية.

58- ينظر: عمر الدقاق:مصادر التراث العربي،ص108-109.

2- منهج الكتـاب:

جمع أبو الفرج ما حضره وأمكنه جَمْعُه من الأغاني* العربية قديما وحديثا، ونسب كلّ ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته في إيقاعه وإصبَعِه * التي يُنْسَبُ إليها من طريقته واشتراك إن كان بين المغنّيين فيه على شرح ذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غِنى عن علمه من عِلل إعرابه وأعاريض شعره التي توصِلُ إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه.

ولم يستوعب كلّ ما غُنِّي به في الكتاب ولاَ أتى بِجَمِيعِه، إذْ قد أفرد لذلك كتابا مجرّدا من الأخبار يحتوي على جميع الغناء المتقدّم والمتأخّر، واعتمد في ذلك على ما وجده لشاعرة أو مُغنِّية أو حتّى السّبب الذي من أجله قيل الشعر أو صُنع اللّحن خبرا يُسْتفاد ويحسن ذِكر الصّوت معه على أقصر ما أمكنه وأبعده من الحشْو والتكثير بما تقلّ الفائدة فيه وأتى في كلّ فصْلٍ من ذلك بِنُتَفٍ تُشاكله، ولُمَعٍ تليق به وفِقَرٍ إذا تأمّلناها لمْ نزَلْ متنقِّلين بها من فائدة إلى مثلها، ومتصرِّفين فيها بين جدٍّ وهزل، آثار وأخبار وَسِيَرُ وأشعار متّصلة بأيّام* العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقِصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدّبين معرفتها وتحتاج الأحداث إلى دراستها ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها إذْ كانت منتحلة من غُرر الأخبار ومنتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها.

فصدر كتابه (الأغاني) وبدأ فيه بذكر المائة صوت المختارة لأمير المؤمنين هارون الرشيد –رحمه الله- وهي التي أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفُليح بن العوراء باختيارها من بين الغناء كلّه، فاختاروها، ثمّ أمرهم باختيار عشرة منها فاختاروها، ثمّ أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا نذكر منهم: لحن معبد في شعر أبي قطيفة وهو من خفيف الثقيل الأوّل يقول :[59]

القَصْرُ، فالنّحل فالجمّاء بينَهُمَا   أَشْهَى إِلَى القَلْبِ مِنْ أبْوابِ جَيْرونِ

ثمّ رُفِعت إلى الواثق بالله –رحمه الله- فأمر إسحاق بن إبراهيم بأنْ يختار منها ما رأى أنّه أفضل ممّا كان أُخْتير متقدّمًا ويبذل ما لم يكن على هذه الصفة بما

---

* الأغاني: جمع أغنية ، وهي ما يترنّم به الشعراء من الشعر، وهو شرح لغوي ولكن أبا الفرج استعملها بالمعنى الفنّي أي: القطعة الشعرية التي دخلتها صنعة موسيقية حسب الأصول الفنّية.

* الإصبع: من المصطلحات الفنّية في الموسيقى العربية.

* أيام العرب: هي أيّام مشهورة وقعت فيها حروب بين القبائل العربيةن ومن أشهرها: يوم ذي قار، ويوم النسّار.ينظر:الميداني:مجمع الأمثال،430/2-.431.

59- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،13./1.

هو أعلى منه وأولى بالاختيار ففعل ذلك واختار له أحسن صوتٍ غُنِّيَ فيه فكان لحن ابن مخزوم في شعر نصيب وهو من الثقيل الثاني يقول:[60]

نَعَمْ، وبِهِ، مِمَّنْ سجَّاكَ مَعَالِمُ أهَاجَ هَوَاكَ المنزلُ المُتَقَادِمِ ؟

وأَتْبَعَ هذه القطعة بما اختاره غير هؤلاء من متقدِّمي المغنِّيين وأهل العلم بهذه الصناعة من الأغاني وبالأصوات التي تجمع النِّعم العشر المشتملة على سائر نِعَمِ الأغاني والملاهي وبالأرمال الثلاثة المختارة وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدّم غيرها في الشهرة كمُدُنِ معبد وهي سبعة أصوات والسبعة التي جُعِلتْ بإزائها من صنعة بن سُريج وخيّر بينهما فيها، وكأصوات معبد المعروفة بألقابها، وزيانب يونس الكاتب فإنّ هذه الأصوات من صدور الغناء وأوائله وما لا يحسن تقديم غيره أمامه.

وأتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ثمّ سائر الغناء الذي عُرف له قصّة تُسْتَفَادُ وحديثا يسْتَحْسَنُ إذْ ليس لكلّ الأغاني خبر نعرفه ولا في كلّ ما له خبر فائدة ولا لكلّ ما فيه بعض الفائدة رونق يروق النّاظر ويُلْهِي السّامع، وكان أبو الفرج من جهة أخرى يبدأ بذكر الصّوت الذي اختاره والشعر المتعلّق به ثمّ يستطرد إلى ذكر أشعار قيلت في المعنى نفسه وتغنّى بها، ثمّ يتناول المناسبة التي قيلت فيها ويتعرّض أثناء ذلك ذكر الأنساب وأخبار القبائل وقصص وأشعار، فيقف القارئ والمتتبّع على ألوان مختلفة من الحياة، وعادات متفرّقة في بيئات مختلفة وطرائق الحياة في البادية والقصور من لهوٍ وتسلية فراغ يقول:[61]

أشْهَى إِلَى القَلْبِ مِنْ أبْوابِ جَيْرونِ أشْهَى إِلَى القَلْبِ مِنْ أبْوابِ جَيْرونِ
دُورُ نَزَحْنَ عن الفحشاءِ وَالهُونِ إلى البلاطِ فما حازت قرائنه
وَلاَ يَنَالُونَ، حَتَّى المَوْتَ مَكْنُونـي قدْ يكتمُ النّاس أسرارًا فَأَعْلَمُهَا

فالقصر الذي عناه هاهنا قصر سعيد بن العاص والنخل الذي عناه نخلُ كان لسعيد هناك بين قَصْره وبين الجمَّاء وهي أرض كانت له، فصار جميع ذلك لمعاوية بن أبي سفيان بعد وفاة سعيد.

ولم يلتزم أبو الفرج باختيار الأصوات التي ذكرها بالترتيب الزمني للشعراء والمغنيين وإنّما رتّبها حسب الأصوات المائة التي اختارها المُغنُّون الثلاثة للرشيد.

وقد حوى كتاب الأغاني تراجم ثلاثمائة (300) شاعر أمثال الحسين بن مُطير ** والبحتري، وعلقمة الفحل...وغيرهم، وقرابة ستين

60- المرجع نفسه، 19./1

61 المرجع نفسه، 22/1-23.

** ابن مطير: شاعر فصيح متقدذم في القصد والرّجز، وهو من السعراء المخضرمين بين العصرين الأموي والعباسي.

(60) من المغنين والمغنِّيات أمثال شارية وهي مولدة من مولدات البصرة ودنانير التي كانت أكثرهنّ رواية للغناء والشعر الزبير بن دحمان مغنٍ عبّاسي.

ومُعظم من ترجم لهم كانوا من شعراء الجاهلية والإسلام أمثال كعب بن زهر وأبي مِحْجَن الثقفي، ولم يلتزم أبو الفرج في أخبارهم ترتيبا تاريخيا، وإنّما يَنْثُر ما انتهى إليه من أخبار الشاعر حينما اتّفق واتّبع طريقة المحدّثين في إسناد خبر كلّ رواية.

ويتّضح هذا من قول الأصبهاني :" ولعلّ من يتصفَّح ذلك يُنْكِر ترْكنَا تصنيفه أبوابا على طوائف الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبه أو على ما غُنِّيَ به من شعر شاعر والمانع من ذلك والباعث على ما نَحَوِنَاه عِلل منها: أنّ لَمَّا جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة كان شعراءها من المتأخّرين وأوّلهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول، ثمّ عمر بن أبي ربيعة، ثمّ نصيب، فلمّا جرى أوّل الكتاب هذا المجرى ولمْ يمكن ترتيب الشعراء فيه، أُلْحِقَ آخره بأوّله وجُعِلَ على حسب ما حضر ذكره وكذلك سائر المائة الصوت المختارة فإنّها جارية على ترتيب الشعراء والمغنين؛[62]ولذلك وردت الأخبار وتراجم الشعراء غير مرتّبة ترتيبا زمنيا.

3-أهميّة الأغاني في دراسة اللّغة :

أ-الألفاظ والأساليب:

امتاز مؤلف كتاب الأغاني بانتقاء الألفاظ الرّشيقة السّهلة مع أسمى المعاني والتأنّق في صوغ العبارات، وتوثيق الرّبط بينهما بأسلوب عربيّ سليم جعله نسيجا وحده والألفاظ والأساليب ثياب تكسو المعاني والأفكار وتظهر الخيال.

ونلمس ذلك كلّه فيما حواه من خصائص النّثر الفنّي في هذا العصر، وما اختاره من جيِّدِ النّظم، ممّا كان له أثر عظيم في أساس نهضة الأدب العربي لمن جاءوا بعدهُ من المؤلِّفين الذين اعتبروا تصانيف أبي الفرج من أحسن التصانيف في فنِّها لأنّه أجاد فيها وَأبدعَ، وكتبها بلُغته السّامية ومادّته الواسعة، وبفضل ذلك كُتِبَ له الرّواج والانتشار في جميع العصور الإسلامية.

ولمْ يَنَلْ كتاب غيره مثل ما ناله من الشهرة والذّيوع وانتفع به كلّ مؤلف وأديب وشاعر وناثر على اختلاف العصور لأسلوبه السّهل الممتع في

62- ينظر: أبو الفرج الأصفهاني: مقدمة الأغاني،15./1

الكتابة، وحُسْنُ ذوقه العالي الشفّاف في الاختيار، فالأغاني عُدَّ من مفاخر الفكر العربي وهو مفخرة لغة العرب كلّها، فلو اقتصر متأدِّبٌ عليه لجاء منه أوّل أديب وأجلّ كاتب، لأنّه يظفر فيه بأدقّ الشعر وأجزلِ الخُطَبِ وأرَقِّ الأسلوب إلى ما فيه من أخبار وطرقٍ وسِيَرٍ ومجالس وبدائع.

وسيتبيّن من الأمثلة التي نسوقها من شروحه اللّغوية أنّه كان فوق مَا له من المنزلة العالية في العلم والأدب، قويّ الحافظة للغريب من الألفاظ، متفقِّها في اللّغة عالما بأسرارها واسع الدِّراية برواية الشعر ودَرْسِ معانيه، مُحيطا بأخبار العرب وحفظ المهذّب، المختار من أشعارهم، فمن ذلك قول أب] الفرج في شرح أبياتا لعنترة ،وهي:[63]

لَوْ أنَّ ذاميك قبل اليوم معروف	أمنْ سُمِيَّة دَمْعُ العَينِ مذروفُ
ظبيُ بِعُسْفَانَ سَاجي العَيْنِ مطروفُ	كأنّها يَوْمَ صدّتْ ما تكلّمني
كأنّها صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكوفُ	تَجَلّتْني إذا أهْوَى العَصَا قِبَلِي
فهلْ عذابكَ عنِّي اليوم مصروفُ	العبدُ عَبْدُكمْ والمالُ مَالُكُم
تَخْرُجُ منها الطّوَالاَتُ السَّراغيفُ	تنْسَى بَلاَئي إذا ما غَارةٌ لَحِقَتْ
تَصْفَرٌّ كفٌّ أخيها وهُوَ مَنْزُوف	قدْ أطْعُنُ الطّعنةَ النّجْلاَءَ عنْ عُرُضِ

- قوله "مذروف" من ذرفت عينه، فيقال: ذرفت تذرف ذريفا وهو قطر يكاد يتصل.
- وقوله "لو أنّ ذاميك قبل اليوم معروف"؛ أي قد أنكرت هذا الحنوّ والإشفاق منك لأنّه لو كان معروف قبل ذلك لم ينكره.
- وقوله "ساجي العين" : ساكنها، والساجي: الساكن من كلّ شيء.
- "مطروف" : أصابت عينه طرفةن وإذا كان كذلك فهو أسكن لعينه.
- "تجلّتني" : ألقت نفسها عليَّ
- "أهوى" : اعتمد
- "صَنَمٌ يُعْتَاد" : أي يُؤْتَى مَرَّة بعدَ مرَّةٍ
- "معكوف' : يعكف عليه.
- "السّراغيف" : السراع، واحدتها سرعوفة.
- "الطوالات" : الخيل.
- "النجلاء" : الواسعة، يقال : سنان منجل : واسع الطعنة.
- "عن عَرضٍ" : أي عن شقّ وحرف. وقال غيره : أعترضه اعتراضا حين أقتله.[64]

63- عنترة بن شداد: ديوانه، ص.124

64- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،238/8-239.

ب-فهرس ببعض الألفاظ والأساليب الرشيقة التي صاغها أبو الفرج في بعض أجزاء الأغاني:

هي أمثلة من بعض الألفاظ الرشيقة السّهلة التي صاغها أبو الفرج في كتابه الأغاني وهي مرتّبة ترتيبا هجائيا، وقد اعتمدت في ذلك على ما ورد في بعض الأجزاء ؛ لأنّه من الصّعب دراسة أساليب جميع الأجزاء، بيْد أنّ الأصبهاني صاغ من الألفاظ والأساليب الرّشيقة ما جعل كتابه الأغاني أجمل وأنفس وأجود موسوعة أدبيّة. وآثرت في هذا أنْ أذكر البعض منها، وقد راعيت في هذا الترتيب أن أذكر المادّة الأصلية وأدرج تحتها الكلمة أو العبارة التي جاءت فيها الألفاظ التي ترجع إلى تلك المادة:

حرف الألف

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
أدب	وصف من عقلها وأدبها وجمالها	01	95	04	دار الكتب المصرية
أدم	آدم أحمر ظاهر الدّم	01	249	05	
أرك	ظباء الأراك	01	163	01	
أزج	الأزج المدور كالقبّة	01	165	22	
أزر	مغفلة في مئزر لم تدرع	01	179	05	
أسد	قلوب أسود	04	105	05	
أسر	والأسارى محبوسون في الوثاق	04	206	13	
أصل	الرّأي الأصيل	04	37	01	
أنس	أستأنس بالوحدة	04	106	04	
أهل	أهلا وسهلا بكم من زار زائرا	01	170	06	
أيش	أيش هذا اللّحن الجديد	01	60	17	

حرف الباء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
بخل	ومن تبخيله المنازل	01	131	40	دار الكتب المصرية
بدر	بدرة فيها عشرة آلاف درهم	04	117	18	
برد	فأطلقوا عليهنّ بمطرقة وبردين له	01	150	14	
برك	بركة (ملئت بالخمر والماء)	01	52	09	
برم	برمت بالناس وأخلاقهم	04	106	04	
بست	في بعض بساتينها	01	274	03	
بضض	بضة الجسم	04	84	01	
بغل	تسير على بغلة لها	01	156	05	
بغل	البغلة الشهباء	1	202	2	
بقر	بقر الوحش	1	139	18	
بقل	بقل وملح وجدى	4	107	17	
بكى	استبكى عاذله	1	120	14	
بلى	لزم البلى جسمي	4	110	11	
بند	بنود	4	104	20	
بوز	بحمل البازي	1	182	1	
بيع	مصابيح بيعة	1	260	11	

حرف التـاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
تبل	وتوابله	4	16	13	دار الكتب المصرية
تجر	التجارة	1	39	4	
	تاجر موسر	1	64	16	
تخت	خمسة تخوت فيها ثياب	4	118	19	
تمر	بتمر وفاكهة	1	295	18	

حرف الثـاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
ثبت	إثبات الحجة	1	120	7	دار الكتب المصرية
ثقب	فجعلت يثقبنه ويضعن أعينهن عليه يُبصرن	1	181	10	

ثوب	الثياب المعافرية	1	21	10	
	ما كشفت ثوبا عن حرام قط	1	77	1	
	من الثوب المورّد	1	99	12	
	لبس ثيابا بيضا من صوف	4	108	12	
ثور	وخبأ من جلد ثور أجرد	4	231	4	

حرف الجيم

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
جبب	أغطيك بجبتي هذه الصوف	4	48	14	دار الكتب المصرية
جدى	جدي مشوي	4	107	17	
جذل	فسررت بي وجذلت بقربي	1	176	2	
جرد	جرادة مشدودة الرجل بحفظٍ يطيّرها ويجذبها به	1	256	10	
جرر	الجرار الخضر	4	4	10	
	ببيع الجرار	4	8	3	
	جرة ماء	1	224	8	
جزر	عند المجازر لحم الوضم	1	161	3	
جلب	على الخدين والجلباب	1	162	2	
جلز	الجلواز	4	375	8	
جلس	أبواب مجالسه	4	105	13	
جمر	مجمرة	9	334	6	
جمز	بالمجامز والطيب	1	53	1	
جمل	وصف من عقلها وأدبها وجمالها	1	95	4	
جم	يلبس جمة مركبة	1	249	6	
جمهر	جمهور النّاس	4	70	8	
جنبذ	جنابذ من الذهب والفضة	1	165	20	
جنز	حضور الأشراف جنازة نصرانية	1	67	4	
جهر	جهرهم جماه	1	160	7	
جور	فعاده جيرانه	4	321	15	
حوز	جائزة	1	40	3	
جون	سنة جوان	1	70	3	
جوهر	أودع طيبا أو جوهرا	1	169	10	
جيد	جيد الغناء	1	167	10	

حرف الجيم

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
حبر	الرداء المحبر	1	82	2	دار الكتب المصرية
حبش	عبيدي من الحبشة يتصوفون في جميع المهن	1	65	13	
حجب	وقد أبدت الخد والحاجب	1	163	2	
حجر	محاجز عيني	1	292	2	
حجز	فَجِئن إلى مضرب قد حجزن به دون بابها.	1	171	10	
حجل	ربات الحجال	1	74	8	
حجم	الحجامة	4	8	5	
حدث	مذهب المحدّثين	4	91	1	
حدد	حادة الفطنة والفهم	4	115	4	
حدق	ملتف الحدائق أخضر	1	82	3	
حرب	المحراب	1	230	3	
حرر	حرة الوجه والشمائل	1	125	4	
حرس	حوله الأحراس	1	197	5	
حرف	أضحى حرفا من النكرة	4	22	5	
حرق	الحراقة	4	103	4	
حرك	محراك أتون	4	18	2	
حرم	قديم الحرمة	4	18	10	
حسن	حسن البلاغة	4	102	2	
حشم	ممن أحتشمه	1	230	11	
حفف	محمولا في محفة	4	363	12	
حفل	المحافل	1	109	9	
حقق	ثوب محقق (عليه وثي علي صورة الحقق	1	240	20	
حلق	حِلَق المسجد (أي حلقات)	2	249	9	
حلل	وابتاع بها حللا وطيبا فأهداه إليها	1	164	1	
حلو	ثمّ دعا بحلواء فأصبنا	4	107	18	
حمر	حمر القباب	1	196	13	
حمض	بلبن القباب	4	369	5	
حمق	بعض حماقاته	4	108	15	
حمل	شق محمل مسجي	4	10	10	
حمم	حمام مكة	1	22	4	
حمى	وأنا في غمرة من الحُمّى	1	287	5	

حنت	الحوانيت (بيوت الخمّارين)	1	177	12	
حنن	وفي يده الحنّاء	1	274	4	
حوص	وكان أخمر أحوص العينين	4	232	1	
حوض	حوضا فتملؤه ماء	4	184	4	
حوط	ملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب	4	116	6	
حيل	احتيال عبد الله بن معن علة أبي العتاهية	4	25	2	

حرف الخاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
خبر	بمائدة عليها خبر سميد وخل وبقل	4	107	16	دار الكتب المصرية
خبا	خباء من أخبية العسكر	4	182	4	
ختم	فأخرجت إلي صندوقا لطيفا مقفلا مختوما	1	169	9	
ختن	ختان ابن مولاه عبد الله	1	251	7	
خدد	فوضعت خدي فوطئت عليه	1	119	7	
خدع	خدّاع ملق	1	205	15	
خدم	تباعها والخوادم	1	127	7	
خرج	التخريج (إجادة التعليم)	1	48	9	
خردل	بنقانق مطرف بالخردل	1	83	9	
خرس	الخراسانية	4	346	4	
خزز	بأكسية الخزّ	1	151	10	
خزف	تكسر من الخزف	4	09	7	
خضب	بمخضب الأطراف	1	191	4	
خضر	أحدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان	4	232	6	
خطر	نحن والله على خطر من هذا الغناء	2	292	11	
خفف	خفان غليطان	1	49	2	
خفى	أخفت نفسها من نسوة	1	166	15	
خلخل	الخلخال	1	196	3	
خلع	بخلعة سنية	4	413	10	
خلق	أخلاق المساكين	4	50	12	
خلل	سنبوسجة مغموسة في الخل	1	83	9	
خمر	بيت خمار بالشام	4	167	16	
خوخ	خوخة قد فتحت	4	222	6	
خون	الخانات فارغة	4	327	8	

خيل	ذات الخيال	1	273	7	
	يقولون للعب خيال الظل: بابة	1	180	13	
	بابات خيال الظل	1	180	14	
خيم	فأتته خادمة بخامة فسم لها على وجهه	1	287	15	

حرف الدال

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
دجج	مع دجاج كان عندنا	4	390	6	دار الكتب المصرية
دحرج	رفع رجله فضرب به صدر فريدة فتدجرجت	4	117	1	
درج	جاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقدا	4	117	17	
درع	مغفّله في مئزر لم تدَرَّع	1	179	5	
درفن	الدرافن (اسم الخوخ بلغة أهل الشام)	1	56	4	
درهم	بسبعين ألف درهم	4	38	5	
دفتر	ومعي دفتر	1	78	5	
دفف	فنقر بالدفّ	1	278	10	
دقق	دِقة المعنى وصواب المصدر	1	120	5	
دكن	الدّكان	4	371	1	
طلل	دلّ حجازي	1	66	5	
دنر	وأرسل إلى أمّها بخمسمائة دينار	1	90	2	
دنق	دانق	4	17	16	
دمى	كالدمى	1	145	1	
دهشى	بالدهشى والحيرة	4	93	3	
دهلز	الدهليز	4	52	17	
دهن	لونرينجة شرقة بالدهن	1	83	10	
دور	يدور مع الصبيان	1	69	4	
دوي	وأعطيته دواة وقرطاسا	1	8	4	
ديه	فقالت لداية لها سوداء	1	220	13	

حرف الذال

الطبعة	السّطر	الصفحة	الجزء	الكلمة أو العبارة	المادّة
دار الكتب المصرية	15	6	4	مذبذبا	ذبذب
	15	139	1	يقيس ذرعا كلما قسن أصبعًا	ذرع
	9	70	4	مذاهب رواة الشعر	ذهب
	10	27	4	أخذ منه عشرين أوقية من الذهب	

حرف الراء

الطبعة	السّطر	الصفحة	الجزء	الكلمة أو العبارة	المادّة
دار الكتب المصرية	15	192	10	ونظر في مرآته فأعجبته هيئته	رأى
	6	163	1	شريف أتى ربعنا زائرا	ربع
	7	120	1	ترجيح للشط في موضع اليقين	رجح
	10	166	1	ما أبقيت شيئا يتمنّى يا أباالخطاب إلا مرجلا	رجل
	11	99	4	رجاء عفوه ومغفرته	رجا
	16	176	1	صفق الساقي الرحيق المشعشعا	رحق
	2	192	4	سقط رداؤه	ردى
	16	117	4	ورزما فيها ثياب كثيرة	رزم
	8	319	4	يرسف في قيده	رسف
	7	116	4	على سرير مرصّع بالجوهر	رصع
	4	108	1	يكتب ويده ترعد من الفرح	رعد
	2	18	4	رغيفان	رغف
	7	172	1	حتى لحق بالرفقة	رفق
	15	277	1	ما معك من مرقصاته	رقص
	8	24	4	ترقعن الخروق	رقع
	8	281	1	الرّقيق الصوت	رقق
	10	175	4	شهر رمضان المعظّم	رمض
	5	79	1	عدد الرمل والحصى والتراب	رمل
	3	230	4	فلم تظهر لخبيث رمة حتّى الساعة	رمم
	13	274	1	رمى بالحناء من يديه وأصابعه	رمى

رهن	رهائن	4	105	11	
روح	روائح الحنّة في الثياب	4	36	5	
روق	رِواق أرضه وحيطانه ملبسه بالوشي	4	116	6	
روى	رايه الأشعريين	1	22	10	
ريح	ريحان	4	107	18	
ريش	من الرجل المعلم منكم بريش نعامة في صدره	4	197	4	
ريط	ريطا منضدا (الرّيط كلّ ثوب لين رقيق)	4	167	7	

حرف الزاي

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
زبب	ماء الزبيب	4	373	1	دار الكتب المصرية
زخرف	والدنيا كالحنّة المزخرفة	10	285	6	
زرب	الزرياب	4	411	5	
زعزع	ديار التزعزع	4	111	14	
زعفر	زعفران (للصباغة)	1	46	12	
زفف	فزففت زفيف النعامة	1	289	6	
زفن	يزفن (يرقص)	1	291	9	
زكم	زكمة وسعالا	4	387	12	
زلل	الزلالات	4	102	18	
زمر	زامر	2	342	2	
زنج	تطلب زنجية	4	272	4	
زندق	زنديق	4	34	13	
زهد	تزهد مراءاة ونفاقا	4	75	15	
زهر	بزهرة الدنيا	4	110	3	
زوج	بغيرة الأزواج	4	257	13	
زيت	ثريدة بخل وزيت	4	17	5	
زيى	زي جاف (من زي أهل الحجاز)	1	49	2	

حرف السين

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
سبخ	فبصر شخص بالسبخة	4	221	1	دار الكتب المصرية
ستر	فرفع الوليد الستر	1	52	16	
سجد	فأتاه في المسجد	1	148	1	
سجف	رفع الجواري السجف	1	127	8	
سخر	أمنّا سيخَرُ ابن أبي ربيعة!؟	1	100	1	
سرج	أنا اليوم سريجيّ	1	251	15	
سرر	وجعلت تسارني	1	112	12	
سرول	سراويلات الوشي	2	347	5	
سطن	الأسطوانة	2	248	19	
سعل	زكمة وسعالا	4	387	12	
سفل	وأتبعهم العبيد والصبيان والسفلة	1	25	4	
سفن	السفينة	4	106	17	
سقف	ألا استترت بسقائف المسجد	1	100	7	
سقي	سقاء يجعل قربه	1	39	10	
سكر	من أتاك بابن هرمة سكران فاضربه مائة...	4	375	8	
سلر	سلور في القدور ويلى علوّه السلور*	1	56	1	
سلسل	أسير في السلاسل	1	31	11	
سمر	يسمر ليلة على ظهر سطح	4	273	2	
سمك	بسمك مشوي	4	107	17	
سمن	فباعت السمن وراحلتين كان عليهما	1	209	12	
سبنوسجة	سبنوسجة مغموسة في الخل	1	83	9	
سهر	حزن وسهر وهموم وفكر	1	274	7	
سهل	وبرعهم بسهولة الشعر وبشدة الأسر	1	120	4	
سوأ	لتأتينا في أسوأ هيئة	1	176	6	
سود	رجال من السودان	1	279	5	
سوط	ضربتني بالسوط	4	25	13	
سوق	ألفاظها سوقية	4	95	4	
سوك	فاعترضته بمسواك كان في يدها	1	230	7	
سيف	في أيديهم السيوف قد غشوهم	4	262	3	

حرف الشين

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
شبب	تشبب بالنِّساء وتشيّد بذكورهن	1	157	4	دار الكتب المصرية
شبر	في بيت خمسة أشبار في مثلها	4	64	16	
شبك	شباك هن ذهب	12	48	19	
شتم	في شتم عبد الله	4	22	10	
شجر	في رجلين تشاجرا	4	107	7	
شحج	على بغال شحّج	1	187	3	
شدن	غزالا قن شدن	1	157	12	
شرر	شرّان في مصراع واحد	1	274	8	
شرط	صاحب شرطك تعدّى عليه وظلمه	2	249	10	
شرق	لوزينجة شرقة بالذهب	1	83	10	
شري	مع الشراة الخارجين	1	290	5	
شصى	الشاصيات	1	285	1	
شعر	ولشعره لرونق وديباجة صافية وحلاوة	4	233	5	
شغف	مشغوفا بالغناء	4	102	7	
شقر	بغلة له شقراء	1	259	9	
شلو	على أوصال شلو ممزّع	4	229	6	
شمر	و قام مشمرا	1	116	4	
شمل	في شملة	4	114	3	
شنع	تشنعك	1	287	5	
شهر	الشهرة التي قد شهرت لها نفسك	4	81	8	
شور	بهرهم شارة وعارضة وبيانا	1	160	7	
شوك	تصيبه شوكة تؤذيه	4	230	10	
شيب	ما أقبح الأشيب في الرّاح	4	49	4	
شيخ	مشيخة من قريش	1	118	11	
شيع	خرجوا يشيعون بعض خلفاء بني أمية	1	154	3	

حرف الصاد

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
صبح	وأطفأت مصابيح	1	144		دار الكتب المصرية
صبع	يقيس ذراعا كلما قس إصبعا	1	177		
صبغ	ثوبان مصبوغان	1	72		
صبئ	وأتبعهم العبيد والصبيان السّفلة	1	25		
صحب	صاحب الدكان	4	20		
صدر	عن صدر المجلس	4	186		
صدق	صدق الصفاء	1	120		
صدم	صدمة الكأس	1	231		
صرر	وثبرة من دراهم ودنانير وحلي	4	381		
صعلك	صعلوك	1	32	15	
صفق	وإذا بعجوز قد طلعت علينا يصفق أحد لحييها	1	164	2	
صكك	بصك فيه عشرون ألف درهم	1	32	12	
صلب	وجد الصّليب في عنقها	1	67	6	
صلع	فصكّ معبد بيده صلعته	1	51	16	
صلى	بالمصلّى	1	225	7	
صند	صناديد قريش	4	193	19	
صنع	فاخر الصّنعة	1	167	10	
صور	أيصوَّر الحور	4	51	16	
صومع	براهب في صومعته	4	100	15	
صيح	صاحت ببغلتها ومضت	1	156	11	
صيد	مصايد الدنيا	4	42	11	

حرف الضاد

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
ضعف	ضعيف الرأي	4	49	3	دار الكتب المصرية
ضيع	فباع ضيعة له	1	220	10	

حرف الطاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
طبب	طبة عالمة	1	135	1	دار الكتب المصرية
طبق	بطبق عليه بزما ورد	4	353	13	
طحن	تطلب رحى وثقالا لتطحن	2	263	11	
طرب	ما معك من مطرباته ومشجياته	1	277	12	
طرف	وحالف بسمعه وطرفه	1	102	11	
طست	واضع رجله في طست لوجع كان يجده	1	26	3	
طلب	طلاب الغريب	4	70	10	
طلس	أطلس اللّون الذي فيه غبرة إلى السواد	1	275	14	
طلق	امرأته طالق	1	83	8	
طوق	طوق ذهب	1	259	11	
طيب	وابتاع بها حللاً وطيبا فأهداه إليها	1	167	1	

حرف الظاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
ظرف	ومعي صاحب لي ظريف	1	174	6	دار الكتب المصرية
ظغن	نواعم الأظغان	1	139	17	
ظلل	يقولون للعب خيال الظل: بابة	1	180	13	
ظهر	بين يديه ظهرًا (قلمًا) ودواة	4	30	5	

حرف العين

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
عبس	عابسا قاطبا	1	163	4	دار الكتب المصرية
عته	المعتوه الملحف	4	100	1	
عجب	أعاجيب الزمن	4	84	10	
عجز	اعتجر على رأسه ببرد له	4	188	12	

عذب	عذب الثنايا	1	178	10	
عرش	عريشا من جريد	4	184	10	
عرض	عريض الجاه	4	102	2	
عزز	عزّ السلطان	4	99	11	
عزف	وتعزف علينا القيان	4	182	10	
عسف	أشدّهم عسفا في وقت الغضب والغلطة	4	104	5	
عسكر	فاستجال بفرسه حول العسكر	4	185	15	
عسل	عسال الضحى	1	275	14	
عشر	يوم عاشوراء	4	16	13	
عصب	وعصابة من ذهب	4	218	6	
عصفر	ملحفة معصفرة	1	278	4	
عصو	وإذا بعجوز قد طلعت علينا عوراء متطئة على عصا	1	164	2	
عضض	فغضت منكبي فما وجدت ألم غضتها	1	112	13	
عطر	عطارة بالمدينة	1	64	17	
عفر	بالبراق العفر	1	280	4	
عفف	عفة المقال	1	120	6	
عقل	وصفن عقلها وأدبها وجمالها	1	95	4	
علف	تحمل علفا	4	382	4	
علم	فيتذاكرون العلم	1	75	12	
على	أعلى قاتله	1	120	14	
عمد	عمود سرير	1	37	6	
عمم	كثرت العمائم والنعال والخفاف	1	23	10	
عنبر	بكافور ومسك وعنبر	1	236	5	
عهد	ولي العهد أولى	4	413	6	
عهر	عاهرة الدّار	1	56	9	
عوج	صنعة عيدان الفرس	1	250	15	
عور	وإذا بعجوز قد طلعت علينا عوراء	1	164	2	
عيش	العيش طالعة	1	181	9	
عيل	عيالنا	1	24	4	
عين	وأحضروا أكياسا فيها عين وورق	4	117	16	

حرف الغين

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
غذا	فالغذاء حاضر كثير				دار الكتب المصرية
غرد	يغرّد قمري				
غرف	غرف الجنان				
غرم	معزم بالصّيد				
غزر	أغزر النّاس دموعا في وقت الموعظة				
غزل	غزل يمان				
غسل	إلاّ مرجلاً يُسجن لكم فيه الماء للغسل				
غطط	أغطيك بجبّتي هذه الصوف				
غفل	مغفلة في مئزر لم تدرع				
غلق	أغلق رهن مني وأهدر قتلاه				
غمز	ثمّ اغمزيه يا أخت في خفر				
غنى	فتذاكرنا أحسن ما سمعناه من المغنيات				
غير	فغارت التي كنت أحدّثها				
غيظ	فغاظني ذلك				

حرف الفاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
فأس	شربه بفأسه	4	371	2	دار الكتب المصرية
فتح	فتح الغزل	1	120	8	
فحش	والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط	1	77	3	
فخر	وعلى ظهره قفص فيه فخار	4	47	3	
فرش	تقلبت في الفراش	1	140	2	
فرع	فرعهم طولا	1	160	7	
فرغ	في وقت فراغي	4	89	9	
فرو	وعليه فرو وخفان غليظان	1	49	1	
فستق	الفستق المقشر	1	75	8	
فسط	وفساطيطه بمنى	1	260	8	
فطر	من رقاق فطير	4	16	20	

فقه	فابعث معنا نفرًا من أصحابك	4	225	2	
فكه	يحملون الفاكهة	1	212	3	
فلج	أصابه الفالج وارتعش وبطل	1	36	12	
فلسف	الفلاسفة	4	2	4	
فم	ثمّ ملأ فمه فمجه عليهن في وجوههنّ	1	171	12	
فيل	قائد الفيل ودليل الحبشة	4	303	4	

حرف القاف

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
قبر	قبر أبي العتاهية	4	112	14	دار الكتب المصرية
قبل	فقبل ركابه	1	259	1	
قدح	صبّ قدحًا	4	108	1	
قذف	هاالله ليقذفن بنو مخزوم بناتنا	1	200	5	
قرأ	ويقرئونا للقرآن	4	225	3	
قرب	سقاء يحمل قربة	1	39	10	
قرط	القرط بالحجل	4	22	15	
قرطس	قرطاسة قوهية (من أنواع الحرير)	1	326	6	
قرظ	فلم يبق له خلف يقرظه	10	285	8	
قرع	مائة مقرعة	4	66	8	
قرقر	يادار دوريني * ياقرقر امسكيني	1	68	17	
قصر	القصور موشية (أي منقوشة)	1	28	18	
قضب	يوقع بقضيب	1	250	12	
قطط	جاء القط أكله ولي علّوه	1	55	13	
قطع	القطوع والديباج	1	221	4	
قفص	وعلى ظهره قفص فيه فخار	4	47	3	
قفل	فاخرجت إليه صندوقا لطيفا مقفلا	1	169	9	
قفو	القوافي السّهلة	4	40	13	
قلنس	قلنسة طويلة	2	342	2	
قمر	يغرد قمري	1	111	4	

قمص	بقميصها الذي يلي جلدها	1	193	12	
قمقم	ولم يجدوا قمقما حتى استعاروه	1	16	5	
قندل	قناديل تسقيها السليط (الزيت) الهياكل	7	338	13	
قنطر	قنطرة الزيّاتين	4	111	6	
قنع	سدل قناعه على وجهه	4	250	11	
قنن	قنينة فيها خمسة أرطال نبيذ	1	222	6	
قهرم	فلم يدر القهرمان أين يطلبني	5	27	5	
قهو	قهوة في الأباريق تحتذي	6	67	11	
قوه	قرطاسو قوهية	7	236	6	
قيد	اكسروا قيده وفكوا عنه	14	319	11	
قيم	قيم الخبازين	4	236	2	
قين	وكانوا يتقاينون ببغداد	10	219	3	

حرف الكاف

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
الكافر كوبات	يا لكافر كوبات	4	316	4	دار الكتب المصرية
كبر	كبراء السلطان	4	370	14	
كتف	حرّك عمر رداءه ليصلحه على كتفه	1	112	10	
كحل	طبّ ما في المكاحل	4	60	3	
كرس	كرسيّ يجلس عليه	1	276	9	
كره	كراهة الذلة	4	99	12	
كرى	اذهب فتكار حمارين	4	375	12	
كسو	ومشى فتة بالكساء	1	155	9	
كعب	فرشى له في ظهر الكعبة وجلس	1	119	14	
كفر	بكافور ومسك وعنبر	1	236	5	
كفف	الأكف النواعم	1	127	11	
كفن	كفن دينار	4	18	11	
كلن	خفضى عليك بعض العزم والكلفة	1	251	8	
كمم	بل كمه	4	106	17	
كمن	أللقوم كمين أو مدد	4	185	16	

كنز	كنوز البرّ	4	100	1	
كهن	الكهان	4	304	15	
كور	يحملن ركبانا وأكوارا	1	181	9	
كوز	كوزماء	5	222	6	
كيل	مكيالكم	1	110	9	

حرف اللام

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
لألأ	وفي عنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد	4	275	1	دار الكتب المصرية
لبس	تلبس لبسة أعرابي	1	175	14	
لجم	دابه بسرجها ولجامها	4	100	12	
لحف	وعليه ملحفة معصفرة	1	278	4	
لحن	بفساد لحنهم وكلامهم	4	102	13	
لحي	مقبل على شيخ حسن اللّحية	4	52	5	
لذذ	لذة النّظر	1	147	4	
لطأ	على رأسه لاطئة	4	52	6	
لعب	يقولون للعب خيال الظل: بابة	1	180	13	
لها	الملاهي		101	10	
لوح	عند رأسه لوح من ذهب		218	6	
لوز	لوزينجة شرقه بالدهن		83	10	
لون	أربعة ألوان من الحزن في بيت واحد		274	7	

حرف الميم

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
مجن	مجّان مكة	1	169	11	دار الكتب المصرية
مدد	متكئ ممدود الردل	4	7	13	
مرج	المرجان	1	95	12	
مرو	مروانيتي ومروانية أبي	4	410	5	
مزح	ومازالوا يتمازحون بذلك دهرا طويلا	1	170	6	
مسح	يا صاحب المسح تبيع المسحا	4	39	9	

مسك	من المسك والجاوي	4	168	6	
مشى	تمشي بها بغلاتها	1	201	6	
مطر	فتحدّثوا مليًّا ومطروا	1	150	14	
مقل	أحور المقة	1	157	13	
ملاء	ملاءة مطيبة	1	52	16	
ملح	غناء الملاّحين	4	102	18	
ملك	ثلاثة أملاك ولاة عهود	4	105	2	
مناديل	في أيديهم الأباريق والمناديل	7	67	15	
مهد	ممهودا سريره	4	400	5	
مهر	هذا مهري أدفعه إلى أبي	4	364	6	
مهن	وعبيد في الحبشة يتصرفون في جميع المهن	1	65	13	
موز	تقتل العلماء بالموز	4	10	8	
موسى	الموسى (آلة قاطعة)	9	334	7	
مول	آفة الأموال	4	100	11	
ميد	بمائدة عليها خبز سميد وخلّ	4	107	16	

حرف النون

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
نبذ	أخذ منه النبيذ	1	252	2	دار الكتب المصرية
نبر	قال على المنبر بالكوفة	4	306	2	
نبل	إن اكتنفكم القوم فانصحوهم بالنبل	4	190	7	
نتف	ينتف الريش	1	275	5	
نجب	النجائب المخضوبة بالحنّاء	1	221	3	
نجم	نجوم سعود	4	105	6	
نحر	ننحر الحزر	4	182	9	
نرجس	وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس	10	274	10	
نزه	المتنزهات	4	17	4	
نسف	عمامته على رأسه مثل المنسف	4	257	10	
نشب	النشاب	1	162	5	
نشر	من طيب نشر	1	180	22	

نشط	نشط إلى الشرب	4	115	15	
نشو	أخو نشوة	1	177	12	
نطع	بسيف ونطع	4	275	16	
نطف	وناطف المعصار	4	373	1	
نظر	تنظّر (بمعنى تأنّ وتريث)	1	58	11	
نعج	ما نعجة من وحش ذي بقر	1	159	7	
نعل	حذوك النعل بالنعل	1	115	5	
نغص	نغص علينا ما بعده	1	277	6	
نغم	فهمت نغمات قوم آنس بهم	4	221	8	
نفر	المنافرة	1	274	19	
نفض	نفض النوم	1	120	14	
نقش	منقوشة على خاتمه	4	37	19	
نقض	يتناقضان الغناء وترادانه	1	276	10	
نقط	فرأيت الخساء نقطة كتمرة العجوة	4	274	2	
نقنق	بنقائق مطرف بالخردل	1	83	9	
نكر	تأتيهن متنكّرا	1	175	12	
نمرق	من نمارق وكراسي	4	345	11	
نهج	نهج العلل	1	120	8	
نوب	نوبة في خدمة الواثق	4	115	14	
نوح	النائحة	1	73	4	
نور	صبية النار	1	18	1	

حرف الهاء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
هزبر	زرمحي الهزبري	4	218	9	دار الكتب المصرية
هزج	الأهزاج	1	276	11	
هزز	فهرت رأسها عجبا	1	91	15	
همم	بل اعترتني الهموم بالسهر	1	170	16	
هودح	الهودج	1	270	16	
هوى	أذاب الهوى لحمي وجسمي ومفصلي	4	118	17	

حرف الواو

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
وتر	أوتار قسيهم	4	228	7	دار الكتب المصرية
ورد	من الورد أو من الياسمينا	1	147	11	
ورق	وأحضروا أكياسا فيها عين وَورق	4	117	16	
وزر	الوزراء	4	370	14	
وسد	الوسادة	4	186	13	
وشح	وفي وشاحين وأوضاح	4	49	6	
وشى	القصور موشية (منقوشة)	1	28	18	
وصف	الموصوفات المحسنات	4	115	3	
وضأ	فدعا بوضوء فجاءت به جارية	4	273	2	
وظف	ولأبعث إليه بالوظيفة	4	53	17	
وقع	فوقع بقهقهة	1	291	4	
وكب	في موكب عظيم	4	66	3	

حرف الياء

المادّة	الكلمة أو العبارة	الجزء	الصفحة	السّطر	الطبعة
يسم	من الورد والياسمينا	1	147	11	دار الكتب المصرية
يقت	بعقد من الياقوت				

***الخاتمة:**

أبو الفرج عليّ بن الحسين، عالم وأديب من أصفهان، قرشي الأصل، بغدادي المنشأ، كان عالما بأيّام العرب وأنسابهم وسيّرهم وأخبارهم ومغازيهم، حافظا للشعر والحديث، مُلِمًّا بالطبِّ والفلك والموسيقى، وكان شاعرا وكاتبًا وناقدا. عاش إبّان القرن الرابع الهجري وتوفّي سنة 356هـ-966م.

وكتاب الأغاني لاَ يُدَانيه كتاب في منزلته وغزارة مادّته، فقد اجتمع فيه ما لم يجتمع لسواه من تراث العرب الأدبي، وقد استوعب ثقافة عصره وحصيلة معارفه وحَوَى عُيون الشعر والنثر والقصص والأخبار والاجتماع والجدّ والمجون والغناء وتراجم الأدباء.

امتاز مؤلف كتاب الأغاني بانتقاء الألفاظ الرّشيقة السّهلة مع أسمى المعاني والتأنّق في صوغ العبارات، وتوثيق الرّبط بينهما بأسلوب عربيّ سليم جعله نسيجا وحده والألفاظ والأساليب ثياب تكسو المعاني والأفكار وتظهر الخيال.

ونلمس ذلك كلّه فيما حواه من خصائص النّثر الفنّي في هذا العصر، وما اختاره من جيِّدِ النّظم، ممّا كان له أثر عظيم في أساس نهضة الأدب العربي لمن جاءوا بعدهُ من المؤلّفين الذين اعتبروا تصانيف أبي الفرج من أحسن التصانيف في فنّها لأنّه أجاد فيها وَأبدعَ، وكتبها بلُغته السّامية ومادّته الواسعة، وبفضل ذلك كُتِبَ له الرّواج والانتشار في جميع العصور الإسلامية.

هذا،ولمْ يَنَلْ كتاب غيره مثل ما ناله من الشهرة والذّيوع وانتفع به كلّ مؤلف وأديب وشاعر وناثر على اختلاف العصور لأسلوبه السّهل الممتع في الكتابة، وحُسْنُ ذوقه العالي الشفّاف في الاختيار، فالأغاني عُدَّ من مفاخر الفكر العربي وهو مفخرة لغة العرب كلّها، فلو اقتصر متأدِّبُ عليه لجاء منه أوّل أديب وأجلّ كاتب، لأنّه يظفر فيه بأدقّ الشعر وأجزلِ الخُطَبِ وأرَقِّ الأسلوب إلى ما فيه من أخبار وطرقٍ وسِيَرٍ ومجالس وبدائع.

ومن مزايا هذا الكتاب النّفيس أنّ أبا الفرج الأصبهاني أثناء سَرْدِهِ للأخبار انفرد بشرح كلمات لغوية لاَ وجود لها في المعاجم اللّغوية. ويذكر ألفاظا اصطلاحية كانت شائعة في الدّولتين الأموية والعباسية ولا نظير لها في كتب الأدب، فهو من هذه النّاحية حفظ لنا ثروة لغوية عظيمة لولاه لضاعت مع ما ضاع من تراث الأدب العربي.

المصادر والمراجع:

- الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني،طبع طبع دار الكتب المصرية،القاهرة،القاهرة.
- الأصمعي، محمد عبد الجواد:أبو الفرج الأصفهاني،دار المعارف بمصر،ط2.
- أمين، أحمد:
* ضحى الإسلام،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،ط5، 1371هـ-1952م.
* فجر الإسلام،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،1979م.
- أنيس إبراهيم و منتصر عبد الحليم والصوالحي عطية،و أحمد محمد خاف الله: المعجم الوسيط،دار الفكر، بيروت.
- ابن الثغريبردي ،جمال الدين أبو المحاسن يوسف:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،تحقيق إبراهيم علي طرخانن المؤسسة المصرية العامة للنشرن1383هـ-1963م.
- ابن خلكان، القاضي أحمد: وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان،المطبعة الميرية، بمصر،1310هـ.
- ابن شداد، عنترة: ديوانه،دار صادر، بيروت،1992م.
- ابن العماد الجنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2،دار المسيرة،بيروت،1399هـ-1979م.
- ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب،دار صادر، بيروت، لبنان،ط3 ،1414هـ-1994م.
- ابن النديم، محمد ابن إسحاق،تحقيق مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر،تونس،والمؤسسةالوطنيةللكتاب،الجزائر،1406هـ-1985م.
- البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،لبنان،1407هـ-1987م.
- تمام، أحمد: في ذكرى وفاة الصفهاني.موقع .google.com
- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،نتصحيح د.س مرجليوت،المطبعة الهندية بالموينكي بمصر،ط2.
- خليفة، حاجي: كشف الظنزن عن أسامي الكتب والفتون،دار الكتب المصرية،1274هـ.
- الخوري، يوسف عون:مختصر أغاني الصفهاني،تصحيح عبد الله العلايلي،دار طلاس للطباعة والنشر،دمشق،1985م.
- الدقاق، عمر: مصادر التراث العربي في الغة والأدب والتراجم،مطبعة حلب،ط 5،1977م.
- زيدان، جرجي:تاريخ التمدن الإسلامي،منشورات دار مكتبة الحياة،1967م.
- الطرابيشي، مطاع:في منهج تحقيق المخطوطات،دار الفكر.
- المقري التلمساني، أحمد بن ومحمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق البقاعي يوسف الشيخ محمد،دار الفكر،بريوت،ط 1،1998م.
- **ابن خلدون، عبد الحمن: المقدمة**،دار الجيلنبيروت،لبنانن.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد:صبح العشى، المطبعة الأميرية بالقاهرة،1331هـ-1913م.
- معلوف اليسوعي، الأب لويس: المنجد في اللغة والأعلام،منشورات دارالشروق،ط36،بيروت،،1997م.
-الميداني،أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد إبراهيم النيسابوري: مجمع الأمثال،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار النصر،دمشق،بيروت.

رؤيا العالم في الشعر العربي المعاصر

د/ عبد القادر فيدوح ـ جامعة البحرين

Vision of the World in the Contemporary Arabic Poetry

Dr. Abdelkader Fidouh

This study attempts to extrapolate some poetic texts, as determined according to the perspective of existential vision, on the subject of aesthetic creation in its constant search for alternative utopian of a fragile and worn reality, descended to humility and alienation, and trying to revolutionize it within dialectical change. This dream of change bump a reality that does not react nor erupts, not wanting to shift. The dream remains persisting embodied in the emissivity revolutionary vision in its destructive shape, and an unexpected potential, given that the fear of the poet is death without real mission.

This study tries to highlights the possibility that the poet's vision to understand the world and the desire to understand the reality, with its artistic values, from the perspective that the poet can be aware of this fact more than anyone else. That is why we see the poet permanently searching for new formulas, manifested through which the reality of the human being in the highest reflections. It is natural that interactions of social and technical movements produce more aesthetic formulations that have the ability to absorb the reality of the embryonic new community, and most able to respond to the new reality.

This study seeks to show the role of poetry in the reality of existence, through poetic texts we apply some semantic concepts, and their relationship to reality level, ideological level, and the temporal level, through a sense of human's presence which is hidden behind the facts.

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة استقراء بعض النصوص الشعرية وفق منظور ما تحدده الرؤية الوجودية في موضوع الخلق الجمالي في بحثه المستمر عن البديل اليوتوبي Utopia لواقع هش ومتآكل، ينحدر إلى الاتضاع والاستلاب، ومحاولة تثويره ضمن جدلية التغيير. إلا أن حلم التغيير، هذا، يرتطم بواقع لا يتفاعل ولا يثور، وكأنه لا يرغب في التحول، ويظل الحلم باقيا مجسدا في الرؤية الثورية الانبعاثية في شكلها" التدميري"، وبشرى مرتقبة، على اعتبار أن ما يخشاه الشاعر هو الموت دون بعث حقيقي.

والشعر العربي الحديث غالبا ما يرسم صورا يتطلع فيها إلى الأمل المرتقب من حيث إن مزيج الراهن بهذا التطلع هو محاولة انصهار الثبات في التحرك المنشود، والاستمرار فيه، إذ يكون الإنسان ظاهرا للوجود الحضاري بحكم الانتماء لطبيعة الكينونة البشرية في مساعيها.

كما تحاول الدراسة أن تبرز إمكانية أن يصبح للشاعر رؤيا في فهم العالم والرغبة في فهم حقيقته ـ بما يملك من قيم فنية ـ من منظور أن الشاعر أكثر الناس إدراكا لهذه الحقيقة، ولذلك نراه دائم البحث عن صيغ جديدة، يتجلى من خلالها واقع الإنسان في أسمى إشراقاته، ومن الطبيعي أن تثمر تفاعلات الحركة الاجتماعية والفنية أكثر الصياغات الجمالية قدرة على امتصاص الواقع الجنيني للمجتمع الجديد، وأكثرها قدرة على الاستجابة للواقع الوليد بعدئذ.

وتسعى هذه الدراسة إلى أن يكون للشعر دور في معرفة حقيقة الوجود، عبر نصوص شعرية نطبق عليها بعض المفاهيم الدلالية، وعلاقتها بالمستوى الواقع، والمستوى الإيديولوجي، والمستوى الزمني، من خلال إحساس الإنسان بحاضره الذي تتوارى خلفه الحقائق.

البنية الدالة

النص ولادة متجددة، ومتجذرة، في اللاوعي الجماعي، بكل ما يترسب فيه من مبادئ وقيم متباينة، تسهم في ترسيخها جماعات بشرية ذات انتماءات حضارية، وإذا كان السوسيولوجيون يرون " أن الإطار الشكلي للكتابة يحمل سمات انبثاقه الاجتماعي"[1] فإن هذا الانبثاق لا يخضع لتأثيرات خارجية أدبية أو اجتماعية مباشرة، بل يتم هذا التأثير على مستوى القيم التركيبية، وبنيتها، من خلال الأنظمة الثقافية المختلفة، وذلك أن دمج الأثر بالواقع والحياة من شأنه أن يكسبه دلالة أعمق عبر انفتاحه على آفاق شاسعة، وأبعاد لامتناهية.

ولا شك في أن محاورة الإيديولوجي، ومساءلة الاجتماعي، في سياقات جمالية تحاول أن تخرج النص من سكونيته إلى حركية أكثر جاذبية، وإثارة جوانبه الخفية، ورصد علائقه الداخلية ـ وأن محاولة كهذه ـ من شأنها أن تحقق قراءة بنائية تستقرئ الواقع الرؤيوي، الاستشرافي، الذي ينبغي أن يكون كما تتوخاه الرؤيا الإبداعية، حاضرا في أبجديات البعث المرتقب للواقع اليوتوبي المنتظر، كونه لم يتجل إلا كعلامة أو سمة، والكتابة هي التي تضفي عليه معنى، وتحوله إلى فضاء دلالي؛ لأن الكتابة هي التي تكيف الواقع، وليس العكس، إلا أن غولدمان ***Lucien*** Goldmann يؤكد على تعددية الرؤى للعالم ضمن علاقته بالكتابة، بحيث " يعرف الأثر من ناحية علاقته بالمجتمع الذي ينصهر فيه، وهو ليس انعكاسا شفافا، بل مجموعة دلالات ممزقة ورافضة"[2] وذلك بالتركيز على فهم التحليل الاجتماعي ضمن أبنية دالة، أو كما عبر عنها غولدمان Goldmann أيضا بـ " بنائية التوالد" التي تتبلور في مخيلة المبدع، فيحولها بحدسه إلى رؤية متجددة، ومنسجمة بصور متناغمة، تتجاوز البنى الاجتماعية في ظاهرها إلى تجسيد واقع حلمها وإفرازاته عبر منعطفاته الحادة، وحيث لا يعكس الأثر الواقع بقدر ما يضيئه، ويكشف عنه. أضف إلى ذلك أن النص ـ كما يقول الناقد الفرنسي **كلود بريفو** ـ " لا ينبت في المطلق، إنه يدخل في لعبة التوازن بين مختلف القوى الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والماورائية"[3] وتتعدى هذه اللعبة حدود التوازي إلى علائق التقاطع والدخول في تفاعل حميمي بين النص والواقع.

---

[1] فؤاد أبو منصور : النقد البنيوي الحديث ، دار الجيل، ص113.

[2] المرجع السابق ، ص 113.

[3] المرجع نفسه، ص 139.

إن إدراك الوعي الإبداعي لدلالات هذا الواقع ـ الممزق ـ لا يقع في حدود الواقع المدرك بالحس، أو الوجدان، بوصفه معطى ماديا ـ جاهزا ومحسوسا ـ بل ينبثق انطلاقا من زعزعة هذا الواقع، وخلخلة نظمه، وخلاياه المجتمعية المعتلة، وإحداث بلبلة من شأنها أن تعيده إلى هيئته الأولى؛ أي إعادة خلقه باستمرار، تلك هي رؤيوية المبدع الذي يتفحص الواقع، لا لينبئ به، بل لينبئ بما وراءه؛ أي بالممكن " الذي لا يشتمل على تناقض ذاتي"، وكأن الذي يحرك النفس ليس الواقع، بل ما وراء الواقع[4] ، ومع ذلك فالتلقي؛ أي وجود النص على أنه معطى جمالي في ذهن القارئ ، أو كمتصور ذهني غائب، هو الذي يعيد ابتكار النص وليس الوسط هو الذي يحدده؛ لأنه يتبلور فيه، ويبقى النص مؤشرا على ذاته، ودليلا إليه كما يقول **كلود دوبوا** : "إننا ننطلق من النص ونعود إليه ، نقرأ ـ ونفسر ـ الصيرورة الداخلية؛ ولأن هناك فردا مبدعا فيجب أن نبقى على حذر من التبسيطات المغرضة، ليس بوسعنا سوى إعطاء سمات نسبية عن كينونة القيمة والأصالة، فالرؤيا، والخيال، والإيديولوجيا، لا تعتقل في معادلات بفضل تماسكها وقوتها[5]، وهكذا فإن القراءة المفتوحة تمنحنا إمكانات دلالية متعددة، كما تمنحنا المقدرة على النفاذ إلى متن النص الداخلي وطبقاته الأكثر غورا.

ضمن هذا التوجه التحليلي في قراءة النصوص الشعرية، حاولنا استقراء بعض النصوص الشعرية، مركزين فيها على تجربة الشعر الجزائري، الواعدة، ليس من حيث اجتماعية الظواهر الأدبية في تماثلها الإيديولوجي، أو في نظرتها الآلية، بوصفها نتيجة مكملة لمفاهيم سبق التسليم بها، ولكن وفق منظور ما تحدده الرؤية الاجتماعية في موضوع الخلق الجمالي في بحثه المستمر عن البديل اليوتوبي لواقع هش ومتآكل، ينحدر إلى الاتضاع والاستلاب، ومحاولة تثويره ضمن جدلية التغيير. إلا أن حلم التغيير، هذا، يرتطم بواقع لا يتفاعل ولا يثور، وكأنه لا يرغب في التحول، ويظل الحلم باقيا مجسدا في الرؤية الثورية الانبعاثية في شكلها" التدميري"، وبشرى مرتقبة، على اعتبار أن ما يخشاه الشاعر هو الموت دون بعث حقيقي.

لذلك انهمك الشعراء في كنه الوجود، وما تركه من أثر فعّال في تجسيد المواقف، تفاعلا مع الصراع المؤجج، والأحداث الملتهبة. والحال، أنه لم يكن من الشاعر إلا مكابدة هذه المشاق، بركوب أهوالها، حسب ما تراءى له في مقام " وقفة الآني"، البعيد الغور في أناته، تداركا لما فقده في " الوقفة

---

[4] أدونيس : كلام البدايات، دار الآداب، ص 84

[5] ينظر ، فؤاد أبو منصور : النقد البنيوي الحديث، ص 135 .

الساكنة" ، وتيمنا بـ " الوقفة التأملية " في تجلي القادم، المكنون، في صورة الانبعاث، كما في مقطع " ليس نجماً"[6] لأدونيس:

ليس نجماً ليس إيحاء نبيّ
ليس وجهاً خاشعاً للقمر ـ
هو ذا يأتي كرمح وثنيّ غازياًِ أرض الحروف
نازفاً ـ يرفع للشمس نزيفهْ؛
هو ذا يلبس عُرْيَ الحجرِ
ويصلّي للكهوفْ
هو ذا يحتضن الأرض الخفيفةْ.

اليباب والانبعاث

تحتل صورة الانبعاث في الشعر العربي محورا أساسا من الحضور المكثف، وشعرنا العربي لا يخلو من هذا الحضور، يعكس فيه الشاعر عذاباته الذاتية لدواع كثيرة، تقف وراء أزمات مجتمعه الحادة، لعل أهمها حالة الإحباط. وقد ارتأينا في توقيعة " **شهادة الاغتراب**" للشاعر عبد الله العشي ما يعكس صورة اليأس التي تعتري واقعه المرير في لحظة من لحظات ضعفه في معترك الحياة؛ حيث الواقع المغطى بخراب الموت، والمعجون بتراب الصمت والقنوط. ينتظر، ويغازل ميلاد الواقع الآخر، الواقع اللامقول، المرتقب مع كل بسمة فجر، وإشراقة صبح، ومن ثمّ تبدو " **سيرة الفتى**"[7] سيرة قدرية تحركها مجانية اللاجدوى، ويلفّها شعور درامي، سرعان ما يتحول إلى شعور تفاؤلي، يؤدي إلى التحرر من القدرية، والإعلان عن"**إرادة القوة**" ذلك الشعور الحاد، القار في دواخلنا، ولا يتم ذلك إلا عن طريق الانبعاث، انبعاث هذا الوطن المجني عليه، وقد تجسدت صورة هذا البعث في ملامح " **القادم**" ، ولذلك نجد النص في "**سيرة الفتى**" يحتكم إلى بنية انتظار وترقب ممزوجين بيقين البعث الأكيد، في انتظار الخلاص، والخروج من دائرة الصمت، والحزن، والاغتراب.

---

[6] من "فارس الكلمات الغريبة" ديوان أغاني مهيار الدمشقي، الأعمال الشعرية، دار المدى، 1996، ص 144.
[7] مجلة كتابات معاصرة، لبنان ، ع 18، 1993 .

ثمة عتمة غائرة، وبحث مستمر، عن الوجه الآخر لسماء تتحلى بالضياء، وأرض تعبق بالورد. وثمة ضياع مجهول يمتص دهشة الأشياء ويحولها إلى كلمات وامضة، تستوعب احتمالات الغد، وفي ظلمة هذه العتمة هناك ضوء خافت لكي تنبعث وردة القلب محملة بالعطاء والفرح، كما في مهيار أدونيس:

ملك مهيار
يحيا في ملكوت الريح
ويملك في أرض الأسرار.

كل شيء في " سيرة الفتى" يوحي باغترابه، ويتوحد بعرائه، ويحمل صمته في سؤاله، كل شيء منفي في زنازين الصمت والحصار، فـ" سنونوة الشعر" يحاصرها اليباب، وتخنقها المسافات الموصدة، ودروب الاغتراب، و"وردة البحر" بين انسداد الرؤية وضبابيتها، وانفتاح القلب على أصداء الآتي المغترب، وفضاءاته، في سموات المستحيل، حتى **"كبرياء"** المرء في هذا العالم لم يسلم من المقايضة، والطعن، والمساومة، والمفاوضة.

كل إمكانات البعث في حركات النص الأولى ظلت مستحيلة وصعبة، تحوم في دائرة الإمكان إلى أن تصل حدود الانفجار، فيصطدم المستحيل بالممكن، والصمت بالسؤال، والرمل بالماء، والرمز بالإشارة، وتبدو البنية النصية وكأنها سائرة في تطوير جدلي يعلن عن صراع بين أطراف خفية، لكنها تفصح عن هويتها عبر صفات توحي بمواصفاتها، ومن ثمّ يكون حضور الذات منعكسا في نقيضها، مشكلا بذلك تقابلات :

- على مستوى الواقع اليومي: عامل / معمول به
- على المستوى الإيديولوجي: قهري / ثوري
- على المستوى الزمني: آني / ما بعدي

وهذه التقابلات من شأنها أن تفجر النواة الدلالية، فما الذي يسفر عنه السطح الدلالي؟ وما الذي يختفي داخل العمق الدلالي؟ وما الذي يتوارى في العمق التأويلي؟

مستوى الواقع اليومي " عامل / معمول به

تفتتح القصيدة بمرثية لفقد الذات المبدعة، دفء الحياة، وخصب المكان، واصطدامها بخراب واقع متآكل، وعجزها عن إعادة الصورة " الماقبلية " لإشراقاته البدئية، فتنسحب، وترتد، إلى ليلها، دلالة على أن البعث مازال مستحيلا:

كيف تدخل سونونوة الشعر هذا اليباب ؟ !...
أي باب ستعبره.. أي باب ؟
والمسافات موصدة والدروب اغتراب
سوف تمسك ريشتها وتوقع لحن العراء
ولحن الغياب
ثم تذرف من عينها دمعتين .... ومن قلبها
وتعيد إلى قمر الوجه ليل النقاب [8]

كل الأبواب موصدة، وكل الدروب مغلقة، وليس أمام الذات سوى أن تعلن حدادها، وتعزف على وتر الضياع، ومما يدل على أن الاغتراب كلي وليس جزئيا ـ داخليا ولا خارجيا ـ وأنه ضارب في العمق هو التحول من دلالة الحزن إلى دلالة الألم بوصفه عاطفة إنسانية، وأحد الظواهر الوجدانية المشحون بالوجع، وهذا ما يتجلى في قول الشاعر :

ثم تذرف من عينها دمعتين .... ومن قلبها

فالكلمات دائما ما تحتمل إيحاءات ظاهرية لا تستقر على المعنى الحقيقي، بل لها انعكاساتها الدلالية في عالم الكينونة الباطني، وهنا لم يكتف الشاعر بالجملة الأولى، بل راح يوظف نقاطا (...) هي أوسع من أن تحتويها الدموع ليكون البكاء في القلب، إيذانا بحس الفجيعة المدمر، وتجسيدا لدرامية الذات في جدلها المأساوي.

يحتاج العالم، إذاً، إلى بياضه، ونقائه، وبراءته، كي تنمو "**سنونوة الشعر**". كيف لها أن تورق في يباب تزدحم به الكلمات، فالواقع مستنقع في رَهْوٍ من الطحالب، موحل في المعضلات، ومثقل كاهله بالمتاعب والإرهاق، ترفض الذات التواصل معه تعبيرا عن أن " الإنسان لا يكتفي بعدم الرضا

[8] مجلة كتابات معاصرة، ع، 18، 1993.

عن واقعه، بل، هو،على الدوام غير راضٍ عن بنيته الداخلية، عن حِطّتها وكونها مغلولة بالمحدود وممتصة في الأرضي والواقعي"[9]، فهو لا يريد أن يحيا وحسب، بل يطمح إلى الخلود والبقاء، وكأن شيئا لم يتحقق من الممكن المنتظر، أو على حد قول أدونيس :

حتى الآن، أيها الشعر،
لم تفتح لي أية نافذةٍ
على ذلك المجهول الّذي تعِدُ به.[10]

لكن يبدو أن الواقع في معيشته، أو المنتظر منه، ليس لاقتناص اللحظات الجميلة والتغني بلحن طروب، بل إنه واقع مدلهم، وممكن حالك، يلفه ليلٌ دامسٌ، وطريق طامسٌ، يغرق في الدموع، ويغترف من السواد، وهكذا تتجسد فاعلية العامل في كونه عامل دمار، يمارس كل أنواع القمع الوجداني والجمالي، وأنواع الكبت، وأشكال التسلط والمصادرة والامتصاص، في حين يظل المعمول به صورة لانهزام الذات، واختناقها، واصطدامها بفاجعة الواقع المتحجر، المنحدر إلى الاتضاع، فتلجأ إلى النحيب والبكاء:

وتعيد إلى قمر الوجه ليل النقاب

ولكن أنَّى له ذلك بعد أن أعلن البياتي غرق قارب النجاة من اليابسة، وغاص المآل:

غرقت جزيرتنا وما عاد الغناء
إلا بكاءْ
والقُبَّرَاتْ
طارت ، فيا قمري الحزين
الكنز في المجرى دفين

لأن أوان البعث لم يحن، أو لأنه بشرى قلقة، ومتلعثمة، ومضطربة ، وضبابية، ومتلكئة،أو لأن المخانة أصابت ظهره، وما ناله من شحنات جمة

---

[9] يوسف اليوسف: الشعر العربي المعاصر، ص 206
[10] أدونيس : فضاء لغبار الطلع، كتاب " دبي الثقافية، ص 22 ، سبتمبر 2010.

من الأضرار، وما حاق به من عنت، أو حل به من ضرر على نحو ما وقع لمهيار أدونيس[11]:

مهيارُ وجهٌ خانه عاشقوهْ
مهيارُ أجراس بلا رنين
مهيارُ مكتوب على الوجوه
أغنيةٌ تزورنا خِلسةٌ
في طرقٍ بيضاء منفية
مهيارُ ناقوسٌ من التائهينْ
في هذه الأرض الجليليّة.

المستوى الإيديولوجي " قهري / ثوري"

هناك صدامية غير مباشرة تنهض بين الذات الرافضة والسلطة، فبينما تحاول الأولى إيجاد مخرج " **طلائعي / تحرري** "، تلجأ الأخرى إلى إكراهها ونفيها، وتنعكس هذه الصدامية في حالة الإقدام المنبعث من غريزة الحياة، وتجانب حالة النفي الصّدّ بالإعراض والهجران، الناتج من غريزة الدمار؛ لتظل المواجهة مستمرة، ويحمل هذا **الصدّ/ الإعراض** وجهين: أحدهما ترهيبي، والثاني ترغيبي، ومن هنا تتجلى ملامح هذه الصدامية بوجهها الترهيبي في هذا المقطع:

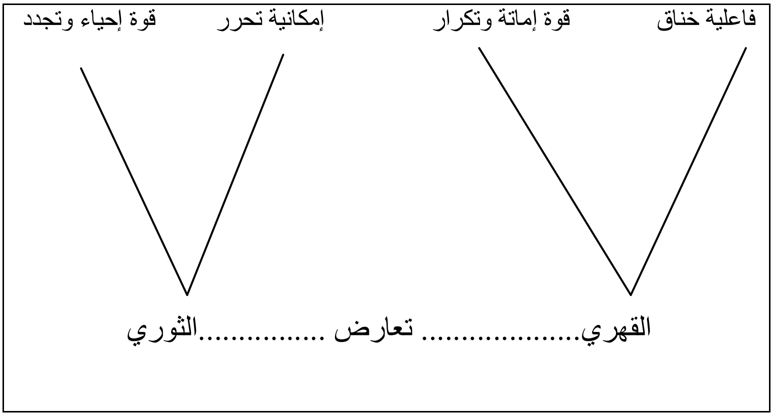
كان يمكن أن تكبر السنبلة
وتولد ياقوتة الماء والزاد الراحلة
كان يمكن أن تكبر الكلمات
لو مضت نحو دهشتها الأسئلة
كان يمكن ... لكنهم قتلة

كل إمكانات البعث واردة، ومحتملة، شرط توافر المناخ، وتهيئة الأجواء المساعدة على ذلك، فقد كان يمكن ألا تنحني السنابل لسِنان مناجل القتلة، وكان يمكن أن تعلو الكلمات هامتهم، وتتجاوز ثرثراتهم، وخطاباتهم المنمقة، وألا تظل في جوف الشاعر في شكل حلم مرّ؛ وهكذا توصد أمام المخيلة كل ضروب الرؤية، فأبجدية القوة كانت هي اللغة السائدة، ومن ثم ظل أُسّ الإمكان هو الأس المتصاعد في تطابق الحركتين وسيرورتهما إلى

[11] ديوان أغاني مهيار الدمشقي، الأعمال الشعرية ، مصدر سابق، ص 146.

غايتين متناقضتين: **الأولى** إمكانية التحرر من القهر " قوة، إحياء، تجدد، " **والثانية** فاعلية الخناق" قوة إماتة، تكرار".

ويمكن توضيح ذلك من خلال هذه الرسمة التي تعكس تطابق القوتين في التصاعد، وتعارضها في الغاية:



وهذا ينبئ بأن البعث مازال مجرد حلم في القلب، ولكنه أيضا حركة في الوعي، واستشراف في الأفق، مادامت نية الإمكان موجودة حتى وإن كانت ماقبلية " **كان يمكن**" وذلك أن بذور البعث كامنة في الأعمق المعطر بالتراب ورائحة الأرض ونبضها، هناك سر ما، كامن في هذا الإمكان، ونبض عظيم هو سر مهابته، وحين تقع الذات على هذا السر، عندها فقط تورق السنابل، وتكبر الكلمات، ويتفجر الماء معلنا الميلاد المنتظر، ولعل تكرار الجملة:

" كان يمكن "

ليس مجرد نبرة مجانية، وإنما إحالة تلميحية على هذه السرية المتكتمة، ذلك أن " اللغة لا تنقل ببساطة صورة ميتة عن الواقع الخارجي، بل موقفا تجاهه في الوقت نفسه، وهي تفعل ذلك لأن التجربة كلها، والواقع كله، يبرز على

نحو واع خلال مسيرة صراع الإنسان مع الطبيعة"[12] حيث تبزغ السمة الأساس، ليس في نقل صورة خارجية عن الواقع المحموم، وإنما في محاولة تحريك فضاءاته الداخلية في تقاطعها مع جزئياته الخارجية. ومن ثمّ تتمثل ملامح الترغيب في هذا المقطع:

حين أوقفه "ملك الملك"
في " موقف الذل" قال له:
أنت عبدي ، فكن صامتا ما استطعت
وكن خائفا ما استطعت
وكن خاضعا ما استطعت
توحد بذاتي ولا تفش سر العبارة
أقربك من ملكوتي وأكشف لك الستر
والحضرتين وباب الإشارة

تتنامى حركتا " **الثوري**" و " **القهري**" في تصاعد كلي، وتبدو القوة الأولى هي المخاطَبة (بالفتح) والثانية هي المخاطِبة، ولكنها ليست مخاطبة وحسب، بل إنها آمرة ومهددة، واعدة وممهدة بذلك لنياتها التي تكشف عنها في نهاية المقطع، وتظهر علامات الأمر المهددة في:

وكن خائفا ما استطعت

أي على المأمور أن يستحضر كل قواه لتنفيذ استطاعة مرفوضة، آتية من " **فوق**"؛ من أعلى، لتتحول هذه الاستطاعة إلى طاعة إجبارية، إلى حد التوحد والذوبان ليصير المخاطب منصهرا تماما في ذات المخاطب حتى يمكنه من أسرار غيبياته وما يتوارى خلف الأستار لضمان الحضور الخفي، وهكذا تتحول المعادلة، من معادلة " **قهري/ ثوري**" إلى جدلية "**وجه التقيد**" الرابض في محتوى " **التحرك الشرطي**" لتحديد الذات في علاقتها مع تحديد الوضع الذي يضفي على الكينونة الشعور بفقدان حس البواعث، حيث الصمت والخوف، والخضوع، يقدم قربانا للتقرب، والوعد بأبواب مفتوحة على أمل كاذب. وليس من بدٍّ في هذه الحالة إلا التحدي بما يناسب حال المآل، كما في ألمعيّة أدونيس الأثيرة:

---

[12] كريستوفر كود ويل: الوهم والواقع ، ترجمة: توفيق الأسدي ، دار الفارابي ، بيروت ، ص 165.

أقسمت أن أكتب فوق الماء
أقسمت أن أحمل مع سيزيف
صخرته الصماء.
أقسمت أن أظل مع سيزيف
أخضع للحمى وللشرار
أبحث في المحاجر الضريرة
عن ريشة أخيره
تكتب للعشب وللخريف
قصيدة الغبار.
أقسمت أن أعيش مع سيزيف.[13]

المستوى الزمني - الآني / المابعدي

هناك زمن يحتقن بالثبات، ويمتلئ بالسكونية والموت، وهناك زمن آخر منجذب إلى الحركية، والاستمرارية، والتدفق. فالأول تجسيد " **للآني"** الراكد، القاحل،" **اليباب** "، والثاني مؤشر على التَّني، فهو منبثق، ومتفجر، ومفتوح على التغيرات والتحولات، ولذلك كان همّ الذات هو استدعاء الزمن الآخر، زمن الامتلاء والحضور، ونشدان الآتي المحمل بنبض الحياة، والمشحون بالتنبؤ وفيض العطاء، والمتجدد على الدوام "وهذا يدل على أن عيني الشاعر مثبتتان دوما على الغد، على المستقبل الخصيب. فهو، إذاً، يعزف سيمفونيا الحركة المواظبة على صعودها الأبدي ... وتلكم هي ملحمة الجدل المتحول باتجاه الأبدية"[14]. وقد تجسدت ملامح هذه المابعدية الاستشرافية في أبعادها الأزلية في صورة **"القادم"** بوصفه مؤشرا دلاليا على هذا الزمن المرتقب في صورته الكلية.

الزمن الموصد، إذاً، تبدو فيه اللحظات اغترابا، ويظل فيه الشعر مرهونا بأبجديات الحزن، والألم، والمرارة، والعري، والضياع، والحسرة، والبكاء، حيث القلب مفتوح على الجمر، والصدر منطبق على الجراح:

أغلقت بابها وردة البحر
فانفتحت جمرة الصدر وانهارت المملكة

---

[13] المجموعة الكاملة، ص 234.
[14] يوسف اليوسف : الشعر العربي المعاصر ، ص 198.

أما الزمن "**الانبعاثي**" فهو زمن تصاعدي، مفتوح على شرفات مستقبلية، تنبئ بالفرح، وإشراقة الغد المنتظر:

في التماع الصباح الجميل
حين يفتح أبوابه العالم
سوف يفجؤكم ... سوف يقبل...
فارتقبوا...

فالارتقاب في نظر الشاعر شيء موحد مع الأمل المنشود، غير أن السمة البناءة لهذا الأمل المرتقب نابعة من الحساسية المفرطة لراهن الضعة لوضع "**الآن**" الذي يتطلع إلى تجاوز ديمومته المتلاشية.

إن مزيج الراهن بالتطلع المرتقب، هو محاولة انصهار الثبات في التحرك المنشود، والاستمرار فيه، إذ يكون الإنسان ظاهرا للوجود الحضاري بحكم الانتماء لطبيعة الكينونة البشرية في مساعيها، حين تمارس هذه المساعي فاعلية التعاطف الإنساني، والتمسك بالمعنى الجوهري، ارتهانا بما يلائم الحقيقة الموكلة "**للإنسان**" في تطلعه الإنساني حين يُشهد له بالفاعلية الروحية.

ويمكن توضيح التعارض الكلي واتساع المسافة بين الزمنين في الجدول الآتي :

الزمن الموصد " اليباب "	**الزمن المابعدي " الانبعاث"**
المسافات الموصدة »	فافتحوا للفتى
الدروب اغتراب »	سوف يقبل
تعيد إلى قمر الوجه ليل النقاب »	التماع الصباح
أغلقت بابها وردة البحر »	حين يفتح أبوابه
حين أوقفه »	وتجيء

تعارُض الزمنين هو تجسيد لرؤيا الواقع القاتم، واحتفاء الذات بيقين البعث الذي سوف يبدد الحَيرة، ويزرع الضياء:



تجليات البعث

تتأسس بنية النص على جدل خفي تعكس معاناة ذات بعدين:

- **الأول** ـ خيبة الواقع اليومي في حِطته، وتدنيه، ومحاولة تجاوزه إلى أفق مشرق ومستنير، وابتكار واقع مشرئب.
- **الثاني** ـ صعوبة تحقيق هذا الحلم، وهكذا يمكننا تصور فاعلية هذا الصراع انطلاقا من الخطاطة الآتية:

القـادم ـــ» المنقذ

المعارض ــ» الترهيب والترغيب

المساعد ـــ» الخروج إلى الضوء

وحتى لا ينطفئ حلم مازالت ملامحه تتكور في القلب والذاكرة، كان لا بد أن يتحول إلى انبعاث مؤكد، يزيل قتامة الحزن، ويبدد غماماته، وهكذا فقد تقمص " **القادم** " ألوان الفرح، وإشراقات النهار ليجيء بالبشارة:

في التماع الصباح الجميل
حين يفتح أبوابه العالم

سوف يفجؤكم ... سوف يقبل...
فارتقبوا...
قد يفاجئكم من وراء الغمام
قد يفاجئكم من هديل الحمام
قد تخبئه نجمة..
وتجيء به خفية... في غدير الظلام
فافتحوا للفتى سر أسراركم، وافتحوا للعريس
باب أيامكم، واخرجوا من رماد الرماد
اخرجوا للدليل
إنه مقبل، مقبل، قاتلا أو قتيل
حين يفتح أبوابه العالم.

صفات القادم " المقبل " :

- المقبل
  - صفات التجلي
    - خفي
    - لامرئي
  - صفات التحدي
    - مفاجئ
    - مغامر

- خفي، ولامرئي: لأنه مجهول، محمول على غموض العتمة والظلام

- مفاجئ : لأنه مبهم، غير متوقع، لكنه مرتقب.
- مغامر: يضحي بحياته من أجل بقاء الآخرين، ولكي لا يظل العالم مفقودا، فهو مرهون بوجود الكل.

وأيا ما كانت الحال في هاتين الصفتين فإن حقيقة **"القادم"** المرتقب تكتنفها كومة من العوائق، تسعى الواعية الجماعية ـ بقيادة تفكيرها ـ إلى تمديدها، وتعويضها، بالمثل الأعلى الذي تتوخاه المذاهب الإنسانية في إشراقاتها، بقدر ما تعمل وتفكر، وبحسب منظورات القيمة السلوكية التي هي في حال مشروع طموحاتنا الفياضة، وهو ما أشار إليه B.Groethuysen حين ترجم فكرته عن الإنسان على النحو الآتي: " إن شيئا لا يوجد إذن بدون أن يدرك الإنسان قيمته، فالإنسان هو الكائن الذي يحدد القيم، ولديه تعي قيم الأشياء ذاتها، إنه يسأل كل موضوع عن قيمته، ويعقد العزم دوما على تحديدها، إنه يعرف أن يقول عن كل شيء ما قيمته. إن الإنسان هو القيمة التي تقوم هذا العالم"[15] بوصفه محور الذات والوجود على الدوام، من حيث إيمانه المطلق بالخلاص الكوني، وعظمة الإرادة البشرية لديه؛ ولذلك فهو يدفع حياته في سبيل بعث حياة أفضل، وهذا ما حدث مع القادم الذي يستبشر البعث، ويأمل الخلاص، حيث جسد الشاعر عبد الله العشي فيه كل ملامح الانتصار:

إنه مقبل، مقبل، قاتلا أو قتيل.

وفي هذا الإقبال تكمن الإرادة الفذة في المقاومة، وتتجلى الرغبة الجامحة في التطلع، كما في قول أدونيس:

بين الصدى والندى يختبئ
تحت صقيع الحروف يختبئ
في لهفة التائهين يختبئ[16]

الدروب الضائعة وهدير الموت

إذا كانت صورة الواقع ـ فيما مر بنا ـ قد اتخذت في أبعادها الإيحائية شكل الصراع في سيرورته التصاعدية، بغية استشراف الواقع

---

[15] ينظر، يوسف كومبيز : القيمة والحرية، ترجمة : عادل العوا، دار الفكر ، ص 11.
[16] أدونيس ، أغاني مهيار الدمشقي (بين الصدى والنداء) ، المجموعة الكاملة، ص 155

المنتظر في تجلياته المستقبلية الطافحة ببشرى الانبعاث، والذي تجسدت ملامحه في " **القادم** " المحمل ببذور الفرح؛ إذا كان الأمر كذلك لدى الشاعر عبد الله العشي ، فإن فرح الشاعر عياش يحياوي يبدو مستحيلا، وهو يعبر " **الجنازة** " من أجل " الخروج إلى الغناء أمام ظمأ الذات " **لصباح من مطر**" ينعش الأنفاس، ومتكئ خرافي يهمس إلى الأسماع بحديث راعٍ، يدثر القلب في لحظات القرّ المريرة، ومن ثم يبدو " **الحاضر** " كسيحا ومزمنا، و" الآتي " مستندا ـ في إعياء ـ إلى "**عكاز القدر**"، وفي القلب غربة تأوي إليها الذات، إرغاما، تلملم أشتاتها المبعثرة، فيما تنشر موتها على الطرقات، بحيث يأتي قول الشاعر في قصيدته " **عبور الجنازة** " حادا، يتوعد بنشر موته على الطرقات، ويطرق الأبواب والأشجار ليزعزع هدأة الكرى في العيون، معلنا بذلك " **عبور الجنازة**" جنازة الموت في حد ذاته، وتفجير الصمت المطبق في الشجر، والمخيم، وعلى الشوارع والأبواب ، ومن ثمّ كان احتفاء الذات بالجنازة هو أيضا احتفاء بحدس الرؤيا:

سأنشر موتي على الطرقات، وأعلن أن الجنازة عابرة
فقفوا !!... سوف أطرق أبواب كل الشوارع، كل الشجر
أصيح بأن المسجىّ إلى قبره لم يكن شيئا، كان يطلب توضيحه
ويغني لنافذة مسخته غريبا وألقت بعكازه للقدر...
سأذبح ديكا وأنشره في الطريق، وأجعل من غربتي حانة ودفوفا
وراقصة من ذرى حزنها تتدلى ومن أضلعي تنهمر..[17]

والذات هنا ترفض التصالح مع الواقع، وتفضل إدانته بالموت. وانتعاشها بطقوس الرقص والبخور، دلالة على رغبتها في خلق عالمها وطقوسها الخاصة، سعيا إلى تدمير الواقع المحيط بها في عبثيته ومجانيته، بوصفه واقعا مهترئا، ومترهلا، ينبغي إعادة بنائه.

لقد تآلف الشعراء المعاصرون مع ظاهرة الموت في رؤيا الحزن و**نَفْي الاهْتِمَامِ**، نتيجة عدم التكيف مع الواقع المليء بالقذى والأذى، حيث الراهن مغتّمٌ بالبلاء والابتلاء، وصدع الشمل وفك التضام، وبث الخلخلة، وتشتت النخب، وتكريس التهجين الثقافي وتمييعه، وكثرة الاهتمام بالاحتفاليات من دون معنى، وفقدان الأمل، وانعدام التوازن؛ لذلك لم يجد الشاعر مفرا من تبني ظاهرة "صورة الموت" التي كانت تعبيرا في العمق عن الذات المهدّمة، وانفصالها عن واقع ناب بذويه، وتنكر لهم، وطمست فيه

---

[17] الملحق الثقافي لجريدة العلم المغربية، ع 888، السنة17، في 1988/8/27 .

الأماني والأحلام. ومن هنا يتبين أثر تفاعل الشاعر المعاصر مع هذه الظاهرة، يجسد من خلالها ملامح معاناة الذات في مكابدة الظلم الذي ينكأ له ـ على الدوام ـ جراحا متورمة. وقد يكون من بين هؤلاء الشعراء الذين أغرقوا دواوينهم بهذه السمة هو عبد الوهاب البياتي، السابح في أمواج مغنصات الحياة التي اقتضاها الضيم، مما ولد لديه الشعور بالاغتراب، وهي سمة طبعت مجمل شعره، بخاصة ديوانه " **الموت في الحياة** " كما في قوله[18]:

فراشةٌ تطير في حدائق الليل إذا ما استيقظتْ باريسْ
يتبعها "أوليس"
عبر الممرات إلى "ممفيس"
تعود للتابوت
لظلمة البحر، لبطن الحوت
تتركني على الرصيف صامتا أموت
تحت رذاذ مطر الخريف
وحبّها المفترس المخيف
في ليل باريس بلا دليل
اتبع موتي في زحام الشارع الطويل
ها هي ترقص في كأس من المدام
عاريةً تحت سماء الليل والأنغام
تغازل الظلال
تقول لي تعال !
وتختفي في الظلمة
شاحبةً كنجمة
تفرّ من باريس
تاركة وراءها "أوليس"
يبكي على قارعة الطريق
يموت في حانات ليل العالم الطويل
ـ أنا أمير الدنمارك "هملت" اليتيم
أعود من مملكة الموت إلي الخمَّارة
مهرجاً حزينْ
يقاتل الأقزام والأصفار
في مدن الضوضاء والتجارة

[18] قصيدة الموت في الحب ، من ديوان الموت في الحياة ، المجموعة الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995، مج 2، ص 137.

يصور الشاعر معاناة الغربة في اتحاده مع البطل الميتولوجي "عوليس" الذي كابد بدوره قدر العذاب، على الرغم من وجه الاختلاف في نهاية كل منهما، فبينما يجني "عوليس" ثمار عذابه بالانتصار، يرى البياتي تصور وجوده مدعاة للفرح، والتطلع إلى السمو في صورة متفائلة من خلال هذا النداء:

أيتها العذراء
هزِّي بجذع النخلة الفرعاء
تسَّقط الأشياء
تنفجر الشموس والأقمار
يكتسح الطوفان هذا العار
نولد في مدريد
تحت سماء عالم جديد
قالت أراك في غدٍ وانطفأ القنديل[19]

إنه نداء المغيث بالعودة إلى ما انطوت عليه حضارتنا الماجدة، عصر الأندلس الذهبي (**نولد في مدريد**) و(**تحت سماء عالم جديد**) دونما قيود ولا أغلال، سماء تعيد بناء واقعنا، وتُعنى بما يسكننا بمأثرة الفرح، ومسرة الأنس، ودرَّة مكنونة تطبع نسيج حياتنا بما يكتنه عالم سرِّنا، رغبة في نيل جواب يعكس ذواتنا، وشغفنا بالفرح، انطلاقا من الحقيقة المجدية بالعيش الكريم. غير أن ذلك لن يكون في نظر الشاعر إلا بتلاشي طوايا الإبعاد والنسيان، و(**اكتساح طوفان العار**) باحتضان هزة جارفة تهز جذع النخلة حتى (**تنفجر الشموس والأقمار**).

الغربة، إذاً، هي العالم الطافح بالحركة والتدفق، كما توحي بالفرح الآخر الذي يغمر القلب بالرقص والنشوة في اتجاه رفض فكرة الانفصال عن الذات، وهنا تتخذ الغربة دلالات السكر، هروبا من سوداوية واقع مدلهم، **قَنُوط** ومقروح القلب، تعميقا لرمزية الرقص في أبعادها الأسطورية، على اعتبار أنه استجابة روحية.

لقد تحول حدس الرؤيا إلى عدم، ومن ثمّ بادرت الذات إلى ممارسة عدميتها وموتها بالمجان؛ لأن موتا لا يعبر نوافذ المقبل، وشرفاته، هو موت مجاني، مشوه، ولكن الموت في العمق هو المقصود؛ لأنه يؤدي إلى تفجير السكونية، ونسف الثابت، ومن ثمّ سعت الذات إلى البحث عن البديل الرمزي؛

---

[19] المصدر نفسه، 138.

للنفي الخارجي في معاناتها المتكررة؛ لكي تعوضه بغربة يبينها الشاعر في داخله، ويشيدها من أضلعه، هكذا لم يكن بوسعه أمام وهم الرؤيا إلا تحدي الموت، ومغالبة الأسى، عن طريق خلق عالم من الرؤى المتجددة، يعيد من خلالها بناءه في أجواء من الرقص والجنون، ويمكن نفسه بمعطيات بغرض معرفة الرؤية الذاتية بصورة أدق، وذلك عن طريق ممارسة قوى الإبداع في تخومه الخارقة، وعبر مستويات المعاناة التي من شأنها أن تحدد الهوية الحقيقية لذاته، كما عبر عن ذلك نيتشه Nietzsche, Friedrich الذي يؤمن بـ " **أن اليقين الحقيقي هو طريق المرء إلى الجنون**" في طاقة إبداعه الهائلة، أو كما عبر عنها البياتي على سبيل المثال في "قصيدتان إلى ولدي علي":

قمري الحزين
البحر مات وغيَّبت أمواجُه السوداء قلع السندباد

...
أ كذا نموت بهذه الأرض الخراب ؟
ويجفّ قنديلُ الطفولةِ في الترابْ ؟
أهكذا شمس النهار
تخبو وليس بموقد الفقراءِ نارْ ؟

...
فَلِمَنْ تُغَنِّي ؟ والمقاهي أوصدتْ أبوابَهَا
وَلِمَنْ تُصَلِّي ؟ أيها القلبُ الصَّدِيع
والليلُ ماتْ
والمركبات
عادتْ بلا خيلٍ يُغَطِّيهَا الصَّقِيع
وسائقوها ميتون
أهكذا تمضي السنون ؟
ويمزّق القلبَ العذابْ ؟
ونحنُ مِنْ مَنْفَى إلى مَنْفَى ومن بابٍ لبابْ
نَذْوِي كَمَا تَذْوِي الزَّنَابِقُ في التُّرَابْ
فُقَرَاء، يا قَمَرِي، نَمُوت
وقطارُنا أبداً يَفُوت.[20]

وقد وصف حاتم الصكر ذلك بإحدى نبوءات الشاعر، فقد غدا قبره في منفاه ـ احتكاما إلى ذاكرة الشعرـ خارج المكان والزمان كمصائر الشخوص في قصائده، بالرغم من شكواه من المنافي التي:

---

[20] المجموعة الكاملة، ج2، ص 21 وما بعدها.

دفنت أشباح موتانا
وضعنا في الأضابير
وفي رسائل البريد
.. وفي منافي مدن الجليد

وإذ سكن الموت والمنفى شعور البياتي وقصائده ووعيه، فآخى بينهما، فإنه شكّل منهما صورته التي تركها مرسومة في ألبوم الحياة وحفرها في ذاكرة الشعر"[21].

وهكذا، أصبحت الحاجة إلى السؤال ـ بوصفه رغبة في التغيير الدائم ـ أكثر من الحاجة إلى الركون، والرغبة في الغموض أضخم من الرغبة في المكاشفة، وبالتالي ظل إلحاح الشاعر ـ الجزائري ـ على السؤال قائما، يفجر كوامن حقيقة الوجود حتى يزوده في رحلة يشكل فيها تضاريس بلاده، ويعود تحت ترابها كي تولد ياقوتة العمر:

قد صنعت بلادي ، وهيأت قافلتي للسؤال...

لكن هذه الولادة لكي تبقى ممتلئة بالمشِع، وطافحة بالممتلئ ينبغي أن تقدم لها القرابين، ويظل فعل المضارع الاستشرافي يؤدي دورا استطلاعيا في حركيته المتصاعدة، على حد ما جاء من الشاعر يحياوي في قصيدته " الخروج إلى الغناء":

سافقأ هذي السماء صعودا كسهم أثيم
وأنشر روحي لبرية الله
ينقرني نجمها وأبابيلها
أتوسد جمجمتي وأغني[22]

في هذه التركيبة الدرامية تقدم الذات قربانا في سبيل تحقيق ولادة غير مشوهة، فالخروج إلى الغناء دلالة على وجود كبت في الداخل، وضيق في النفس، ولم يكن بوسع الذات، أمام الانطفاء، إلا أن تشتعل، ولم يكن لديها ـ مقابل الصمت والسكون ـ إلا أن تنقذف في السماء وتنشر روحها في " برية الله" هروبا من جحيم لافح. ومن ثمّ جاء الخروج إلى حدائق الفرح والغناء، رغبة في الخلاص الذي قد لا تجده إلا في " ظفائر الصبايا "، أو راقصة

---

[21] ينظر، موقع حاتم الصكر، http://www.hatemalsagr.net/
[22] الخروج إلى الغناء ، جريدة مهرجان المربد التاسع، ع 42 نوفمبر 1988.

تنهمر في ضلوعه، وتتدفق من فيض جنونه، بوصفها تجربة لبراءة الأشياء، وعمقها، لتظل لحظة الرقص هي لحظة الولادة المشتهاة:

ألا يا صبايا المدينة هل في خزائنكن بخور يجسمني لحظة الرقص
ثم أشبهه قمري وأضيع[23]

إنها لحظة الفرح المستحيل التي يحاول الشاعر خلقها في زمن تحاصره الظلمات عبر دائرته الضيقة المتناهية، حيث لا دفء يجمعنا، ومع ذلك يتشبث بها؛ لأنها برهة الخلق والابتكار، وأنه الفرح السماوي، إنها لحظة الانخطاف والرعشة التي تزوده بالنبض والحرارة، والقدرة على إفناء الموت، وتوليد رؤى البعث التي تعلو بنا فوق أسوارنا المسيّجة بالدجى، إلى عالم الحلم المشرئب:

تزودت من طهركم بالبخور وبالرقص، والشمعدان
وفي رعشة الخصر طال انخطافي...
يتوجني حلمي ...
وعيونكم تتسلى بظلي
وتمنحني فرصة الانصراف[24]

فالرقص في قاموس الذات هو سمة ذات دلالات، لعل أعمقها ما هو مؤشر على إعادة خلق واقع ترغب في وصله واستحضاره باستمرار، ليس تعويضا عن الحرمان، ولكن بوصفه هذا الغياب الذي نُحسه في ذواتنا. ومن ثمّ كان احتفاء الشاعر بالرقص والبخور، والبحث عن إقامة الأمان، بعيدا عن واقع مشتت، يحرمه لحظة الخروج إلى الغناء، وصباحات من مطر.

إن كل ما أجهش به " **قيوم بن حبارة قبل أن يموت** " لم يكن مجرد ثرثرات أو تخاريف ، أو هذيان درويش، بل إن هي إلا هواجس ذات متوجعة، من دون جدوى، ولا غرو أن نجد روح الشاعر مفعمة بالحنين إلى الماضي من خلال استلهامها التراث " **تمائم جدي، البخور، الناقة، الجمال، خيل أبي، الأثافي، عماد الخيام**.." دلالة على أن الذات الأصيلة لا تريد أبدا أن تقلع من

---

23 عبور الجنازة
24 الخروج إلى الغناء

جذورها؛ لأن الجذور هي الشيء الوحيد الذي بقي راسيا في القرار:

أعوي بما في دمي من خزامي
أعلق شعري وأهذي بكل خراب اليتامى
لماذا تريدونني أن أبيع الأثافي
وخيل أبي وعماد الخيام
سأكتب، ناقتنا كيف تصبح دبّابة في المنافي
وهذي التي في يدي من تمائم جدي"[25]

لقد تحول الواقع إلى رمز أفق مشتالة الوجدان في كثير من قصائد الشاعر" عياش يحياوي" ونحن نتلمس أرضه اليباب، ونقترب من تخومها كأنما هي قدر يلاحقه وهو يلهث نحو سماء بعيدة، حيث لا سأم ولا قنوط، وبالتالي يكون " **قيوم بن حبارة**"، مجنون قريته، بمثابة تجسيد فعلي لذات تمارس كل أنواع الحيرة والريبة والإرباك، وما شابه ذلك من الآثام التي تدفع بالتصور إلى معرفة الوجود الفني بمعين الأسرار بما يبعث على الاطمئنان في مرحلة البحث عن الكينونة:

إذا كان لي أن أكون
سأسقي عشائي بإثم دمي
وأغني بثوب الفضائح، وأدعو الذين على جثتي يرقصون
ليلتهموا أذني وأصيح كما يبتغون
لقد فسد السوق وانحاز " قيوم بن حبارة "
لامرأة علقت ثديها لهواة الحضارة

هكذا يسعى العالم إلى حتفه، ولا شيء يمنع زحف هذا المجون في حضارة تمضي إلى هاوية سحيقة، وتسعى إلى اللاجدوى في زمن يخلو حتى من براءة الدراويش، حيث يبحث "قيوم بن حبارة" عن تفاصيل لحياته في نهدي امرأة استهلكت أنوثتها فانحدرت إلى التشيؤ.

[25] ما أجهش به قيوم بن حبارة قبل أن يموت، الشراع "الشهري" ، بيروت ع، 8 السنة الأولى، سبتمبر 1992.

وليس مصادفة ـ إذاً ـ أن تتشابه أبجديات الواقع عند الشعراء بحيث نتلمس تطلعات ممزوجة بفرح انبعاث الواقع المنتظر، ومحاولة تجاوز هشاشته إلى بنياته الأكثر عمقا، على الرغم من كثرة الانشطار، وقوة الشرخ، إلا أن هناك ـ دائما ـ احتفاءً بنبوة البعث الكامنة في هاجس الموت، الموت الذي يقضي على كل الزوائد، ويهدم كل ما هو مترهل ومتهرئ، وينفخ في روح الحياة من جديد، ولذلك ألفينا معظم الشعراء يحملون في نبضاتهم نبوءات الآتي، ورؤيا البعث.

لقد تجلى الواقع المتكلس، والمتحجر، للشاعر "عمار مرياش" مطية للدجالين والسحرة، حيث كل شيء نكرة، و" **الأنا** " مجرد نعت لمنعوت مجهول، ألقى به قدر الآلهة إلى بلاد النعوت:

إنها فرقتنا المقادير
ألقت بكم في النعيم
وألقت بي الآلهة
في بلاد النعوت[26]

والأغرب من ذلك أن المنطق المقلوب هو السائد في واقع الشاعر الخارجي، وكل ما هو عكس العادي متحقق في هذا الواقع، المَوْحِل، والمشعوذ، وكل شيء يعبر إلى الموت حتى شدو العصافير تحوله الممارسات المجانية إلى عدم، فتنتهي إلى احتضار:

رأيت الرجال تزغرد ملء حناجرها
والنساء سكوت
ورأيت مقابر أجمل من حينا
وشواهد أكبر من باب حجرتنا
وعصافير تشدو بأجمل أصواتها ..لتموت

وعلى الفن ـ إذاً ـ أن يقدم أقصى معانيه الإنسانية المتمثلة ـ كما في هذه المقطوعة ـ في " شدو العصافير، استمرارا لدبيب الحياة، ودعما لروح النغم، على اعتبار أن العصافير يمثل الأثر الجمالي الوحيد النابض في هذا الواقع؛ ومع ذلك فإن موتها، هنا، لا يعني الاندثار، بل يعني أن الدخول في عالم الغناء " **الشدو** " هو انسحاب من عالم الواقع.

---

[26] مجلة القصيدة ، تصدر عن الجاحظية ، الجزائر ، ع 2

ويزداد الإنسان إحساسا عميقا بحاضره، ووعيا حادا به، وكأنه الوجه الوحيد الذي تتوارى خلفه كل الحقائق، ومن ثمّ يأتي تفاعله معه كحقيقة واقعية يعايشها يوميا، في حين تتولد لديه إحساسات مغايرة تنبع من كنهه، يرى من خلالها واقعه الراهن، الآني، ويدرك على الفور أن وجوده الحقيقي لا يتحقق إلا في ظل واقع محتمل، وآت لم يولد بعد.

وبديهي أن يكون الشاعر أكثر الناس إدراكا لهذه الحقيقة، ولذلك نراه دائم البحث عن صيغ جديدة، يتجلى من خلالها واقع الإنسان في أسمى إشراقاته " ومن الطبيعي أن تثمر تفاعلات الحركة الاجتماعية والفنية أكثر الصياغات الجمالية قدرة على امتصاص الواقع الجنيني للمجتمع الجديد، وأكثرها قدرة على الاستجابة للواقع الوليد بعدئذ"[27] على نحو ما عبر عنه أدونيس في قوله :

حطام الفراغ على جبهتي
يمد المدى ويُهيل الترابا
ويغلغل في خطواتي ظلاما
ويمتدّ في ناظري سرابا
هنا، عبر دربي، يموت ربيع ويصفرّ ريف
هنا، في عروقي صدى للجفاف ودمدمة وصريف
هنا، في دمي يولد الخريف
وفي حاضري، يتمرْأى
وتبعد عني، تبعد شمس المصير، وتنأى
ويخطو الخريف وينمو هوىً ويحنّ
ويكبر: في خطوه حالمون،
وفي صدره ساحرون وجنٌّ.
حطام الفراغ يغيّب نجمي، يجمّد أرضي
ويترك بعضي كهوفا لبعضي،
ويجعلنا كالفراغ
حطام الفراغ
......
فراغٌ زمان بلادي فراغ
وتلك المقاهي
وتلك الملاهي
فراغُ

[27] غالي شكري: صراع الأجيال في الأدب المعاصر، دار المعارف، ص 126.

وهذا الذي ذُلّ في أرضه وأنكرها واستكانا
ولوث أنهارنا وربانا،
فراغُ
وذاك الذي ملّ من شعبه
ومن حبّه
وغمّس باليأس أعماقَه
وأحداقه،
فراغُ
وذاك الذي لا يرى غيرَه
ولا يجد الخير خيراً، إذا لم يكن خيرَه،
فراغٌ فراغُ.
فراغٌ يعشِّش فيه الدمار
ويسكنه الفاتحون التتارُ
هنا حَرم يُوطأ
هنا شرف يصدأ
هنا عالم يُهدُّ
ويوقف عن سيره ويُردّ[28]

إنـه الفراغ البليـغ فـي مرارتـه، فـراغ يمثـل "زَفـرة الأثـر" فـي جمـل مشـاعر اليـأس، مليئـة بحـرارة الآهـة، تـدل علـى الضـجر، مـن خـلال وصـف عمق محنة الضـمير العربـي بلحـن شـجي طالمـا أن الوضـع ميئـوس، وبعـد أن طواه "الفراغ" ولفّه بعناية محكمـة حتـى "عشـش فيـه الظـلام"، وبعـد أن ذُلـت ناصيته، ولازم اليأس ناظره المتسلط على دواخله المرتهنة بالعتمة، والمظللـة بالضلال، حتى أصبح كل ما في هذا الضمير "صدى للجفاف" ، وهو وصـف لا يليق إلا بمجتمع خامل، أو كما يراد له، أن يبدأ بالشكوى منذ صـرخة ثمـرة الحبلى، إلى أن تأتي ـ هذه الثمرة ـ غشية الموت " كالباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ"، وما بين هذه الحالة وتلك مركبات "قطار" الفراغ بطموحات عقيمة.

قصـيدة "الفـراغ" إقـرار بـيّن، طَلْـقُ الرؤيـا، وبيـان صـريح، مخـضُ الحدس، بعد أن انكشف أمره، وتبين صـرحه بخيبـة الأمـل، وتكـريس جيـل لـم يعد يحصد إلا الفشل، ولا يسمع منه حتـى رجـع الصـدى؛ بيـان أعلنـه أدونـيس في 1954 حفظناه بنجابتنا، اعترافا بالفضل(!..) من دون مثـابرة فـي بـذل أي جهد للمبادرة، في انتظار:

---

[28] ديوان ، أوراق في الريح قصيدة "الفراغ" ، دار الآداب 1988 ، ص 23 وما بعدها.

صغار بلادي شموعٌ مضيئة
صغار بلادي يغنوننا
أغانيهم البريئة
يقولون: "في أرضنا ثورة
تفجر في أولِ
حياة الغدِ المقبلِ
وفتح أجفاننا
على الزمن الأجمل"[29]

من هذا المنظور يحاول الشاعر أحمد حمدي استلهام صدامية الواقع الذي يعيشه في حزن وجداني عميق :

من أين يجيء الضوء
وأسوار القلعة
حبل من مسد
وسواد يعبر في مدد
وفراغ ينخر في كبدي[30]

سوداوية معتمة تحول دون تسرب النور على الأمكنة المظلمة، وفراغ يفتح فوهاته في الأعماق، سمات تعكس حلكة الواقع، وضياعه، وفقدان قيمة الإنسان فيه. ولعل هذه الصدامية المزمنة هي التي تكشف عن عري المسافة بين الشاعر وواقعه، ذلك أن الفنان إذ يكتشف صفاءه، يكتشف عَكر العالم، وتصادم صلابة صفائه بصلابة العالم ... وهذا الاصطدام يولد الشرارة المضيئة للعالم ... وأن الفن ينبع دائما من هذا الصدام، من الرغبة في أن لا يفقد الإنسان صفاءه... ويصبح هذا الهم الذاتي جذرا لهموم الناس جميعا[31]، ففي نية الشاعر ـ مهما تضاءلت قيمة إبداعاته، وبدت دون المستوى ـ أن يغير العالم، ويضيف إليه أبعادا جديدة، ويعمل على تقليص المسافة بين "**الأنا**" و "**النحن**"، وبين "**الذات**" و"**المكان**" ، وحيث يجيء الشاعر إلى الحياة محمولا على غصن أمل، ومحملا برؤى طفولية بريئة، آتيا من دنيا الفرح الكوني يحمل للناس نبوءات الخلاص، ويلقي في أسماعهم إيقاعات من

---

[29] المصدر نفسه، ص 31.
[30] من قصيدة " وطن يتألم في رأسه" الشروق الثقافي ، ع 26 / 1994
[31] ينظر، إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص 200.

شدو الحياة، ضمن هذا المنظور تأتي كلمات الشاعر أحمد حمدي لتجسد لنا صورة معكوسة لواقعه المدلهم:

لا ضوء يوجد
في العتمة
لا راحة في أقليم الذعر
لا مطر في عز الصيف

كل شيء جاف، ومسكون بالظلمة، لا اطمئنان ولا دفء، ولا حياة، ولا وجود إلا الخوف، حيث تيه الروح، وانسداد الرؤيا.

قائمة بأسماء والمراجع:

أولا- المراجع

1. إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، 1978.
2. أدونيس: أغاني مهيار الدمشقي، الأعمال الشعرية، دار المدى، 1996.
3. أدونيس: فضاء لغبار الطلع، كتاب " دبي الثقافية"، سبتمبر 2010.
4. أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، 1989.
5. أدونيس: أوراق في الريح قصيدة "الفراغ" ، دار الآداب 1988.
6. عبد الوهاب البياتي: قصيدة الموت في الحب، من ديوان الموت في الحياة، المجموعة الكاملة، مج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995.
7. غالي شكري: صراع الأجيال في الأدب المعاصر، دار المعارف، ص 126.
8. فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، دار الجيل،1985 .
9. كريستوفر كود ويل: الوهم والواقع، ترجمة: توفيق الأسدي، دار الفارابي، بيروت،1982.
10. يوسف اليوسف: الشعر العربي المعاصر، دمشق،1980.
11. يوسف كومبيز: القيمة والحرية، ترجمة : عادل العوا، دار الفكر ، 1975.

ثانيا - الدوريات

أحمد حمدي: من قصيدة " وطن يتألم في رأسه" الشروق الثقافي، ع 26 / 1994

عبد الله العشي: سيرة الفتى، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع 18، 1993 .

عمار مرياش: قصيدة الأنا، مجلة القصيدة، تصدر عن الجاحظية، الجزائر، ع 2

عياش يحياوي: الخروج إلى الغناء، دورية مهرجان المربد التاسع، ع 42 نوفمبر 1988.

عياش يحياوي: عبور الجنازة، الملحق الثقافي لجريدة العلم المغربية، ع 888، السنة17، في 1988/8/27 .

عياش يحياوي: ما أجهش به قيوم بن حبارة قبل أن يموت، الشراع "الشهري" ، بيروت ع، 8 السنة الأولى، سبتمبر 1992.

ثالثا - المواقع الإلكترونية

موقع حاتم الصكر، http://www.hatemalsagr.net/

المديح في مساجلات الأزهار الأندلسية

الدكتورة آمنة بن منصور

ملخص المقال باللغة العربية

يعد المدح من أقدم الأغراض الشعرية التي عرفها العرب ، و لا يكاد يخلو ديوان شعر لشاعر عربي قديم من هذا الغرض ، و لم يرتبط المدح بالملوك فحسب ، و هو اتجاه شعراء التكسب ، بل تجاوزه إلى مدح الأنبياء و العلماء و الصالحين ... و إذا كان المدح هو تعداد الصفات و المزايا الحسنة التي يتمتع بها الممدوح فإنه بهذا يكون قد احتوى مجموعة من الأغراض الأخرى كالرثاء و الغزل و الفخر ...

و قد ارتبط المدح في المشرق بالشعر أكثر شيء و مع ذلك لم يخل فن الترسل منه ، على أننا لاحظنا اتجاها آخر طرقه الأندلسيون ، فجمعوا بين المدح و السجال و التكلم باسم الأزهار ، بطريقة فنية رائعة .

Summary in English

The praise is one of the oldest poetic purposes defined by the Arabs, and was not associated with only complimenting kings, and is the direction of poets earn a living, but went to the praise of the prophets and scholars and righteous ... If praise is enumerate the good qualities that characterize acclaimed it thus may include a range of other purposes

And has been associated with complimenting hair in the Islamic Orient more thing and has not, however, without the art of prose from him, and may have noticed another trend taken by the Andalusians, They collected between praise and debate and to speak on behalf of the flowers, a great artistic way.

لا يمكن الجزم بأن الأندلسيين حظـوا بالسبق في هذا الباب ، " فالحقيقة أن الفضل في ابتكار المفاخرة بين صنوف الأزهـار يعود إلى ابن الرومي الذي عالج الأمر في شعـره ، معالجة انتصر من خلالها للنرجس مقدما إياه على الورد و بقية الزهور مما حدا بثلة من شعـراء الأندلس إلى معارضته "[1] ، ومـــــن هؤلاء : الرندي الذي فضل " الورد على كل زهر مشترطا دوامه و نضارته ..[يقول]:

(2)

الوردُ سُلطانُ كلّ زهْر *** لوْ أنّه دائِم الورد

بيد أن الجديد الذي أتى به الأندلسيون هو طرقهم هذا الباب عن طريق الترسل ، فما أكثر الرسائل و القطع النثريـــة التي تحدث فيها الأندلسي باسم الزهور ، و ليس غريبا فتعلق أهل الأندلس بطبيعتهم غني عـــن كل بيان [*] ، و قد اكتسبت مناظرات الأزهـار طابعا خاصا ، فالصراع القائم بيـن النرجس و البهار و الورد و الخيري .. لم يكن مجرد صراع بريء هدفه
إثبات الجدارة ، و لكن لحاجة في نفوس أصحابها ،لاسيما و قد عاصر هؤلاء الفترة الأكـثر تأثيرا في التاريخ الأندلسي، و هي فترة ملـوك الطوائف، فصراع الأزهار هو الوجه الآخر لصراع الملوك آنذاك .و تجدر الإشارة إلى أن لأبي مروان الجزيري (ت 394هـ) السبـق في هذا الباب ،غير أنه لم يفضل نوعـا واحدا ، كما لم يجمع الأزهـار في جلسة واحدة ، بل نجده في كل مرة يتـغنـى بنوع ، مقصده الأول و الأخيـر التقرب إلى **المنصور بن أبي عامر** ، ففي النرجس قال :

حيّتكَ يا قمرَ العُلا و المجلِـــس ** أزكى تحيتها عيون النّرجـس
زهْر تُريك بحُسنها و بلونــِـها ** زُهْر النّجوم الجاريات الكـُنس
ملك الهمام العامري محمــد ** للمكرمات و للنهى و الأنفـــس[3]

ثم يفضل البهار في موضع آخر فيقول :

حِدَقُ الحِسَان تقرُّ لي و تغارُ ** و تضِلّ في صفتي النّهى و تحَار
طلعت على قضبي عيون كمائمي**مثل العيون تحفها الأشفار[4]

و يفضل البنفسج تارة ثالثة – و كأنه لم يفضل قبله البهار و النرجس – فيقول :" إذا تدافعت الخصوم – أيد الله مولانا المنصور – في مذاهبها و تنافرت في مفاخرها فإليه مفزعها .. و قد ذهب البهار و النرجس في وصف محاسنهما و الفخر بمشابههما كل مذهب ، و ما منها إلا ذو فضلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا و أعذب من الغمام الذي يسقينا "[5] ، و يورد البنفسج مجموعة من الحجج التي تجعله يفوق البهار و النرجس بجدارة ؛ فهو أعطر منهما و أكثر طلبا ، ذابلا و يانعا ، تدخره الملوك والأطباء و يصرف في علاج الأعضاء[6] ، و يصرح الجزيري بهدفه الحقيقي وراء هذه المناضلة و هو مدح المنصور بن أبي عامر ، كما لا يستبعد أن يكون المقصود بالبنفسج هو المنصور نفسه ، فهو المذكور غائبا و حاضرا يقول :

شهدتْ لنوّار البنفسَج ألسُنٌ** من لونه الأحْوى و من إيناعِــه
و لربما جمَع النجيع من الطَّلى ** من صارم المنصور يوم قراعِه
ملك جهلنا قبله سُبل العلـــى ** حتى وضحْن بنهجه و شراعــــه
تلقى الزّمان له مُطيعا سَامعا ** و ترى الملوك الشُّمّ من أتباعِــــه[7]

تفضيل ابن برد الأصغر للورد :

خاطب ابن برد **ابن جهور** برسالة جاءت في شكل قالب قصصي ؛ ففي أحد الأيام اجتمعت الأنوار و الرياحين و عقدت جلسة لمبايعة صاحب الفضل عليها ، فسنة الله في خلقه أن جعل التباين والاختلاف سمة الخليقة،و هكذا أراد ابن برد أن يقدم لرسالته حتى يهيئ الأنفس لتقبل حكمه ، على أنه تكلم بلسان لم يذكر صاحبه ، و لكننا نحسبه الراوي إذا نظرنا إليها بمنظور قصصي ،إذ يقول :" قد عطفت علينا الأعين و ثنت إلينا الأنفس و زهت بمحضرنا المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ووصلنا أسباب القلوب .. على أننا نسينا الفكر في أمرنا و التمهيد لعواقبنا .. و ادعينا الفضل بأسره و الكمال بأجمعه و لم نعلم أن فينا من لــه المزية علينا
و من هو أولى بالرئاسة منا و هو الورد "[8] ، فالراوي سلم بالرئاسة و التفوق للورد حتى قبل أن تبدأ الجلسة و يدلي كل واحد بدلوه ، و الظاهر أن الراوي هو الورد نفسه إلا أنه لم يصرح بذلك حتى لا يقال اغتصب الرئاسة عنوة ، و لكن الكاتب أراد أن يوكّل عنه متكلما يتحدث عن أفضاله و خصاله ، فهو " الأكرم حسبا و الأشرف زمنا ، إن فقد عينه لم يفقد

أثره..و هو أحمر و الحمرة لون الدم و الدم صديق الروح ، و هو كالياقـوت المنضد في أطباق الزبرجد"[9]

و تبدأ الأزهار في تأكيد ما ذهب إليه المتكلم الأول ، بل نجدها تحقر نفسها و تجد غاية المنى أن تشنف عيـونها برؤية الـورد ، يقول النرجس: " لقد كنت أسر من التعبد له و الشغف به ، و الأسف على تعاقب الموت دون لقائه ما انحل جسمي و مكن سقمي .. ثم قام البنفسج فقال .. أنا والله المتعبد له و الداعي إليه المشغـوف به و كفى ما بوجهي من نـــدوب و لكن في التأسي بك أنس "[10]، فالنرجس و البنفسـج أصابهما الوهن و السقم لبعدهما عن صاحب السمو ، و يضيف البهار قائلا :" لا تنظروا إلى غضارة منبتـي و نضارة ورقتي و انظروا إلي و قد صـرت حدقة باهتة تشير إليه ، و عينا شاخصة تندى بكاء .. ثم قام الخيري فقال : و الذي أعطاه الفضل دونـي .. ما اجترأت قط إجلالا له ، و استحياء منه على أن أتنفس نهارا .. فلذلك جعلت الليل سترا"[11]،فالأزهار جميعا اتفقت على الخضوع و الخنوع و التسليم المطلق بأفضلية الـورد و أهليته للرئاسة ، بل و نجدها قـررت أن توثق كلامـها بعقد – و لعـلها عادة عند ابن برد – يعلـم به القاصي و الداني " ينص على مبايعة فيها معنى الخضوع المطلق الذي يبلغ حد الرق و العبوديـة ، و هي أخيـرا تتبرأ من كل من يشذ عن هذا العقـد..بمنافسة الورد في إمارته " [12]

و يبدو من هذه الرسالة أن ابن برد أراد بمبايعــة الأزهار للورد أن يصل إلى هدفه الأساس؛و هو أن **ابن جهــور** لا ينافس و ملوك الطوائف جميعا لا تبزه ، و " إذا كان لا يرمز لصاحبه فلعلـه أن يكون قد رمز بذلك إلى ما يتمناه لنفسه من تسليم الكتاب له بالتقدم عليهم جميعا "[13] .

رد أبي الوليد إسماعيل الملقب بحبيب(ت 440هـ) على ابن برد :

ذهب ابن برد – كما مر - إلى تفضيل الورد على سائر الأزهار ،و لأبي الوليد رأي آخر مخالف ؛ ففـي رسالته التي خـاطب بها **المعتضد** أظهر تبرما من رسالة ابن برد ، و رد عليها على لسـان نواوير الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن ، فلما قرأت ذلك العقد أنكرته ، و بنت على هدم مبانيه و نقض معانيه [14]، فهو ليس قرآنا يتلى إلى يوم الدين و إنما هو حكم أصدرته مجموعة من الأزهار لم يزكها أحد لتتكلم باسم الجماعـة ،و من ثمّ فالحلف باطل ؛ و تضيف النواوير قائلة: " لو استحق الورد إمامة و استوجب خلافة

لبادرتها آبـاؤنا و لعقدها أوائلنا .. و لا ندري لأي شيء أوجبت تقديمه ، و رأت تأهيله ؟ " [15]، فالكاتب ينكر على لسان أزهاره تفضيل الورد و يرى أن البهار أحق منه ، و يكفي أنـه " لم يزل عند علماء الشعراء و حكماء البلغاء مشبها بالعيـون التي لا يحول نظرها و لا يحور حورها ، و أفضل تشبيه الورد بنضــرة الخدّ عند
من تشيع فيــه ، و أشرف الحواس العين .. و ليس الخدّ حاسة فكيف تبلغه رياسة ؟ " [16] .

و يتمثل بقول ابن الرومي :

أين الخدودُ من العيون نفاسةً *** و رئاسةً لولا القياسُ الفاسد[17](**)

و مضى أبو الوليد يتكلم على لسان نواويره التي تراجعت جميعها عن عقدها الأول الذي نص على تنصيب الورد رئيسا ، مبدية أسفها و اعتـذارها للبهار ،سائلة إياه العفو ، مقدمة له فروض الطاعة والولاء .و قياسا على ما سبق لا يستبعد أن يكـون المقصود بالبهـار هو **المعتضـد**

و بالورد **ابن جهور** ، و بين هـذا و ذاك مد و جزر ، و كلٌّ يرى حاكمه أولـى من الآخر ، و تلك عادة توارثها الشعراء منذ النابغة الذبياني(***)، أما الأستاذ إحسان عباس فيرى أن حبيبا فضل البهار مناقضة لابن برد لإظهار براعته الأدبية لا غير[18]. و أيّا كان هدف الكاتبين تبقى المناظرة مفتوحة أمام كل التأويلات ..

تفضيل البهار لأبي عمر بن الباجي :

يبدو أن تفضيل الورد على سائـر الأزهار لم يرق أحـدا ،فبعد أن اعترض أبو الوليد ، المذكـور آنفا ، على لسـان نواويره و فضل البهار ، جاء الاعتراض من شخص آخـر هو أبو عمر بن الباجي الذي سـار على خطى سابقه " غير أن رسالة أبي الوليد جاءت في قالـب قصصي بينما اكتسـت رسالة أبي عمر طابع السرد المباشـر،فقـد جعل البهار يدبج رقعة إلى **ابن هود المقتدر بالله**[ت 474هـ]" [19] قال فيها " أطال الله بقاء المقتـدر بالله مـولاي و سيدي و معلي حالي و مقيم أودي..و لا أشمت بي عـدوا من الرياض يناصبني و حاسـدا من النواوير يراقبني ، و قـد علم الورد موقع إمارتي و غني بلطيف إيمائي عن عباراتي "[20]،فالكاتـب يصرح برغبته

في أن يقربه **المقتدر بالله** منه ، و يعلي مكانتـه فهو " سابـق النور .. و ناظر الفضل و عينه ، و نضار الروض و لجينه و قائد الظرف و فارسه و عاقد مجلس الأنس و حارسه "[21] ، ثم ما يلبث البهـار أن يستكين و يبدي بعض سوءاتـه متذللا للمقتدر،مبديا ضعفه شاكيا هوانه إلا أن يدركه بكرمه فيقول :" و لـو صلح الكمد لأحد لكنت أنـا أحق من لزمه و أثبت عليه قدمه لأني سريع الذبول وشيك الأفول لا يصحبني الظهور إلا قليلا[****]و لا أمنـح من متـاع السرور إلا تعليلا غير أني مغتنم لساعـاتي ، آخذ من الأنس بقدر استطاعتي و قديما أكرمني مولاي فلا يهني،ووصلني فلا يصرمني ، و منحني فلا يحرمني "[22] ، فابن الباجي و إن سـار على خطى سابقيه ففضل البهار على سائر الأزهار إلا أن تفضيله ذاك كان مقتضبا ، فهمّـه الأول التقرب إلى **المقتـدر**، بيد أنه ، و بخلاف ابن برد و أبي الوليد لم يلمح إلى إمكانية تأويل البهار بالملك كما تأولناه سابقا ، و لكن جعلـه مطية لتحقيق مراده ، و تفريغ ما في جعبتــه ، و لا يستبعد أن يكون قـــد ترفع عن تشبيه **المقتدر** بالزهر لأنه سريع الذبول قليل الظهور ، يريد بذلك تمرير رسالة مفادها أن **ابن هود** أسمى من ذلك ، و هو يبـز الملوك جميعا لأنـهم لا محالة إلى زوال .

تفضيل أبي الفضل بن حسداي للنرجس :

يبدو أن **المقتدر بن هود** كان الأوفر حظا بين ملوك الطوائـف ،على الأقل من حيث تنافس الأزهار لنيل رضاه و التمتع بقـربه ، فبعد أن كلمه البهــار ها هو النرجس يعلن الولاء و الطاعة ، و يرجـو القرب و الحظوة فيقول :

"أنـا– وصل الله بهجة سلطانك و نضرة أوطانك– إذا لحظتني بعين الاعتبار قائد النوار و وافد الأزهار و أنا لها جالب و هي طاردة ،ومبشر بورودها و هي مؤيسة متباعدة .. فضلت الورد سيد الأزهار طرّا و تورده شاهد خجله.[*****]فلي عليه فضل العيون على الخدود[******]، و شرف السيد على المسود "[23]

فالنرجس " في هذه الرسالة شأنه شأن الأزهار الأخرى يعنيه بوجه خاص أن يسمو على الورد و أن يفوقه حسنا..ثم لا بد أن ننبه أيضا إلى أن النرجس يعترف للورد بأنه سيد الأزهار طرّا فهو لا يقدم عليه إلا نفسه كما هو واضح "[24][*******]

و لأمر ما أحس النرجس بالحزن و الأسى فمال من غير ألم و ذبل من غير سقم ،حتى جاءه رسول من المقتدر بعث فيه الأمل و أعاد إليه الحياة ،و عن ذلك يقول :" .. حتى أتيح لي ظريف من خواصك يقصدني ، و نبيل من عبيدك يعتمدني فأوجست حذرا و تشوفا حتى آنسني بالكلام تألفا ،و قطفني بغير إيلام تلطفا "[25]، و لما انتقل النرجس إلى مكانه الجديد و حظي بالتكريم و التقدير تمنى لو ترى الأزهار النعيم الذي يرفل فيه ، و هي التي طالما تمنت هذا المقام و ذاك القرب ، و هو لهذا يخشى حسد الحاسدين و يرجو الملك أن يكفهم عنه قائلا : " فأزل عني حسدهم بكبتهم فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم ، و أكمل مسرتي و تمم أنسي " [26].
" و ليس يخفى على أحد ما لهذه الرقعة من قيمة رمزية فإن النرجس ليس إلا أبا الفضل بن حسداي نفسه " [27]، فقد تعودنا مما سبق أن يتكلم الكتاب بلسان الأزهار لتحقيق مآربهم ، تصريحا و تلميحا .

مساجلات شعرية في الانتصار للنواوير و الأزهار :

من المساجلات الشعرية التي وقعت انتصارا لزهر معين،المفاضلة بين الخيري و البنفسج للوزير أبي الأصبغ و أبي بكر بن القوطية صاحب الشرطة .قال أبو الأصبغ في الخيري :

ما للبنفسج يدعي التفضيلا *** متحاملا و بعد ذاك جميلا
الفضل للخيري إلا أنهم *** جهلوا و لما يحسنوا التأويلا
قهر البنفسج منظرا و يفوقه *** في الشم بالمسك الذكي دليلا
و الخير في الخيري في اسمه *** هو فاضل فاستأهل التفضيلا
يا أيها القاضي الذي من عدله *** أضحى الزمان بغرة محجولا
من كان إسماعيل والده الرضى *** فكفاه فخرا أن يكون سليلا[28]

مزج الشاعر إذن بين الثناء على الخيري و تفضيله على البنفسج بمدح **القاضي و أجداده** ، و كذلك فعل ابن القوطية في رده عليه ، فأثنى على البنفسج و امتدح **الحاجب** فقال :
نبل البنفسج فاحتوى التفضيلا *** و كذا البنفسج لن يوال نبيلا

لما شأى نور الربيع بطيبه *** و حوى من الشرف الصريح أثيلا
فضل النوار فحاز دون جميعه *** قصب السباق و لم يكن مفضولا

متشبها في سبقه بالحاجب الـ *** أعلى عماد الدين إسماعيلا
كم طاولوه في الفخار ففاتهم *** عرضا إلى المجد التليد و طولا
كتشبه الخيري بالمزري به *** ليحوز من تلك الخصال فتيـــــلا
و النفع غضا إن تشأ أو يابسا *** هو للبنفسج كله محصـــــــولا[29]

جعل ابن القوطية الممدوح و البنفسج شيئا واحدا في مدحه ، غير أن المعاني التي اتكأ عليها في تفضيل البنفسج أقوى من تلك التي اعتمد عليها أبو الأصبغ في تفضيل الخيري ، و منها الرفعة و العلو و الطيب و النفع ..و من المساجلات الشعرية التي تجاوزت ضفاف الأندلس ، تلك التي رد فيها أبو عثمان سعيد بن فرج الجياني على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد، يقول :

عني إليك فما القياس الفاسد *** إلا الذي أدى العيان الشاهد[30]

ردا على قول ابن الرومي :

أين العيون من الخدود نفاسة ***و رياسة لولا القياس الفاسد[31]

ثم قال :
أزعمت أن الورد من تفضيله *** خجل و ناحله الفضيلة عاند
إن كان يستحي لفضل جماله *** فحياؤه فيه جمال زائـــد[32]
و هذان البيتان في الرد على قول ابن الرومي :
خجلت خدود الورد من تفضيله *** خجلا توردها عليه شاهد[33]

ثم يواصل فيقول :
و لمن يكون الفضل في حكم العلا الموعود عنه أو النديم الواعد[34]

و هو رد على قول ابن الرومي :
شتان بين اثنين هذا مُوعد *** بتسلب الدنيا ، و هذا واعد[35]

ثم يقول بنوع من التهكم :
يفنى خيار الخلق في الدنيا *** و ما شيء سوى إبليس فيها خالد[36]

و في هذا رد على قول ابن الرومي الذي امتدح النرجس لبقائه مدة أطول من بقاء الورد :

و إذا احتفظت به فأمتع صاحبا *** بحياته ، لو أن حيا خالد[37]

و هكذا مضى الجياني يرد على ابن الرومي ،الذي انتصر للنرجس على حساب الورد ، مبينا له خطأه حينا و سوء تقديره حينا آخر[********] .

هكذا مدح الأندلسي ممدوحه على لسان الأزهار ، فقام ينشئ الرسائل و المساجلات بينها مفضلا في كل مرة نوعا على آخر وفق ما يراه صحيحا و مناسبا ، و هو الأمر الذي لم نجده مثلا عند المشارقة ، فهم إن مدحوا مدحوا بالشعر في الغالب ،و أسبغوا على ممدوحهم صفات المجد و السناء ، لكن أن يمدح الممدوح تلميحا و على لسان الأزهار فهو مما سبق به الأندلسي و أجاد .

وأما الأمر المسلم به ، فهو أن هؤلاء الكتاب المترسلين انتهجوا هذه الطريقة لتوصيل رسائل معينة ذات صلة بالحياة السياسية و الاجتماعية في عصرهم ،و قطعا لا تخلو من أطماع حتى

و إن كان الغرض إظهار البراعة اللغوية ، فنحن نعلم أنه كان " من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلانا العالم عند فلان الملك ، و فلان الشاعر مختص بفلان الملك "[38] الأمر الذي أوجد جوا من المنافسة الشديدة بين الأدباء و الشعراء .

الهوامش :

4- الحوار الأدبي بين المشرق و الأندلس : أيمن محمد ميدان : 183
2- المكان في الشعر الأندلسي : محمد عويد الطربولي : 60
*- تعلق الأندلسيون بطبيعتهم و بيئتهم و فضلوها على شتات الأرض جميعا بعد أن كان خيالهم متعلقا بالمشرق
- ينظر : القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة : عبد الله أنيس : 304
3- نفح الطيب : المقري : 2 : 70
4- المصدر السابق : 2 : 71
5- نفسه : 2 : 71
6- نفسه : 2 : 71- 72
7- المصدر السابق : 2: 72
8- الذخيرة : 2: 76
9- المصدر السابق، 2: 76
10- نفسه : 2 : 77
11- نفسه : 2 : 77
12- النثر الأدبي الأندلسي : علي بن محمد : 1 : 445
13- تاريخ الأدب في الأندلس عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس : 234
14- ينظر : البديع في وصف الربيع : أبو الوليد الحميري : 59
15- المصدر السابق : 59-60
16- نفسه : 60
17- ديوان ابن الرومي :1 : 413
**- إن البيت المذكور لابن الرومي هو في تفضيل النرجس على الورد ، و الكاتب يتحدث عن البهار ، غير أن أكثر من واحد قال إن:" النرجس هو البهار عند الأندلسيين و يسمى العبهر " – ينظر : نفح الطيب : 4 :261 ، و المطرب : 115
و يبدو أن هذه التسمية خاصة بمناطق دون أخرى في الأندلس ؛ فنحن وجدنا خلاف هذا عند ابن برد و الجزيري.
4- ينظر : البديع في وصف الربيع : 61 و ما بعدها .
***- يقول النابغة في مدح النعمان بن المنذر : فإنك شمس و الملوك كواكب ** إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
- الديوان : 22
18- ينظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين : 234
19- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 446
20- الذخيرة : 2 : 120
21- نفسه : 2 : 120
****- " قيل : النرجس لا يبقى إلا شهرا و لو يبس لم ينتفع به " – ينظر : محاضرات الأدباء : 4 : 576
22- الذخيرة : 2 : 120
*****- لعله أخذ المعنى من قول ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله ** خجلا توردها عليه شاهد – الديوان : 1 : 413
*******- سبق إلى هذا الوصف أبو الوليد المذكور آنفا ، و صاحب المعنى الأول ابن الرومي كما أشرنا سابقا .
23- الذخيرة : 3 : 297
24- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 447
*******- فضل ابن سعيد الورد و جعل النرجس خادما له في قوله :
أما ترى الورد غدا قاعدا ** و قام في خدمته النرجس – ينظر : المكان في الأندلس : 60 ، و كذلك فعل الصنوبري – ينظر : محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء : الراغب الأصبهاني : 4 : 576
25- الذخيرة : 3 : 297
26- نفسه : 3 : 298
27- النثر الأدبي الأندلسي : 1 : 448
28- البديع في وصف الربيع : أبو الوليد الإشبيلي : 80
29- المصدر السابق : 81
30- نفسه : 70
31- ديوان ابن الرومي : 1 : 413
32- البديع في وصف الربيع : 70
33- ديوان ابن الرومي : 1 : 412
34- البديع في وصف الربيع : 71
35- ديوان ابن الرومي :1 : 413
36- البديع في وصف الربيع : 71
37- ديوان ابن الرومي : 1 : 413
********-رد على ابن الرومي أكثر من واحد و منهم أبو بكر بن القوطية في قصيد مُستول على غاية الكمال مستوف نهاية الجمال ، و منها قوله : كسفت خدود النرجس المصفر من *** حسد و قد يدوي العدو الحاسد – ينظر : البديع : 73
38- تاريخ آداب العربية : مصطفى صادق الرافعي : 3 : 280

المصادر و المراجع :

- **البديع في وصف الربيع :** أبو الوليد إسماعيل الحميري ، تح : هنري بريس،مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، مصر ، 2002

- **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين** : إحسان عـــــباس دار الشروق ،ط1 ، الأردن ، 2001

- **تاريخ آداب العربية** :مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتـاب العربي ،ط2 بيروت ، دت

- **الحوار الأدبي بين المشرق و الأندلس– المتنبي و المعري نموذجيـن :** أيمن محمد ميدان ، دار الوفاء ،ط1 ، الإسكندريـــــة ، 2004

- **ديوان ابن الرومي** : شرح : أحمد حسن بسج – دار الكتب العلميـــــة ، ط1 ، لبنان ، 1994

- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** : ابن بسام الشنتريني – تح : سالـــم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ،ط1 ، لبنان ، 1998

- **المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكـــم العربي** : محمد عويد الطربولي ،ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2005

- **القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة** : عبد الله أنيس الطباع دار ابن زيدون ، ط1 ، لبنان ، 1986

- **النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس** : علي بن محمد ، دار الغـــــرب الإسلامي ، ط1 / 1990

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** : أحمد بن محمد المقري - شـرح و ضبط : مريم قاسم الطويل ، يوسف علي الطويل - دار الكتب العلمية ،ط1 ، لبنان ، 1995

- **محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء و البلغاء** : الراغب الأصبهاني ، دار مكتبة الحياة ، لبنان . دط ، دت

- **المطرب من أشعار أهل المغرب** : أبو الخطاب عمر بن دحية الكلبي ، شرح :صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، ط1 ، لبنان ، 2008

الأسواق والخانات التجارية و ملامح نسائها في مدن ألف ليلة و ليلة

دراسة في متن حكايات ألف ليلة وليلة

د.محمد عبد الرحمن يونس قاص وروائي وباحث وأستاذ جامعي
أستاذ في : جامعة ابن رشد في هولندا \ جامعة جين جي الوطنية ـ تايوان ـ الصين

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة أن تدرس بنية فضاء الأسواق التجارية في ألف ليلة وليلة، ومكوّنات هذه البنية، ودورها في تشكيل حكايات ألف ليلة وليلة، باعتبار فضاء الأسواق يشكل مركزا رئيسا ومهما،من فضاءات ألف ليلة وليلة المتعددة. كما تحاول أن تعرّج على مجمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسلوكية التي تتحكم في فضاء الأسواق، وتدير شؤونها، باعتبار هذه الأسواق جامعة لشرائح اجتماعية متعددة تجتمع فيها لتشتري وتبيع، وتبادل السلع، وتتحاور في ما بينها. كما تحاول أن تدرس دور المرأة في هذه الأسواق وحركتها وعلاقاتها ، وبالتالي دورها في بناء الحكاية وتشعّبها ونموها، وارتباطها بحكايات أخرى، لتتوالد مزيد من الأحداث والوحدات السردية الحكائية.

وتركز هذه الدراسة على ثلاثة فضاءات مهمة ، وهي: 1 ـ الأسواق التجارية 2 ـ أسواق الجواري ـ 3 ـ الخانات.

وتبرز إلى أي مدى كانت طبقة التجار طبقة فاعلة في المجتمع العربي والإسلامي وفي مدنه، وبخاصة في بغداد ودمشق والبصرة، كون هذه المدن هي الأكثر حضورا في حكايات ألف ليلة وليلة، كما تحاول إن تشير إلى مدى ارتباط السياسي بالتجاري في هذه المدن، من حيث المصالح المشتركة، ودور التجاري في تثمين أموال السياسي، ودور السياسي في تكريس قوة التجاري وسلطته الاقتصادية، وقدرته على التلاعب بحركة السوق وضبطها، وفرض سطوته عليها.

كما تحاول هذه الدراسة أن تدرس فاعليه المرأة في هذه الأسواق، وعلاقتها بالسياسي والتجاري في الآن نفسه، وأهميتها في كونها تشكل فضاء للذّة والمتعة الدائمة ، أو الآنية والاستهلاكية السريعة، بالنسبة للسياسي والتجاري معا، وبالنسبة للشريحة الاجتماعية المهمّشة أيضا، والموجودة في هذه الأسواق.

وتنحو هذه الدراسة منحى تاريخيا واجتماعيا ونقديا في تحليلها لنصوص الحكايات، منطلقة من نصوص ألف ليلة وليلة، وارتباطات هذه النصوص

بالواقع والتاريخ من جهة، والسياسة والاجتماع من جهة أخرى، وبالخلفيات المعرفية التاريخية التي سادت في الحياة العربية والإسلامية، وبخاصة في العهدين الأموي والعباسي.

مادة البحث

تُعدّ الأسواق من أهمّ الفضاءات المكانيّة في مدن ألف ليلة وليلة، و يذكرها رواة الليالي في غير حكاية، و يصفون ما يدور فيها من علاقات تجاريّة وإنسانيّة. وتبدو فضاءً مثيراً وجذّاباً و أليفاً بالنسبة لأبطال الليالي، باختلاف طبقاتهم الاجتماعيّة، فهي تشكّل فضاءً شاسعاً مفتوحاً على الآخر الاجتماعي بحسّه الإنسانيّ و عاداته و أعرافه و قيمه وسلوكه، إذا ما قارنّاها بفضاءات المقاصير والقصور المحكومة بضوابط سلطويّة صارمة، و المُحاطة بالسريّة و الكتمان، فالأسواق في مدن ألف ليلة و ليلة فضاءات جامعة لشرائح اجتماعيّة متباينة في عاداتها و سلوكها ورؤيتها لما يجري في مدنها، وهي فضاءات أمميّة ـ إن صحّ التعبير ـ إذ يلتقي فيها الغرباء القادمون من مدن الليالي البعيدة، و يتعارفون فيما بينهم من جهة، و يتعرّفون بسكان المدينة التي قدموا إليها، ويعايشونهم من جهة أخرى.

ونظراً لانفتاح المدينة العربيّة الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة على غيرها من المدن العربيّة الأخرى وغير العربيّة، و الإسلاميّة و غير الإسلاميّة، انفتاحاً معرفيّاً وثقافيّاً واقتصاديّاً، فقد غصّت هذه المدن بالجنسيّات المختلفة، وشهدت أسواقها حركة تجاريّة ناشطة، ومارت بالحيويّة والحركة، وعبّر الناس من خلالها عن آمالهم و أفراحهم و أحزانهم، و ما يختبئ في سرائرهم، ففرحوا و حزنوا، وتعاركوا، وعربدوا، واصطادوا النساء، وتحايلوا عليهنّ، وحصلوا عليهنّ إمّا بالزواج الشرعيّ، وإمّا بالشراء، باعتبار أنّ الكثير منهنّ كان يُباع علناً في هذه الأسواق بفعل نشاط تجارة الرقيق وازدهارها.

وتتعدّد الأسواق في ألف ليلة و ليلة، وتلتقي جميعها في البيع و الشراء و السمسرة والمزايدات العلنيّة، واصطياد النساء، و يمكن أن نحدّدها بـ:

1- الأسواق التجارية.
2- أسواق الجواري.
3- فضاء الخانات في مدن ألف ليلة وليلة

1 ـ الأسواق التجاريّة

نظراً لأنّ حكايات ألف ليلة و ليلة هي حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة، وغيرها من المدن الواقعيّة والمتخيّلة، ونظراً لأنّها تُشكّل صورة عن حياة الناس وطموحهم، في حلّهم وترحالهم، فقد احتاجت إلى فضاءات مكانيّة تتسع من خلالها مادتها الحكائيّة، فلا وجود للحكي إلاّ من خلال المكان الذي ينمو من خلاله هذا الحكي. وكانت الأسواق التجاريّة والأزقّة والدكاكين في ألف ليلة و ليلة فضاءات مهمّة يرتحل السرد منها وإليها، و تتشكّل البنية الحكائيّة العامّة من خلالها.

و تتعدّد الأسواق و تنتشر في مدن الليالي لتحوي جميع ما يحتاجه سكانها من بضائع وسلع، حيث يسهل شراؤها نظراً لتوافرها الكثير في هذه الأسواق.

و يبدو أنّ انفتاح أسواق الدولة الإسلاميّة في عهديها الأمويّ و العبّاسيّ على أسواق ولاياتها من جهة، وعلى أسواق الدول التي جاورتها من جهة أخرى، أسهم في تسهيل انتقال المواد التجاريّة من هذه الدولة وإليها في آن، من دون أن تخضع هذه المواد لعملية جمركيّة أو ضريبيّة كما تقتضيه التعاملات التجاريّة المعقّدة في مدننا العربيّة المعاصرة. ففي حكاية « **علاء الدين أبي الشامات** »، يسافر علاء الدين أبو الشامات إلى بغداد قادماً من مصر مصطحباً حمولة ستين بغلاً من الأقمشة و عشرة آلاف دينار[1]. و في حكاية « **النصراني لملك الصين** » الداخلة ضمن حكاية « **الأحدب و ملك الصين** » يسافر أحد الأبطال البغداديين من بغداد إلى الديار المصريّة، و يأخذ معه مالاً كثيراً، و متجراً من قماش بغدادي و موصلّي، و بضائع نفيسة أخرى، و ينزل بها في « **خان مسرور** » بحيّ « **بين القصرين** » من دون أن يجد أيّة صعوبات في إدخال بضاعته[2].

و تتنوّع الأسواق في حكايات ألف ليلة وليلة، فهناك سوق الجلاّدين حيث تُصنع الجلود وتُدْبَغ في حكاية « **مزيّن بغداد** »[3]، و سوق العطّارين في القاهرة[4]. و في بغداد يغصّ سوق العطّارين بماء الورد و ماء الزهر و

---

[1] – مؤلف مجهول: ألف ليلة و ليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، **356/2**.

[2] – م ن، **130/1**.

[3] – م ن، **165/1**.

[4] – م ن، **348/2**.

حَصَى اللبّان و العنبر و المسك و الشمع الإسكندرانيّ[5]. وهناك سوق الدوابّ (المواشي) في القاهرة[6]، و سوق العلاّفين (بائعي أعلاف المواشي) في مدينة البصرة[7]، وسوق الخضار والفواكه في مدينة بغداد حيث يمتلئ هذا السوق بـ: التّفّاح الشاميّ و السفرجل العثمانيّ و الخوخ العمانيّ و الياسمين الحلبيّ والليمون المصريّ و التمر وشقائق النعمان و البنفسج[8]، و سوق الحلويّات في بغداد حيث المشبّك و القطائف[9]، و سوق الصاغة و الجواهرجيّة في بغداد[10]، و غيّرها من الأسواق.

و ليست المدن الواقعيّة المعروفة تاريخيّاً هي وحدها التي تمتلئ بالأسواق التجاريّة، بل نجد أنّ الرواة شكّلوا أسواقاً تجاريّة عامرة بالبضائع، و أقاموها في المدن المتخيّلة البعيدة التي ليس لها حقيقة جغرافيّة معروفة، و نجد نموذجاً من هذه الأسواق في مدينة النحاس في حكاية « **عبد الملك بن مروان و القماقم السليمانيّة** »، ويصف الراوي أحد أسواق هذه المدينة قائلاً[11]:

> « **فنظروا أسواقاً عظيمة عالية الأبنية، لا يخرج بعضها عن بعض و الدكاكين مفتّحة والموازن معلّقة والنحاس مصفوفاً والخانات ملآنة (...) و سيوفاً مجرّدة و قسيّاً موترة و تروساً معلّقة (...) و مضوا إلى سوق الخزّ وإذا فيه من الحرير والديباج، ما هو منسوج بالذهب الأحمر والفضّة البيضاء على اختلاف الألوان (...) و مضوا إلى سوق الجواهر و اللؤلؤ و الياقوت (...) و مضوا إلى سوق الصيارفة (...) و دكاكينهم مملوءة من الذهب و الفضّة (...) ومضوا إلى سوق العطّارين فإذا دكاكينهم مملوءة بأنواع العطريّات و نوافح المسك و العنبر و العود و الكافور وغير ذلك** ».

---

(5) – م ن، **47/1**.

(6) – ألف ليلة وليلة، **355/2**.

(7) – م ن، **15/3**.

(8) – م ن، **46/1**.

(9) – م ن، **47/1**.

(10) – م ن، **238/1**.

(11) – م ن، **44/4**.

إنّ هذه الأسواق المتخيّلة تمثّل جزءاً مهمّاً من أسواق المن الواقعيّة التي عرفها رواة الليالي، و شاهدوا ما هو معروض فيها من سلع تجاريّة، فقد شاهدوها في أسواق دمشق وبغداد والبصرة و القاهرة، وتخيّلوا ما في أسواق المدن المتخيّلة تأسيساً على ما هو معروض في أسواق مدنهم التي خبروها و عاشوا فيها.

إنّ السوق في حكايات ألف ليلة وليلة فضاء للمتعة البصريّة، وهو مبدّد لحالات الأرق و القلق فإذا أحسّ الأبطال بأنّ صدورهم ضجّت بأحزانهم و مواجعهم، فإنّهم سرعان ما يخرجون من فضاء منازلهم و قصورهم إلى فضائه ليتحرّروا من أعباء الحياة. ويبدو أنّ مشاهدة الناس، والاندفاع داخل صخب الأسواق و حركتها، والاستمتاع بمنظر جمال نسائها وجواريها و هي تجوب الأسواق، من شأنه أن يُسهم في إزالة التوتر النفسيّ و الشعور بالوحدة و الضجر. و من هنا نجد أنّ رواة الليالي يحثّون أبطالهم على الخروج من فضاءات منازلهم إلى فضاءات أسواق مدنهم. ففي حكاية « **علي الزيبق و دليلة المحتالة** » أحسّ علي الزيبق بالضجر نتيجة مكوثه في قاعته ببغداد، « فانقبض قلبه وضاق صدره، فقال لنفسه قُم شُقّ في بغداد ينشرح صدرك، فخرج و سار من زقاق إلى زقاق فرأى في وسط السوق دكّاناً فدخل وتغدّى فيه وطلع يغسل يديه »[12]. و ما إن يعود من أسواق بغداد و أزقّتها إلى قاعته، حتى يكون صدره قد انشرح، وامتلأ غبطة بعد لقائه بالمرأة الجميلة زينب بنت دليلة المحتالة التي تؤكّد له أنّها عشقته، و أنّها ستكون للغندور الذي مثله عندما سألها: « ما أحسن شكلك لمن أنت؟ »[13].

و نجد أنّ الراوي في غير حكاية يدفع بطله الخليفة هرون الرشيد للخروج من دائرة قلقه وضجره و فضاءات قصوره إلى أسواق بغداد وأزقّتها كي يُبدّد قلقه[14]. ويذكر أحد رواة ألف ليلة و ليلة أنّ أسواق القاهرة هي الأخرى كانت ملاذاً وطمأنينة للذين يخرجون إليها، ويدفع بطله للخروج من دائرة همّه إلى هذه الأسواق قائلاً[15]: « إن ضاق صدرك فشقّ شقّة في مصر، فإنّه يزول عنك الهمّ إذا مشيت في أسواقها ».

و يبدو أنّ أسواق القاهرة - تاريخيّاً - كانت تُشكّل فسحة مريحة لمرتاديها، فقد كانت عامرة بالحيويّة و الحركة. و عندما زارها الرحّالة

---

(12) – ألف ليلة وليلة، **148/4**.

(13) – م ن، **148/4**.

(14) – م ن، **89/1**، **163**.

(15) – م ن، **139/4**.

المغربيّ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي، 704 - 779هـ /1304 - 1377م) ذكر أنّ بهـــا

« من السقّائين على الجمال اثني عشر ألف سقّاء، و أنّ بها ثلاثين ألف مَكّارٍ وأنّ بنيلها من المراكب ستّة وثلاثين ألفاً للسلطان، و الرعيّة تمرّ صاعدة إلى الصعيد و منحدرة إلى الإسكندريّة ودمياط بأنواع الخيرات و المرافق، وعلى ضفّة النيل ممّا يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، و هو مكان النزهة و التفرّج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة.

وأهل مصر ذوو طربٍ و سرور و لهو، شاهدت بها مرّة فرجة بسبب بُرْء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزّيّنَ كلّ أهل سوق سوقهم وعلّقوا بحوانيتهم الحُلَلَ و الحُليّ و ثياب الحرير و بقوا على ذلك أياماً »[16].

و من أسواق القاهرة يذكر أحد الرواة سوق وردان الذي يبيع اللحوم[17]. و سوق قيصريّة جرجس الذي يبيع الأقمشة[18].

و لم تكن أسواق القاهرة في ألف ليلة وليلة فضاءات للمتعة البصريّة فحسب، بل كانت فضاءات لمتع حسيّة أخرى، ومنها متعة تعاطي الحشيش. ففي أسواق القاهرة يستطيع الأبطال أن يتعاطوا الحشيش و الأفيون بحريّة، ومن دون رقابة تُذكر، و من دون أن يتعرّضوا لأيّة عقوبات. يقول أحد الرواة[19]: « و كان في السوق [سوق القاهرة] نقيب الدلاّلين وكان رجلاً حشّاشاً يتعاطى الأفيون و يستعمل الحشيش الأخضر ». وفي هذا السوق كان مُباحاً لدكاكين العطّارين أن تبيع الحشيش، و يُسمّي الراوي أصحاب هذه الدكاكين ببائعي الحشيش، إذ يذكر أنّ نقيب الدلاّلين « توجّه إلى بيّاع الحشيش »[20]، ليشتري منه ما يشاء.

ويبدو أنّ تعاطي الحشيش و الأفيون ـ كما يعتقد بعض رواة الليالي ـ له وظيفة مهمّة بالنسبة للأبطال، لأنّه قادر على إثارة الطاقات الجنسيّة و

---

(16) – تحفة النظّار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر/دار بيروت، بيروت، طبعة 1384هـ/1964م، ص37.

(17) - ألف ليلة وليلة، 85/3.

(18) – م ن، 130/1.

(19) – م ن، 348/2.

(20) – م ن، 348/2.

تحريضـها[21]. و بشـكل عـام لعبـت التوابـل و أنـواع البَخُـور والعطـور فـي التاريخ دوراً واضحاً في تفجير الإثارة الجنسيّة، مثلها مثل الحشيش فقد كانت تُباع في دكاكين العطّارين مع الحشيش، وقد امتلأت أسواق دمشق وبغداد و القاهرة والإسكندرية وصنعاء بحوانيت العطّارين الذين تأتيهم أنواع التوابل والعطور والأصباغ و الحشائش الطبيّة التي بلغت ستّةً وثلاثين صنفاً[22]، من جنوب شـرق آسـيا والهنـد[23]، و

« تأتي التوابل و البَخُور و العطور على رأس قائمة السلع المطلوبة في العصور الوسطى، بل إنّ شدّة الطلب عليها حرّك أساطيل و أقام حروباً للبحث عن مصادرها التي صِيغَت من حولها الأساطير والحكايات الخرافيّة. وقد بلغ الأمر بأن قيل إنّ التوابل التي بأسواق مصر تأتيها من الفردوس الأرضي، وإنّ الناس تحصل عليها عند ارتفاع مياه النيل إلى سطح الأرض، حيث يمدّ الصيّادون شباكهم بعرض النهر في المساء، فإذا ما أقبل الفجر ضمّوا شباكهم إليهم و ما أكثر ما يجدون فيها من الفلفل و القرفة والزنجبيل وإلى ذلك من صنوف التوابل، وغير ذلك أقوال كثيرة نُسجت عن التوابل وكلّها بعيدة عن الحقيقة »[24].

إنّ من يقرأ ألف ليلة و ليلة سيُلاحظ أنّ العطّارين أصبحوا خبراء في فنّ الجنس والإثارة، فقد كانوا يُركّبون وصفات طبيّة من التوابل، من شأنها أن تُقوّي قدراتهم الجنسيّة. ففي حكاية « **علاء الدين أبي الشامات** » نجد أنّ التاجر المصريّ شمس الدين ـ شاه بندر التجار ـ يتزوّج بإحدى النساء، و يظلّ معها أربعين عاماً، لكنّه لا ينجب منها أيّ مولود[25]، وعند ذلك يستشير أحد معاونيه، فيقترح عليه أن يذهب إلى العطّار بيّاع الحشيش، و في مخزن العِطَارة يقوم العطّار بإعداد الوصفة الآتية: « أخذ من السكر المكرر الرومي و الفلفل الأبيض و السقنقور الجبلي، ودقّ الجميع و غلاهم في الزيت الطيب (...). و أخذ مقدار قدحٍ من الحبّة السوداء، و نقعه، وعمل جميع ذلك معجوناً

---

(21) **ـ لا يزال هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن عند بعض الناس في المدن العربيّة المعاصرة.**

(22) **ـ عثمان، د. شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، « سلسلة عالم المعرفة »، العدد151، ذو الحجّة 1410هـ/تموز (يوليو)، 1990م، ص208.**

(23) **م ن، ص207.**

(24) **ـ عثمان، د. شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، ص214.**

(25) **ـ ألف ليلة وليلة، 347/22.**

بعسل النحل »[26] ويزعم راوي الحكاية أنّ التاجر شمس الدين، تناول هذه الوصفة، و واقع زوجته، فسرعان ما « علقت منه تلك الليلة »[27]، بفعل هذه الوصفة.

لقد أضفت روائح التوابل و الحنّاء و الكحل ومواد الزينة و العطور، والفستق والبندق والقرفة وغيرها، على فضاء دكاكين العطّارين هالة مُشْبعة بالإيحاءات والدلالات الجنسيّة التي من شأنها أن تُحرّض الطاقات الجنسيّة لدى الذكر والأنثى، والتي يمكن اعتبارها من مجمل المثيرات الخارجيّة[28] التحريضيّة للفعل الجنسيّ.

إذا كانت أسواق المدينة الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة قد عرفت نوعاً من التجانس في نوعيّة البضائع المعروضة فيها من خلال التقسيمات والتسميات التي سُميّت بها هذه الأسواق: « سوق الجلود، سوق الأقمشة، سوق العلاّفين...الخ »، فإنّها لم تكتفِ بهذا التنظيم في عرض السلع، و حصرها في أماكن محدّدة لها ضمن السوق التجاريّ المركزيّ في المدينة، بل شهدت تنظيمات أخرى في ضبط عمليات البيع والشراء وتنظيم السوق. إذ تثبت نصوص ألف ليلة و ليلة أنّ سلطات مدن الليالي كانت تُعيّن تاجراً من بين التجار ليكون مسؤولاً عن حركة السوق، وتنظيمه، والفصل في المنازعات التي قد تحدث بين تجاره. وكان يُطلق على هذا المسؤول « شاه بندر التجار »[29]. و كان السوق التجاريّ المركزيّ يُقسم إلى أسواق فرعيّة ذات وحدات تنظيميّة، تضمّ كلّ وحدة منها مجموعة من الحرفيين، أو المهنيين ذوي المهنة الواحدة، وكان على رأس هذه المهنة مسؤولاً يقوم على رعاية مصالح أفراد هذه المهنة، ويُنظّم و يضبط علاقاتهم المهنيّة، و تُطلق نصوص الليالي عليه « عرّيف السوق » أو « شيخ السوق »[30]، أو« النقيب »[31] في مواضع أخرى. فهناك « شيخ السقّائين»[32]، وهناك «شيخ الدلاّلين

---

[26] – م ن، 348/2.

[27] – م ن، 349/2.

[28] – أستعير مصطلح المثير الخارجي من: فرويد، سيجمند: ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة د. إسحق رمزي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية 1966م، ص55.

[29] – ألف ليلة و ليلة، 352/2.

[30] – ألف ليلة وليلة، 238/1.

[31] – م ن، 348/2.

[32] – م ن، 141/4.

»[33]، أو « نقيب الدلاّلين »[34] بتسمية أخرى، و هناك عرّيف الوقّادين[35].
و كان على رؤساء هذه المهن أن يمتثلوا جميعاً لسلطة رجل أشدّ ثراءً منهم، وأكثر ارتباطاً بسلطة الدولة، وهو « شاه بندر التجار ». و يبدو أنّه كان لـ « شاه بندر التجار » نائب تاجر يعاونه في إدارة السوق، أو ينوب عنه، ويُسمّى: « نقيب السوق »، كما تشير حكاية **« علاء الدين أبي الشامات »**. و من مظاهر سلطة « شاه بندر التجار » و خضوع التجار لهيبته، أنّهم كانوا جميعاً يتقدّمون إليه صباح كل يوم ليسلّموا عليه، ويقرأوا الفاتحة بين يديه. يقول الراوي[36]: « وكان من عادة شاه بندر التجار أنّه لمّا يأتي من بيته في الصباح و يقعد في دكّانه يتقدّم نقيب السوق ويقرأ الفاتحة، فيقومون معه و يأتون شاه بندر التجار و يقرأون الفاتحة و يصبّحون عليه ».
و يبدو أنّ من يتبوّأ منصب « شاه بندر التجار »، يجب أن يتمتّع بمزايا عامة منها: أن يكون أثرى التجار، ويملك « مالاً كثيراً لا يُحصى »[37]، و أن يكون « من أحسن التجار و أصدقهم مقالاً »[38]، وأن يكون حسن السيرة و الأخلاق، غير متهتّكٍ في حياته الجنسيّة، وغير موضع شكّ، و بخاصّة في علاقاته مع غلمان سوقه و حيّه. ففي حكاية **« علاء الدين أبي الشامات »**، يشاهد التجار ذات يوم شيخهم « شاه بندر التجار »، و بصحبته غلام جميل « كأنّ وجهه القمر في ليلة أربعة عشر »[39]، فسرعان ما يظنّون به سوءاً، و يعتقدون أنّ العلاقة بينه و بين هذا الغلام الجميل تقوم على مآرب جنسيّة، فيستنكرون ذلك، و يقررون خلعه من مشيخة السوق. يقول أحد التجار[40]: « انظر إلى هذا الغلام الذي وراء شاه بندر التجار و قد كنّا نظنّ به الخير، وهو مثل الكراث شائب و قلبه أخضر فقال الشيخ محمد سمسم النقيب (...): نحن ما بقينا نرضى به أن يكون شيخاً علينا أبداً ». و يتابع الراوي قائلاً[41]: « فلمّا قعد شاه بندر التجار في دكّانه ذلك اليوم على

---

(33) – م ن، **130/1**.

(34) – م ن، **348/2**.

(35) – م ن، **79/2**.

(36) – م ن، **352/2**.

(37) – م ن، **351/2**.

(38) – م ن، **347/2**.

(39) – م ن، **352/2**.

(40) – ألف ليلة وليلة، **352/2**.

(41) – م ن، **352/2**.

عادته لم تأت إليه التجار حسب عادتهم، فنادى النقيب و قال له: لماذا لم تجتمع التجار على جري عادتهم؟ فقال له: (...) إنّ التجار اتفقوا على عزلك من المشيخة و لا يقرأون لك فاتحةً. فقال: ما سبب ذلك؟ فقال له: ما شأن هذا الولد الجالس بجانبك و أنت شيخ و رئيس التجار، فهل هذا الولد مملوك أو يقرب لزوجتك؟ و أظنّ أنّك تعشقه ». لكنّ الراوي المؤدلج إسلاميّاً، و المتعاطف مع بطله التاجر المسلم ـ ولكي يتوالى السرد في ما بعد خادماً البنية العامّة للحكاية ـ يرفض أن يلصق هذه التهمة عليه، ويؤكّد نزاهته و سيرته الحميدة قائلاً[42]: « اسكت قبّح الله ذاتك وصفاتك هذا ولدي ».

إنّ شاه بندر التجار رجل مسلم يؤدّي واجباته الدينيّة[43]، ويغرس في ابنه تعاليم القرآن، إذ يُعلّمه « الخطّ و القرآن و العلم »[44]، وبالتالي فإنّ الراوي المسلم الذي يطمح في أن يكون في موقع بطله التاجر المسلم، والذي يضع القارئ منذ بداية الحكاية أمام شيخ للتجار، مستقيم أخلاقيّاً، لا يمكن له إلاّ أن يدافع عن هذا البطل، لأنّ منطق السرد الحكائيّ يقتضي أن يظلّ هذا البطل نظيفاً إلى آخر الحكاية، وبخاصّة إذا عرفنا أنّ هذا الراوي يدين الشذوذ الجنسيّ بشدّة في مواضع لاحقة من الحكاية[45].

و تشير حكايات ألف ليلة و ليلة إلى أنّ فضاء السوق كان مُحصّناً ضدّ اللصوص، فقد عمدت سلطات المدينة الإسلاميّة إلى معاقبة من يجترئ على سرقة تجّاره و الناس المتجولين فيه. وكان ولاة هذه المدن متشددين في معاقبة من يسرق، وبخاصّة إذا كان من الفقراء والضعفاء و البؤساء، ففي حكاية « **النصراني لملك الصين** »، يدخل أحد شخوص الحكاية سوق « **باب زويلة** » بحيّ « **بين القصرين** » في القاهرة، و يدسّ يده في جيب أحد المارّة ـ نظراً لحاجته الماسّة إلى المال ـ فسرعان ما يقبض عليه رواد السوق، ويقدّمونه إلى والي المدينة، فيأمر السيّافَ بقطع يده اليمنى[46]. وفي حكاية « **اليهودي لملك الصين** »، يتوجّه أحد شخصيّات الحكاية إلى سوق الجواهر بدمشق ليبيع عقداً مسروقاً، فيشكّ الدلاّل بأن حامل هذا العقد قد سرقه، فيتوجّه إلى كبير السوق، و يُعلمه بذلك. و أمام سياط تعذيب الظلمة ـ على

---

(42) – م ن، **352/2**.

(43) – م ن، **347/2**.

(44) – م ن، **350/2**.

(45) – م ن، **357/2**، **360**.

(46) – م ن، **135/1 – 136**.

حدّ تعبير الراوي ـ يعترف أنّه سرق العقد، فما كان من هؤلاء الظلمة إلاّ أن قطعوا يده جزاء سرقته[47].

و تشير حكاية « **السندباد البحري** » إلى أنّ إحدى مدن ألف ليلة و ليلة كانت « مدينة عظيمة المنظر مليحة البناء، فيها خلق كثيرون »[48] ـ لا يذكر الراوي اسماً لها ـ وكانت تشهد في أسواقها التجاريّة نوعاً من نظام البيع وفق المزايدات العلنيّة التي تشبه إلى حدّ ما المزايدات التي لا تزال تجري في غير مدينة من مدننا العربيّة المعاصرة. يقول السندباد[49]: « ورأيت الدلاّل يُدلّل عليه، [أي زورق السندباد المصنوع من خشب الصندل] فجاء التجار وفتحوا باب سعره وتزايدوا فيه إلى أن بلغ ثمنه ألف دينار. وبعد ذلك توقّف التجار عن الزيادة. فالتفت إليّ الشيخ و قال: اسمع يا ولدي هذا سعر بضاعتك في مثل هذه الأيام فهل تبيعها بهذا السعر أو تصبر ».

إذا كان السوق ذا وظيفة تجاريّة مهمّة في حياة سكّان مدن ألف ليلة و ليلة، فإنّ له وظيفة اجتماعيّة، إذ يلتقي الناس فيه، ويقيمون من خلاله نوعاً من الألفة و المحبة، فهو فضاء للقاء الرجال بالنساء، و بالتالي هو يُوصل إلى غاية جنسيّة بعد هذا اللقاء، إذ يلتقي الرجال بالجواري والنساء الجميلات في فضاء الحوانيت التجاريّة، وهناك تُعقد صفقات الحبّ والجنس. ففي حكاية « **الصعيدي مع المرأة الإفرنجية** »، يلتقي بطل الحكاية بإحدى نساء الإفرنج الجميلات في سوق الكتّان بمدينة عكّا، و يغازلها، ثمّ يدعوها إلى منزله، فتستجيب لدعوته. يقول الصعيدي[50]: « فبينما أنا أبيع إذ مرّت امرأة إفرنجيّة، و عادة نساء الإفرنج أن تمشي في السوق بلا نقاب، فأتت لتشتري منّي كتّاناً فرأيت من جمالها ما بهر عقلي ». ويغريها بالمال، ويعطي للعجوز التي ترافقها خمسين ديناراً، فتقول العجوز له[51]: « هيّئ لها موضعاً في بيتك وهي تجيء إليك في هذه الليلة. ثمّ قال: فمضيت و جهّزت ما قدرت عليه من مأكل و مشرب و شمع و حلوى، وكانت داري مطلّة على البحر وكان ذلك في زمن الصيف ففرشت على سطح الدار وجاءت الإفرنجيّة فأكلنا و شربنا وجنّ الليل ».

---

(47) – ألف ليلة وليلة، **48/1**. مع ملاحظة أنّ يد هذا الشخص قُطِعت ظلماً، كما يُفهم من خلال السياق العام للحكاية.

(48) – م ن، **17/4**.

(49) – م ن، **19/4**.

(50) – م ن، **432/4**.

(51) – م ن، **432/4**.

وتشـير حكايـة « **النصـراني لملـك الصـين** » إلـى أنّ أحـد الأبطـال البغداديين تعرّف على امرأة مصريّة جميلة في سوق « **قيصرية جرجس** » لبيع الأقمشة[52]، فسرعان ما عشقها، لأنّها سلبت عقله بحسنها وجمالها، وتمكّن حبّها من قلبه[53]. فما كان منها إلاّ أن عشقته هي الأخرى، و دعته إلى منزلها الجميل بحيّ « **الحبّانيّة** »، وهناك أقاما طقوس الجنس. يقول البغدادي[54]: « فلمّا دخلت و جلست، لم اشعر إلاّ و الصبيّة أقبلت و عليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر، فلمّا رأتني تبسّمت و حضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك ».

وتُشكّل الأزقّة المتفرّعة من الأسواق، في نصوص الليالي، مادة حكائيّة ثرّة ينمو من خلالها السرد الحكائيّ ويتشعّب، فالزقاق ينحني ويدور، ويدخل مناطق بعيدة، وتبرز منه امرأة جميلة، وتنظر إلى رجل وسيم وتغمزه، فيستجيب لها، فتدعو نفسها إلى داره، وهناك في الدار « لعبا و شربا و انشرحا »[55]، ثمّ تكون هذه الدار في ما بعد مُحفّزاً حكائيّاً يُسهم في تشعّب الحكاية وحبكها، وصولاً إلى ذروتها، ثمّ فكّها أمام ملك المدينة[56].

ويكشف الزقاق أحياناً عن وجه المرأة المستبدّ الغارق في الفساد و الرذيلة، فعندما تغضب إحدى النساء السلطويات على زوجها الثريّ، تذهب إلى الزقاق لتبحث عن أقذر رجل لتمارس معه فعل الزنى انتقاماً من زوجها[57].

ويتوقّف السرد طويلاً عند دكاكين الأسواق في حكايات الليالي، و من ثمّ ليتابع نسيجه للبنية الحكائيّة العامّة. ففي حكاية « **علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة** » تتردّد دليلة المحتالة و ابنتها زينب النصّابة على دكاكين أسواق بغداد. وتبدو هذه الدكاكين حوافز مهمّة جداً لنمو السرد الحكائيّ، إذ تقوم دليلة وابنتها زينب بحبك الحيل الماهرة جداً على أصحاب هذه الدكاكين[58]. ويُلاحظ أنّه لولا توقف السرد الحكائيّ أمام هذه الدكاكين لما انتهت الحكاية إلى قصر هرون الرشيد ببغداد، و لما فُكّت عقدة الحكاية بتحقيق منطق التصالح بين أبطال الحكاية، وذلك بزواج علي الزيبق

---

(52) – ألف ليلة وليلة، **131/1**.

(53) – م ن، **131/1**.

(54) – م ن، **133/1**.

(55) – م ن، **314/2**.

(56) – م ن، **317/2**.

(57) – م ن، **423/2**.

(58) – لمزيد من الاطلاع ينظر: م ن، **4**/من ص**117** حتى ص**121**.

المصري بزينب النصّابة، وإسلام قمر بنت عزرا اليهودي بين يدي الخليفة هرون الرشيد، وزواجها بعلي الزيبق المصري، وتخصيص الخليفة قاعة فخمة لصبيانه الذين قدموا من مصر إلى بغداد[59].

ومن خلال ارتحال السرد الحكائيّ في الحكاية السابقة بين أسواق بغداد و دكاكينها، تبدو مدينة بغداد العبّاسيّة فضاء جامعاً لنماذج شخصيّات عديدة بطباعها وسلوكها، سواء كانت هذه الشخصيّات خيّرة أم شريرة. ولا ينسى راوي الحكاية من خلال وصف الدكاكين و الأسواق أن يُحمّل السرد الحكائيّ بأبعاد إيديولوجيّة تدين النظام السياسيّ و الطبقيّ في بغداد، القائم في إحدى بنياته على الحيلة والتجسس، و المغامرة الجريئة الشريرة المدمّرة لقوانين المجتمع وأخلاقيّاته، وتدين الخروقات الكثيرة في هيكليّته السياسيّة من قبل نساء محتالات عواهر، وشطّار فاسدين؛ عجز النظام السياسيّ عن مكافحة جرائمهم، فقرّبهم إليه، وأغدق عليهم درءاً لشرورهم وعبثهم بأمن المدينة، ومكايدهم التي قد تعصف ببنيته الداخليّة[60].

إنّ السوق بانفتاحه على عالم التجارة والسمسرة والتجّار مختلفي الجنسيّات، يظلّ من أهمّ الفضاءات المكانيّة في ألف ليلة و ليلة، التي يلتقي فيها الرجال بالنساء. ومن هذا الفضاء المفتوح يسهل على الرجل أن يأخذ المرأة إلى فضاء المنازل المغلقة حيث يتمّ تحقيق التواصل الجنسيّ، ويسهل على المرأة أيضاً أن توقع الرجال في شراك فتنتها، وتقودهم صاغرين - بفعل شكلها الجمالي المثير - إلى دارها.

و يُشير السرد الحكائيّ إلى أنّ معظم العلاقات الجنسيّة المحرّمة أو الشرعيّة، تبتدئ بتشكيل نواتها الأولى بدءاً من فضاء السوق، فما إن تخرج الجميلة من القصر أو المنزل إلى السوق، حتى يلقي التجّار الأثرياء و الأبطال المغامرون شباكهم عليها. فعليّ بن بكّار التقى بشمس النهار في دكّان صديقه أبي الحسن في أحد أسواق بغداد، وما إن شاهدها حتى بدأ بمغازلتها: « فلمّا وصلوا إلى دكّان أبي الحسن، نزلت عن البغلة وجلست في دكّانه، فسلّمت عليه و سلّم عليها، فلما رآها علي بن بكّار سلبت عقله، وأراد القيام فقالت له: اجلس مكانك كيف تذهب وقد حضرنا. فقال: والله يا سيّدتي إنّي هارب مما رأيت، وما أحسن قول الشاعر:

---

(59) – ألف ليلة وليلة، **4/176 – 177**.

(60) – م ن، **4/178**.

هي الشمس مسكنها في السماء فعــزِّ الفــؤاد عــزاءً جمــيلا
فلــن تســتطيع إليهــا الصــعودا ولـن تستطيع إليك النزولا[61]

ومـا إن تسمع شمس النهار مـا قالـه علـي بـن بكّـار، حتـى تتحايل و تـدعوه و صـديقه أبـا الحسـن إلـى مقصـورتها الجميلـة بقصـر الخليفـة هـرون الرشـيد. وهناك في المقصورة تنادمه وتقبّله وتعانقه[62].

وفي حكاية « **هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري** »، يُلاحظ أنّ السيّدة الثريّة الجميلة دنيا البرمكي تخرج من دارها قاصدة سوق الجواهر ببغداد لتشتري عقد جوهر، وهنـاك تلتقـي بمحمد بـن علـي الجوهري. يقول الجوهري[63]: « فاتّفق فـي بعض الأيام أنّـي كنت جالساً في دكّـاني وحـولي الخدم والحشم، وإذا بجاريـة قد أقبلت راكبـة علـى بغلـة و فـي خدمتها ثـلاث جوارٍ كـأنّهنّ الأقمار، فلما قربت منـي نزلت علـى دكّاني وجلست عندي، و قالت لي: هل أنت محمد الجوهري؟ فقلت لهـا: نعم أنـا هو مملوكك وعبدك فقالـت: هـل عنـدك جـوهر يصـلح لـي؟ ». وسـرعان مـا تعشـقه و تـدعوه إلـى دارها لكـي يقبض ثمن العقد. وفـي الدار تميل عليـه ويميل عليهـا، و تقبّلـه و يُقبّلها، وإلى جهتها تجذبه، وعلى صدرها ترميه، وتنزع ما عليها من الثياب، ويخلو بها خلوة الأحباب، ويجدها درّة لم تُثقب و مهرة لم تُركب، بمفردات راوي الحكاية[64].

إنّ للسوق ـ بالإضـافة إلـى وظائفه التجاريّـة والاجتماعيّـة، و قدرتـه على أن يكون فضاء للصبوة الجنسيّة ـ وظيفـة أخرى مهمّـة، وهـي العقوبـة و الردع، أي التجريس والفضيحة لمن يخرق أعراف المدن و قوانينهـا، وأنظمـة السلطة فيها. وتستخدم سلطات ألف ليلة و ليلة الأسواق لفرض سطوتها علـى مواطنيها، وزرع الخوف في نفوسهم، حتى يرتدعوا عن ارتكاب الجرائم من جهة، وحتى تأمن شرورهم من جهة أخرى. فمن يسرق تُقطع يده فـي السـوق أمام مرآى الناس ليكون عبرة لغيره: « فأمر خالد [خالد بن عبد الله القسري أمير البصرة] بحبسه وأمر بمنادٍ ينادي بالبصرة: إلى كلّ من أحبّ أن ينظر

(61) – م ن، **183/2**.
(62) – ألف ليلة وليلة، **185/2**.
(63) – م ن، **434/2**.
(64) – م ن، **436/2 . 437**.

إلـى عقوبـة فـلان اللـص وقطـع يده، فليحضـر مـن الغـداة إلـى المحـلّ الفلانـي »[65].

ومن تشكّ السلطة بخيانته لها وعدم ولائـه، يُشنق فـي السوق، حتـى يرتدع المتآمرون والمارقون على نظامها. يقول الخليفة الرشيد لعلاء الدين أبي الشامات الذي كان من أقرب المقرّبين إليه: « يا خائن كيف أقرّبك إليّ وتبعدني عنك واستأمنك وتخونني؟ ثمّ أمر بشنقه، فنزل به الوالي [إلى السوق] و المنادي ينادي عليه: هذا جزاء وأقلّ من جزاء من يخون الخلفاء الراشدين. فاجتمع الخلائق عند المشنقة »[66]. ومن يحاول التطلّع إلى نساء غيره، فإنّه يُفضح و يُجرّس في السوق: « فضربه بالسياط [أي الوالي] وأركبه جملاً و دار به في شوارع المدينة و الناس ينادون عليه: هذا جزاء من يهجم على حريم الناس »[67].

وتوظّف إحدى نساء ألف ليلة وليلة فضاء السوق للسخرية من الرجال، وإضحاك سكّان السوق عليهم، وتجريسهم. ففي حكاية « **المزيّن لملك الصين** » تريد إحدى النساء السلطويات الجميلات العبث بمشاعر أحد الرجال البسطاء المحرومين جنسيّاً والسخرية منه، فتدعوه إلى منزلها، وتغازله، وتغريه بجمال جسدها، وتقنعه بأن يحلق لحيته حتى لا يبقى في وجهه شعر يؤذي وجهها الجميل، وتثيره حتى يتعرّى من ملابسه، وتطلب منه أن يرقص عارياً حتى يكتمل طقس مسرّاتها. ويرقص الرجل عارياً طمعاً بوصالها[68]، لكنّها تسخر منه، وتحتال عليه و تقذفه وسط سوق الجلاّدين ببغداد. يقول الراوي[69]:

> **« فقالت الجارية لأخي: قم الآن واجر ورائي وأجري أنا قدّامك، وإذا أردت شيئاً فاتبعني، فجرت قدّامه و تبعها ثمّ جعلت تدخل من محلّ إلى محلّ آخر و أخي وراءها، وقد غلب عليه الشبق كأنّه مجنون. ولم تزل تجري قدّامه و هو يجري وراءها. فبينما هو كذلك إذ رأى نفسه وسط زقاق وذلك الزقاق في سوق الجلاّدين وهم ينادون على الجلود، فرآه الناس على تلك الحالة وهو عريان محلوق الذقن و الحواجب و الشوارب محمرّ الوجه، فصاحوا عليه وصاروا**

---

(65) – م ن، **5/3**.

(66) – ألف ليلة وليلة، **383/2**.

(67) – م ن، **162/1**.

(68) – م ن، **164/1**.

(69) – م ن، م ن، **165/1**.

يضحكون و يقهقهون وصار بعضهم يصفعه بالجلود وهو عريان حتى غشي عليه، وحملوه على حمار حتى أوصلوه إلى الوالي، فقال: ما هذا، قالوا: هذا وقع لنا من بيت الوزير وهو على هذه الحالة فضربه الوالي مائة سوط ».

يكشف المقطع السابق عن مدى الهوة العميقة بين طبقتين من طبقات المجتمع العبّاسيّ: طبقة السلطة التي تعيش أعلى درجات البطر و الاستبداد، وطبقة الشعب التي تعيش مُهمّشة ومحرومة من كلّ المتع. فطبقة السلطة لا تكمّل طقوس ملذّاتها إلاّ باحتقار أفراد الشعب البسطاء، و السخرية منهم، وإهانتهم. وعلى الرغم من أنّ بعض هؤلاء البسطاء كانوا قد وعوا مدى الفروقات بينهم وبين أفراد السلطة، وحاولوا الابتعاد عنهم، قانعين بظروفهم المأساويّة، وبما أعطاهم ربّهم، إلاّ أنّ هذه الطبقة السلطويّة لم تشأ أن تتركهم وحالهم في صراعهم المرير من أجل كسب لقمة عيشهم، بل بدا لها أنّهم يمكن أن يُشكّلوا أدوات ترفيهيّة مهمّة تُسهم في زيادة بطرها وسعادتها و غرورها. فالرجل الفقير المُحتال عليه كان خارجاً إلى السوق، مثله مثل جميع بؤساء بغداد، لقضاء حاجاته، و لم يكن يأمل في أن يقضي ليلة عامرة بالملذّات مع إحدى النساء الجميلات، لأنّه يعي استحالة أن تتحقّق أمنيته في مجتمع حرمه من أسباب الملذّات و العيش الكريم، وفجأة يجد نفسه أمام عجوز تقول له(70): « ما قولك في دار حسنة ماؤها يجري، وفاكهة ومدام ووجه مليح تشاهده وخدّ أسيل تُقبّله وقدّ رشيق تعانقه وتظلّ كذلك من العشاء إلى الصباح؟». فكيف له أن يرفض هذا العرض المغري، وهو المحروم دائماً من جميع مكوّناته المثيرة و المغرية؟. لقد جاشت في أعماقه جميع رغباته المكبوتة، وانفلت عقالها، فبدت جياداً جامحة، وكيف له أن يكبح جموحها؟ وكيف له أن يعرف أنّه أمام امرأة محتالة؟.

إنّ حياته البسيطة المغمّسة بالقهر و الحرمان لم تعطه الخبرات الكافية لأن يفهم قدرات نساء مجتمعه الثريّات الجميلات على المكيدة و الاحتيال، فهو لم يعاشرهنّ مسبقاً، ولذا لا يمكنه أن يعرف ما يدور في أذهانهنّ. و من هنا فقد كان صيداً سهلاً لأربع نساء بطرات عابثات « ما رأى الراؤون أحسن منهنّ »(71). وما إن يدخل دار هاته البنات - يبدو أنّهنّ بنات أحد وزراء بغداد أو جواريه - حتى يسارع ويضع نفسه موضع العبد، ويقوم بخدمة أجملهنّ، لكنّها ترفض، وتُقدّم له قدحاً من الشراب، وعندما يشربه تصفعه على رقبته، فيخرج غاضباً، فتتبعه العجوز، وتستلطفه حتى يعود.

---

(70) – ألف ليلة وليلة، 163/1.

(71) – م ن، 163/1.

ويعود ويشرب، وتجرّده البنات من ثيابه تماماً، وتقول له أجملهنّ: « إن صبرت على شرطي بلغت مرادك، فقال لها: يا سيّدتي أنا عبدك وفي قبضة يدك »[72]. لقد دخل إلى قصر البنات بعد محفّز جنسيّ مهمّ، وكان حرّاً حين دخوله، وما إن رأى ثراء النساء و جمالهنّ حتى أحسّ بدونيته، واعتبر نفسه عبداً وخادماً، وأخذ يمارس عبوديته أمام سطوة جمال هاته النساء، ورضي بجميع الشروط المُذلّة و المُهينة، طمعاً في جسد إحداهنّ. لكنّ المرأة المستبدّة لم تكتف بأنّها فجّرت إثارته الشبقيّة حتى ذروتها، ثمّ أحبطتها بأن حرمته من وصالها، بل احتقرته وأهانته، وعرّته من ثيابه ورجولته، وأشبعته ضرباً هي وجواريها.

ويبدو أنّ سعادة هذه المرأة المستبدّة لا تتحقّق كاملة بالسخرية من الرجل و تقزيم رجولته وتحويله إلى مهرّج، بل هي بحاجة إلى أن تُشبع ساديتها، وبالتالي تؤذيه جسديّاً، فما كان منها إلاّ أن أشبعته ضرباً بمعونة جواريها. وهو لا يستطيع أمام شبقه المجنون ـ على حد تعبير الراوي ـ إلاّ أن يصبر على الإهانة، و يتحمّل الأذى الجسدي، أملاً في إطفاء سعار شبقه المستحكم في كل أفعاله وردود أفعاله، أمام جمال هذه المرأة الخرافي، الذي لا يوجد مثله بين نساء طبقته الشعبيّة. و لم يكتف الراوي بأن يُكمل طقس ملذّات هذه المرأة بكل هذا الإذلال والإهانة لهذا الرجل البسيط، و ينهي الحكاية، و يجعله يخرج من قصر البنات مهاناً ذليلاً، ليُضمّد جراحه في منزله المتواضع، بل فاجأتنا الحكاية بأنّ طقس ملذّات المرأة لم يكتمل بعد، و لن يكتمل إلاّ بتجريس هذا الرجل و فضيحته التي ستظلّ وشماً أبدياً على روحه الجريحة، فما كان منها إلاّ أن قذفته وسط سوق الجلاّدين ببغداد، حيث تنتظره عقوبة أفراد طبقته وطبقة تجار الجلود من جهة، وعقوبة السلطة السياسيّة من جهة أخرى. ويبدو أنّها جميعها كانت مستهجِنة لأحلام البسطاء في مجتمع بغداد الطبقيّ.

وعلى الرغم من أهميّة الأسواق التجاريّة في مدن ألف ليلة و ليلة، وحاجة السكّان الماسّة إليها، تظلّ هناك أسواق أخرى أهمّ منها بالنسبة للأثرياء ورجال السلطة، وهي أسواق الجواري، لأنّها أكثر الفضاءات القادرة على إمتاعهم و إثارتهم، وتحقيق مسرّاتهم وملذّاتهم.

---

(72) – م ن، **164/1**.

2 ـ أسواق الجواري

عُرف عن بعض طبقات المجتمع الإسلاميّة ـ الأمويّ والعبّاسيّ ـ وبخاصّة طبقة السلطة وطبقة التجار أنّها عاشت ثراءً فاحشاً، وكان للتجارة النشطة والمزدهرة دور في رفاهيّة أهل المال والسلطة. وتربّعت دمشق في العهد الأمويّ، وبغداد في العهد العباسيّ على قمم الثراء والترف. وفي العصر العباسيّ جلبت التجارة « مختلف أسباب الترف إلى بلاط بغداد فمن روسيا وضفاف الفولغا أقبلت الفراء، والجلود، والكهرمان. وقد وُجِدت نقود عربية ترقى إلى ذلك العهد، في سكندنافيا القصيّة (...) وعملت الأفَاوِيَة والمنسوجات الحريرية الشرقيّة والذهب والرقيق الأفريقيان على زيادة الثروة العبّاسيّة »[73]. ومع ازدهار التجارة وانفتاح أسواق الدولة الإسلاميّة على الأمم والحضارات الأخرى قدِمت الجواري والجواري المغنيّات إلى بغداد العبّاسيّة من أصقاع الأرض، وأشاعت في فضاءاتها مزيداً من اللهو والغناء، وبالتالي مزيداً من الإباحيّة الجنسيّة ـ وبخاصّة في أوساط الطبقات الثريّة ـ نظراً لسهولة اقتناء الجواري، وامتلاكهنّ جنسيّاً، فالرجل السلطويّ أو الثريّ يستطيع شراء ما يشاء من هاته الجواري، ما دمن معروضات في أسواق الرقيق كأيّة سلعة تجاريّة أخرى معروضة في أسواق التجار.

ويذكر أبو حيان التوحيدي (328 ـ 387 هـ) أنّه أحصى، هو وجماعة من أصحابه ببغداد، المغنيّات من الجواري والحرائر في إحدى نواحي بغداد ـ ناحية الكرخ ـ فوجدوا أنّ عدد الجواري أربعمائة وستون جارية، ومائة وعشرون حرّة[74]. ويبدو من الطبيعي أن يكون لهذه الجواري تأثير واضح على رجال بغداد، فقد كنّ قادرات على خلب العقول وخَلْس الصدور، والتعجيل بعشّاقهن إلى القبور. على حدّ التعبير التوحيدي[75].

---

[73] ـ لاندو، روم: الإسلام والعرب، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول **1977**م. ص**80**.

[74] ـ الإمتناع و المؤانسة، صححه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني، ص **183**.

[75] ـ م ن، **182/2**.

وانتشرت تجارة الرقيق في ولايات الدولة الإسلاميّة انتشاراً واسعاً، وقد « كان في بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق »[76]. ويبدو أن خلفاء الدولة العباسيّة كانوا ولعين باقتناء الجواري ولعاً شديداً، فقد غصَّت قصورهم بهنّ. فعلى سبيل المثال كان عهد الرشيد عهد الجواري والقيّان، إذ اتّخذ في قصوره ألفي جارية، ومعهنّ ثلثمائة قيّنة للغناء والموسيقى، وابتاع جارية بمائة ألف دينار، أما الخليفة المعتصم (أبو إسحاق محمد المعتصم، 218 - 227هـ /833 - 842م)، فقد اقتنى ثماني آلاف جارية، واقتنى الخليفة المتوكل (المتوكّل على الله بن المعتصم، 232 - 247هـ/847 - 861م) أربع آلاف جارية[77]. وفي هذه الأجواء الغاصّة بالجواري لا بدّ أن تنتشر الإباحيّة الجنسيّة في قصور الخلفاء والطبقات الثريّة من المجتمع، والقادرة على شراء الجواري، باعتبارهنّ أجمل السلع القادرة على تحقيق سعادة الرجال والترفيه عنهم، وعلى القيام بأعباء الخدمات المنزليّة.

وتحتفي نصوص ألف ليلة وليلة بالجواري وأسواقهنّ، ويخصّ السرد الحكائيّ هذه الأسواق بمساحة واسعة. ويشكّل سوق الجواري في الليالي تجمّعاً بشريّاً يضجّ بالنشاط والحركة، وفضاء مكانيّاً تُعرض النساء فيه سلعاً مليئة بالإثارة والجمال، ويمكننا من خلال هذا السوق أن نلمس مدى تهافت رجال الليالي، كباراً وصغاراً، على اقتنائهنّ، وأن نلمس كيفيّة شرائهنّ، وطرائق الدلاّلين في البيع والشراء، وبعضاً من ملامح رجال الليالي وعلاقاتهم التجاريّة. ويُعدّ سوق الجواري فضاء مهمّاً جدّاً لتحفيز السرد الحكائيّ وارتحاله من مكان إلى آخر، من السوق إلى قصر الخليفة أوالملك، أو من السوق إلى أيّ منزل رجل ثريّ، حيث تتشكّل المقاطع السرديّة في هذا القصر أو المقصورة أو المنزل، موضّحة ما يجري في هذه الفضاءات المغلقة من دسائس ومؤامرات، وراسمة بعض ملامح سكّان هذه الفضاءات وطباعهم، وسلوكهم الجنسيّ مع الجارية المشتراة.

وتُشكّل أسواق الجواري في مدن ألف ليلة وليلة طقساً احتفائيّاً بالجمال الأنثويّ، إذ تُصَفّ فيه الجواري بأنواعها المختلفة وسط جمهور حاشد من المتفرّجين، ومن الراغبين بالشراء، ثم ينادي الدلاّل عارضاً مزايا الجواري وقدراتهنّ المتميّزة ـ كل جارية على انفراد ـ طالباً من أرباب الأموال فتح باب المزايدة. ففي حكاية « **علي نور الدين وأنيس الجليس** »، يأخذ علي نور الدين جاريته أنيس الجليس إلى سوق الجواري، ويقدّمها للدّلال، ويتّفق

---

[76] – ضيف، د. شوقي: العصر العبّاسيّ الأول، دار المعارف، القاهرة، د. ت. ص **56**.

[77] – خليل، د. خليل أحمد: المرأة العربيّة وقضايا التغيير، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، شباط **1982**م.ص **70**.

معه على السعر الذي يرغبه فيها. يقول الرواي[78] واصفاً طقس بيع الجارية:

« ثمّ مضى [أي علي نور الدين] وسلّمها إلى الدلاّل وقال له اعرف مقدار ما تنادي عليه فقال له الدلال: يا سيدي علي نور الدين إنّ الأصول محفوظة(...) فعند ذلك طلع الدلاّل إلى التجار فوجدهم لم يجتمعوا كلّهم فصبر حتى اجتمع سائر التجّار وامتلأ السوق بسائر أجناس الجواري من تركيّة ورومية وشركسيّة وجرجيّة وحبشيّة. فلما نظر الدلاّل إلى ازدحام السوق نهض قائماً وقال: يا تجار يا أرباب الأموال ما كلّ مدوّر جوزة ولا كلّ مستطيلة موزة، ولا كلّ حمراء لحمة ولا كلّ بيضاء شحمة،ولا كلّ صهباء خمرة ولا كلّ سمراء تمرة، يا تجار هذه الدرّة اليتيمة التي لا تفي الأموال بقيمتها بكم تفتحون باب الثمن؟ فقال واحد بأربعة آلاف دينار وخمسمائة ».

إذا كانت أعراف البيع والشراء في أسواق الجواري تقتضي بأن تُباع الجارية إلى آخر رجل مزايد توقّفت المزايدة عليه ـ بعد أن توقّف الآخرون ـ، فإن بعض أرباب الجواري الكرام الذي كانت تربطهم ذكريات طيبة مع جواريهم، كانوا يرفضون بيع هاته الجواري، مهما ارتفعت أسعار المزايدة إلاّ للذين تختارهم هاته الجواري، وبملء حريتهنّ ففي حكاية «**علي شار وزمرد الجارية** »، يتقدّم أحد الشخصيّات لبيع جاريته، ويقف الدلاّل على رأس الجارية وينادي: « يا تجار يا أرباب الأموال من يفتح باب السعر في هذه الجارية سيّدة الأقمار، الدرّة السنيّة وزمردة السنوريّة، بغية الطالب ونزهة الراغب؟ فافتحوا الباب فليس من فتحه لوم ولا عتاب. فقال بعض التجار: عليَّ بخمسمائة دينار. وقال آخر: وعشرة. فقال شيخ يُسمى رشيد الدين(...): ومائة، وقال آخر: وعشرة. فقال الشيخ: بألف دينار »[79].

ولأنّ، الشيخ لا يستطيع أن يرضي طموح الجارية الجنسيّ، فإنّها ترفضه قائلة[80]:

أفـي الحيـاة يكـون القطـن حشـو فمـي؟ فـي بيـاض الشـيب مـن أربٍ

(78) – ألف ليلة وليلة، **194/1**.

(79) – ألف ليلة وليلة، **27/3**.

(80) – م ن، **28/3**.

ويتقدّم ثلاثة رجال آخرين، وقد افتتنوا بجسد الجارية الجميل، طالبين شراءها لكنّها ترفضهم جميعاً لأنّهم يفتقدون إلى الملامح الجميلة، التي ترغب بها[81]. وعند ذلك يقرر سيّدها أن يترك لها حريّة اختيار أيّ رجل في الحلقة ترضاه، وتُعجب بشكله الجميل:

« فقال لها الدلّال: يا سيّدتي انظري من يعجبك من الحاضرين وقولي عليه حتى أبيعك له؟ فنظرت إلى حلقة التّجار وتفرّستهم واحداً بعد واحد، فوقع نظرها على علي شار. فنظرته نظرة أعقبتها ألف حسرة وتعلّق قلبها به، لأنّه كان بديع الجمال وألطف من نسيم الشمال. فقالت: يا دلّال أنا لا أُباع إلا لسيّدي هذا صاحب الوجه المليح والقدّ الرّجيح، الذي قال فيه بعض واصفيه:

أبرزوا وجهك الجميل ثـمّ لامـوا مـن افتـتن
لـو أرادوا صـيانتي ستروا وجهك الحسن

فلا يمتلكني إلاّ هو لان خدّه أسيل ورضابه سلسبيل، وريقه يُشفي العليل، ومحاسنه تُحيّر الناظم والناثر »[82].

إن سُعار التجديد الجنسيّ الذي لهث وراءه رجال ألف ليلة وليلة ونساؤها، كان يدفعهم دائماً إلى اختيار الأمثل، المتميّز جماليّاً، المثير شهوانيّاً. ففي مجتمع إسلاميّ منفتح على جواري المعمورة، صارت المتاجرة بالجواري من أكثر أنواع التجارة رواجاً وربحاً، حتى قيل « لقد ارتفعت شمس الجواري واحتجب قمر الأحرار »[83]. وفي مجتمع كهذا، صار الرجال يقودون قطعاناً من النساء المهزومة، لكنها قطعان مليئة بالمقاييس الجماليّة الجنسيّة التي يفضّلونها، ويعتبرونها الأكثر إثارة[84]. وتعلّمت فيه

---

(81) – م ن، **28/3**.

(82) – ألف ليلة وليلة، **29/3**.

(83) – خليل، د. خليل احمد: المرىة العربيّة وقضايا التغيير، ص**69**.

(84) – من هذه المقاييس الجماليّة التي يُفضّلها رجال الليالي في جواري السوق: - « جارية رشيقة القدّ قاعدة النهد بطرفٍ كحيل وخدٍ أسيل و خصر نحيل وردف ثقيل (...) وقامتها تفضح غصون البان وكلامها أرقّ من النسيم إذا مرّ على زهر البستان، كما قال فيها بعض واصفيها هذه الأبيات:

لها بشرة مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هراء ولا هزر
و عينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

النساء أن تسخّر أجسادها وطاقاتها الجنسيّة لسعادة هؤلاء الرجال الذين يتحكّمون بالموارد الاقتصاديّة، وأن تفضّل الرجال الوسيمين المثيرين جنسيّاً، الذين تنطبق عليهم تلك الأوصاف التي حدّدتها زمرد الجارية في الرجل الذي ترضى أن تكون جارية عنده، حين تقول[85]:

وريقه خمرٌ وأنفاسه   مسكٌ وذاك الثغر كافور
أخرجه رضوان من داره   مخافة أن تُفتن الحور
يلومه الناس على تيهه   والبدر مهما تاه معذور

ومن هنا يمكن القول: إن العلاقة بين الرجال الأحرار والنساء الجواري في مجتمعات ألف ليلة وليلة ليست علاقة إنسانيّة قوامها الحبّ والوفاء، وليست نظيفة روحيّاً وأخلاقيّاً، بل هي علاقة استعباديّة شهوانيّة هدفها الأول والأخير التفريغ الجنسيّ، وسط أجواء عربيديّة ماجنة. وحتى يتمّ هذا التفريغ في أقصى لذّاته، لابدّ أن يكون الشريك مثالاً للجمال الجسديّ المتناسق، والمثير شهوانيّاً إلى أعلى درجات الإثارة.

ومن الملاحظ أنّ الجارية، في حكايات ألف ليلة وليلة، إذا كانت على قدر كبير من الحسن والجمال، فإن المزايدة عليها بين خبراء الجواري تحتدم، وتصبح صراعاً للفوز بها، وعلى الأغلب يفوز بها الرجل الأقوى في سلم السلطة السياسيّة. ففي حكاية « **علاء الدين أبي الشامات** »، يصبح علاء الدين من أقرب المقرّبين إلى الخليفة هرون الرشيد، وعند ذلك يريد **أن** يُكرمه بجارية جميلة، فيعطي وزيره جعفر البرمكيّ عشرة آلاف دينار، ويأمره بالنزول إلى سوق الجواري ليشتري له أجمل جارية يراها، فينزل الوزير جعفر وعلاء الدين إلى سوق الرقيق ببغداد، وبمصادفات ألف ليلة وليلة،

- ألف ليلة وليلة، **84/1**.
- و: « جارية بيضاء كأنّها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بحاجبين مقرونين و جفنين ناعسين، ونهدين كرمانتين، ولها شفتان رقيقتان كأنّهما اقحونتان، وفمٍ كأنّه خاتم سليمان يلعب بعقول الناظم والناثر، كما قال في الشاعر:

إن أقبلت قتلت وإن هي أدبرت   جعلت جميع الناس من عشّاقها
شمسيّة بدريّة لكنّها   ليس الجفا والصدّ من أخلاقها

- م ن، **60/3**.

(85) – م ن، **29/3**.

يحضر إلى السوق نفسه والي بغداد الأمير خالد ومعه ولده حبظلم بظاظة لكي يشتري جارية لهذا الولد. ويعاينون الجواري، ويعشق علاء الدين وحبظلم جارية بعينها من بين جميع الجواري، « ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال »[86]. ويتزايد علاء الدين وحبظلم عليها، وكلّما زاد علاء الدين في ثمنها ألف دينار زاد حبظلم ألفاً فوقها. عندها يسأل والي بغداد الدلاّل: « من الذي يزيد في ثمن الجارية »[87]، فيجيبه :« إنّ الوزير جعفر يريد أن يشتريها لعلاء الدين أبي الشامات »[88]. وعند ذلك يعرف الأمير خالد أنّ معركته خاسرة مع الوزير جعفر، لأنّه غير قادر على الدخول في سباق سيكون الخاسر فيه، ولا سيما أنّ الوزير جعفر أعلى منه طبقيّاً وسياسيّاً وماليّاً، وأنّ علاء الدين لن يتخلّى عن الجارية، لأنّه زاد في ثمنها حتى وصل إلى عشرة آلاف دينار[89].

ويبدو أنّ بعض رجال السلطة في ألف ليلة وليلة، كانوا يفرضون نوعاً من السطوة على أسواق الجواري، وعلى الدلاّلين فيها، وكانوا يأخذون أيّة جارية يرغبون فيها عنوة، ويتهرّبون من دفع ثمنها، كما تشير إليه حكاية « **علي نور الدين وأنيس الجليس** »، فعندما ينزل علي نور الدين بجاريته أنيس الجليس إلى سوق الجواري بالبصرة ليبيعها، يتقدّم الدلاّل ليفتح باب المزايدة عليها، ويُفتح الباب، ويصل ثمن الجارية إلى أربعة آلاف وخمسمائة دينار، وعند ذلك يتقدّم وزير البصرة الظالم المعين بن ساوي إلى الدلاّل، ويأمره بإيقاف المزايدة، ويقرر أنّ الجارية ستكون له. يقول الراوي[90]: « فلمّا نظر إليها [المعين بن ساوي] وتأمّل محاسنها من قامتها الرشيقة وألفاظها الرقيقة أعجبته، فقال إلى كم وصل ثمنها؟ فقال أربعة آلاف وخمسمائة دينار، فلما سمع التجار ذلك ما قدر واحد منهم أن يزيد درهماً ولا ديناراً بل تأخّروا جميعاً لما يعلمون من ظلم ذلك الوزير، ثمّ نظر الوزير المعين بن ساوي إلى الدلاّل وقال له ما سبب وقوفك؟ رُحْ والجارية عليّ بأربعة آلاف دينار، فراح الدلاّل إلى علي نور الدين وقال له: يا سيّدي راحت الجارية عليك بلا ثمن ».

وتشير بعض حكايات ألف ليلة وليلة إلى أنّ شراء الجواري لم يكن مقصوراً على أسواق الجواري، بل كانت تُباع في أمكنة أخرى من السوق. ولأنّ المال كان المحور الرئيس الذي تدور حوله علاقات التّجار وقيمهم في

---

(86) – ألف ليلة وليلة، **376/2**.

(87) – م ن، **377/2**.

(88) – م ن، **377/2**.

(89) – م ن، **377/2**.

(90) – ألف ليلة وليلة، **194/1 – 195**.

فضاءات الأسواق، فإنّه لم يكن هناك ما يمنع التّجار من أن يبيعوا الجواري، سواء في سوق الجواري، أم في سوق التّجار المركزي، أم في « **دكاكين النّخاسين** »، وبطريقة مباشرة ومن دون اللجوء إلى سمسرة الوسيطة يقوم بها الدلاّل. فقد كان البيع يتمّ أحياناً وبشكل مباشر بين النخاس وبين المشتري. ففي حكاية « نعمة ونعم » يُلاحظ أنّ الربيع بن حاتم اشترى لولده « نعمة الله » الجارية «نِعَم»، وأمّها توفيق من « **دكّة النخاسين** » بالكوفة، ومن دون أن يلجأ إلى دلاّل الجواري[91].

وتشير حكاية « **علي شار وزمرّد الجارية** » إلى أنّ علي شار اشترى زمرد من سوق التّجار بخراسان، وليس من سوق الجواري.فقد « ذهب إلى سوق التجّار فوجد حلقة إزدحام والناس مجتمعين فيها (...) ثمّ تقدّم فوجد جارية خماسيّة معتدلة القدّ مورّدة الخدّ قاعدة النهد، قد فاقت أهل زمانها في الحسن والجمال والبهاء والكمال »[92]. أمّا إذا كانت الجارية مخطوفة أو محتال عليها، فإنّ الخاطف لا يملك عقداً يُبيّن أنّها ملكٌ له، ويوضّح مكان شرائها وتاريخه، وبالتالي فهو لا يستطيع الذهاب بها إلى سوق الجواري ليبيعها، عندها يضطّر لبيعها بشكل مباشر، وبالتراضي ومن دون وسطاء، كما يظهر في حكاية « **عمر النعمان وولديه** » إذ يحتال أحد البدو الأجلاف على « نزهة الزمان » التي كانت تائهة وغريبة في القدس، ويتبعها حتى يتعرّض « لها في الطريق في مكان ضيّق »[93]، ويؤكّد لها - إن هي أتت معه - أنّها ستكون كواحدة من بناته:« فإن لم يكن لك أحد جعلتك مثل واحدة منهنّ [من بناته] وتصيرين مثل أولادي »[94] وبعد أن تطمئنّ إليه وتصدّقه يحتال عليها، ويأتي بها إلى دمشق، وينزلها في خان السلطان[95]. وهناك يشتريها أحد التجار ومن دون اللجوء إلى الوسطاء[96].

ويبدو أنّ تقاليد أسواق الجواري في المدينة الإسلاميّة كانت تسمح للمشتري بأن يتحسّس جسد الجارية التي يرغب بشرائها، أو يكشف بعضاً من جسدها إن شاء، حتى يتأكّد من أنها سليمة أو مريضة، فللنخّاسين طرقهم العديدة في الغش وإخفاء عيوب الجواري وأمراضهنّ. وتشير الحكاية السابقة إلى أنّ التاجر الذي اشترى « نزهة الزمان » في دمشق قال للبدوي البائع:«

---

(91) – م ن، **323/2**.

(92) – م ن، **26/3 – 27**.

(93) – م ن، **291/1**.

(94) – ألف ليلة وليلة، **290/1**.

(95) – م ن، **291/1 – 292**.

(96) – م ن، **294/1**.

عن إذنك أكشف عن وجهها وأقلّبها كما يقلّب الناس الجواري لأجل الشراء، فقال له البدوي دونك وما تريد، الله يحفظ شبابك، فقلّبها ظاهراً وباطناً، وإن شئت فعرّها من الثياب ثمّ انظرها وهي عريانة »[97].

وتكشف الأدبيات التاريخيّة عن أساليب التحايل التي يلجأ إليها النخّاسون، حين يقدّمون الجواري إلى السوق، وقد ظهرن بأبهى زينتهنّ، مخفين بذلك عيوبهنّ عن عيون الدلاّلين، والولعين بامتلاك الجواري من الرجال. فقد كان النّخاسون الخبراء بتجميل الجواري يتّخذون معجوناً لتجميل الوجه، وينقعونه في ماء البطيخ ستة أيام ثمّ في لبن حليب سبعة أيام، ويُحرّك اللبن في كل يوم ويغمرون به وجه السوداء اللون فتعود بيضاء. وكانوا يدخلون السمراء في مغطس وقد وُضِع فيه ماء الكَرَوْيَا[98] حتى تلوّن، وكانت الجارية تقيم فيه أربع ساعات، فتخرج عنه وقد صارت ذهبية. وكانوا يُحمّرون خدود الجواري بمسحوق مكوّن من دقيق الكرسنة وعروق الزعفران وورق الحنّاء، ويسوّدون الشّعر بدهن الآس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق، ويُجعّدونه بالسدر والآس، ويسمّنون الأعضاء الهزيلة بالدّلك بالمناديل الخشنة والأدهان الحارة، وينعّمون الأطراف الخشنة بالدّهن والشّمع واللّوز المرّ وماء الورد ودهن البنفسج، ويغمرون النّمش والوشم بمعجون للتجميل مصنوع من عروق القصب واللوز المرّ والكرسنة وحبّ البطيخ معجوناً بالعسل[99].

وتشير حكايات ألف ليلة وليلة إلى أنّ هناك طريقة أخرى لبيع الجواري؛ يتجاوز فيها التّجار علاقات السوق التجارية، والوسطاء، ويذهبون مباشرةً إلى دار السلطان أو الوالي ليقدّموا له الجواري المتميّزات جماليّاً ومعرفيّاً. ولعلّ هذه الطريقة قد تكون أفضل الطّرق التي تحقّق للتاجر مكاسب عديدة أهمّها أن يقدّر له السلطان موقفه هذا، ويقرّبه إليه، ثمّ يغدق عليه الهبات في ما بعد. يقول البدوي للتاجر الذي اشترى منه نزهة الزمان: « إن شئت فاطلع بها إلى السلطان(...) فإنّك إذا أوصلتها إلى الملك شركان بن الملك عمر النعمان (...) وربّما تروق في نظره فيعطيك ثمنها ويكثر لك

---

(97) – م ن، **1/294 – 295**.

(98) – الكَرَوْيا: بزر نبات، وقوته أقرب من الأنسيون (اليانسون).

– معلوف، لويس: المنجد في اللغة، منشورات اسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية و العشرون، **1** كانون الثاني **1973**م. ص**683**.

(99) – المالقي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي: في آداب الحسبة، تحقيق: د. حسن الزين، مؤسسة دار الفكر الحديث، بيروت، طبعة **1407**هـ/**1987**م، ص**65-66-67**.

الرّبح فيها، فقال له التاجر وأنا لي عند السلطان حاجة وهو أن يكتب إلى والده عمر النعمان بالتّوصية عليّ »[100].

وكانت بعض الجواري اللواتي يَفُقن غيرهنّ علماً وأدباً وجمالاً يُفضِّلن أن يُبعن إلى السلطان مباشرة بدلاً من الذهاب إلى سوق الجواري. فها هي الجارية تودّد تقترح على سيّدها أبى الحسن الذي هزمته الأيام ، و« نَفِد جميع ماله وتبيّن سوء حاله، ولم يبق معه غير هذه الجارية »[101]، لأنّه « لازم أكل الدجاج وفضّ ختام الزجاج وقهقهة الجواري واستماع الأغاني»[102]، أن يذهب بها إلى الخليفة هرون الرشيد علّه يدفع بها ثمناً عالياً،فـ « قالت لسيّدها: يا سيّدي احملني إلى هارون الرشيد واطلب ثمني منه عشرة آلاف دينار، فإن استغلاني فقل له يا أمير المؤمنين وصيفتي تساوي أكثر من ذلك، فاختبرها يعظم قدرها في عينك لأنّ هذه الجارية ليس لها نظير ولا تصلح إلاّ لمثلك »[103]. ولأنّ الخليفة الرشيد، كما تصوّره الليالي، كان ذوّاقاً للعلوم والمعارف، وعاشقاً للنساء الجميلات، فقد فاجأ راوي الحكاية القارئ في آخرها بأن جعل الخليفة يدفع لمولاها مائة ألف دينار[104].

لقد انتشرت تجارة الجواري في معظم مدن ألف ليلة وليلة، وقد درّت هذه التجارة على أصحابها ربحاً وفيراً. فإذا كانت بغداد هي المدينة الأولى في الليالي التي تجتمع في سوق رقيقها الجواري القادمات من أنحاء الدولة الإسلاميّة، وغير الإسلاميّة، فإنّ هناك إشارات أخرى كثيرة إلى الاتّجار بالجواري في مدن أخرى. ففي حكاية « **ا لرجل الصعيدي والمرأة الإفرنجية** »، التي تجري حوادثها أيام الحروب الصليبيّة، يشير الراوي إلى أنّ الرجل الصعيدي قدم من مصر إلى عكّا، ثمّ خرج منها عند انتهاء الهدنة بين المسلمين والصّليبيين، وتوجّه إلى دمشق، وهناك انهمك في بيع وشراء الجواري في أسواق دمشق. يقول[105]:« ثمّ خرجت وسرت حتى وصلت إلى دمشق (...) ومنّ الله سبحانه وتعالى عليّ بكسب جيّد وصرت أتّجر في جواري السبي (...) ولازمت التجارة فيهنّ ».

ويبدو أنّ دمشق كانت سوقاً مفتوحاً لجواري المعمورة أيام الحروب الصليبيّة في بلاد الشام، فمع استمرار المعارك بين المسلمين والصليبيين «

---

(100) – ألف ليلة وليلة، **293/1**.

(101) – م ن، **231/3**.

(102) –م ن، **230/3**.

(103) – م ن، **232/3**.

(104) – م ن، **269/3**.

(105) – م ن، **433/4**.

كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين. وكان بعضهم يتحوّل إلى رقيق يُباع في أسواق النخاسة، على حين يبقى البعض الآخر من الرجال والنساء لأداء الأعمال الحقيرة وهم في حال الأسر، والراجح (...) أنّ هذه الأعداد الكبيرة من الأسرى، خصوصاً من يُباع منهم في أسواق الرقيق، كانوا يدخلون في نسيج التركيبة السكانيّة لبلاد الشام ويزيدونها تنوّعاً و ثراءً »[106].

إذا كانت تجارة الجواري في مدن ألف ليلة وليلة قد أسهمت في الترفيه عن طبقة السلطة، والطبقات الثريّة في المجتمع، وقدّمت لأفرادها أجمل نساء المعمورة، وأكثرهنّ قدرةً على إثارة الرجل السلطويّ أو الثريّ جنسيّاً، وترفيهه، وإضفاء أجواء من البهجة والمسرّات على فضاء قصوره، بفعل أصواتهنّ العذبة، وقدراتهنّ المتميزة على المنادمة ورواية الحكايات والأشعار، فإنّ هذه التجارة أسهمت في الوقت نفسه في زيادة فقر الطبقات المستضعَفة، وزيادة مأساتها الإنسانيّة، وبالتالي زيادة حرمانها من متطلبات العيش الكريم وضروريّاته. فبدلاً من أن تكون أموال بيت المال في مدن ألف ليلة وليلة قادرة على سدّ حاجات الفقراء والمحرومين فإنّها سُخِّرت لإشباع نزوات السلطان وملذّاته، وشراء أكبر عدد من الجواري المتميزات له ليرفّهنه، وليجعلنه ينسى ما يعانيه مواطنو دولته من فاقة وحرمان والأمثلة على ذلك كثيرة جداً: فالحجّاج بن يوسف الثّقفي يبدد أموال بيت المال في الكوفة ليشتري بها جارية بعشرة آلاف دينار، ويرسلها إلى سيده الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق[107]، والملك عمر النعمان يهدر خراج دمشق كله، ويشتري به خمس جوارٍ روميّات كانت قد استقدمتهنّ العجوز شواهي من بلاد الروم[108]، والخليفة هرون الرشيد يشتري جارية بمائة ألف دينار[109]، ويغدق على جواريه الحظايا أموالاً وهدايا وجواهر تساوي ملك السلطان[110]، وابنه الخليفة عبد الله المأمون يبدّد من بيت مال المسلمين في بغداد ستين ألف دينار على ست جوار في غاية الحسن والجمال[111]، وأخوه محمد الأمين بن زبيدة يدفع في جارية اسمها البدر الكبير، لصاحبها جعفر بن

[106] – قاسم، د. قاسم عبده: ماهيّة الحروب الصليبيّة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، « سلسلة عالم المعرفة »، العدد **149**، شوال **1410**هـ/أيار (مايو) **1990**م، ص **204**.

[107] – ألف ليلة وليلة، **211/2**.

[108] – م ن، **317/1**.

[109] – م ن، **269/3**.

[110] – م ن، **226/1**.

[111] – م ن، **81/3**.

موسى الهادي، حمولة زورقه « من الدراهم والدنانير وأصناف الجواهر واليواقيت والثياب الفاخرة والأموال الباهرة، (...) وألف بدرة وألف درّة قيمة الدرّة عشرون ألف درهم ، ولم يزل يضع فيه أصناف التحف حتى استغاث الملاّحون وقالوا: مايقدر الزورق أن يحمل شيئاً آخر»[(112)]. في حين أنّ فقراء بغداد يتضوّرون جوعاً، وفي غاية التعب والذلّ على حدّ تعبير أحد الرواة[(113)].

إنّ وجود أسواق الجواري في مدن ألف ليلة وليلة ـ على الرّغم من أهميتها في بناء كثير من الحكايات وتشعّبها، وارتحال السرد فيها إلى مدن أخرى، وتشكيل فضاءات جديدة وصولاً إلى ذروة الحكاية ـ يسهم في تأبيد عبوديّة المرأة ، وفي زيادة فساد الحكّام وابتعادهم عن هموم شعوبهم ، وفي زيادة تكريس التباين الطبقيّ ، وبالتالي في زيادة تعميق استلاب المرأة والرجل معاً، أمام استفحال سطوة الحكّام وبطرهم.

فضاء الخانات في مدن ألف ليلة وليلة

نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلاميّة في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ، وامتداد الفتح الإسلاميّ ليشمل بلداناً عديدة دانت لهذه الدولة بالإسلام أو بالجزية، فقد نشطت حركة التجارة واتسعت « في القرن العاشر الميلادي حتى غدت في طليعة التجارة العالميّة. وسفنها تقطع البحار، وقوافلها تسير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، مروراً بأفريقية وآسيا الوسطى»[(113)]. وكان على القوافل التجاريّة أن تحمل مختلف أنواع السلع قاطعة هذه المسافات البعيدة في طرق بريّة أحياناً، وصحراويّة أحياناً أخرى، وهذا ما دعا إلى قيام محطّات يستريح فيها التجار، وقوافلهم التي تحمل بضائعهم. فعلى سبيل المثال كانت القوافل التّجاريّة العبّاسيّة تضمّ بين خمسة أو ستة

---

(112) ــ ألف ليلة وليلة، **172/3**.

(113) ــ م ن، **397/3**.

(113) ــ الخازن، د. وليم: الحضارة العبّاسيّة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية **1992**م.ص**81**.

آلاف جمل[114]. وقد اصطُلِح على تسمية هذه المحطّات في الدولـة الإسلاميّة بالخانات[115].

وكان يقوم مقام هذه الخانات، في بعض الطرق التجاريّة الكثيرة التي انتشرت في الدولة الإسلاميّة، أماكن واسعة يستريح فيها المسافرون والتّجار، ولها وظيفة الخانات نفسها، وهي الرباطات. وقد اقتضى ازدهار التجارة إلى اهتمام العرب بـ«حراسة الطرق، وإقامة أماكن أو رباطات لاستراحة المسافرين، وتيسير الماء لهم. وكانت هذه الأماكن تنشأ خصوصاً، على الطرق الصحراوية، ويسكنها في الغالب زهّاد ورعون يهتمّون بدواب النازل وطعامه. وفي بلاد فارس كانوا يربّون البقر حول محطّات المسافرين لكي يستطيعوا القيام بضيافتهم. وفي مناطق النصارى، كانت الأديرة تقدم للمسافرين ما يحتاجون إليه، مثل دير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات، ودير باعربا إلى شماله »[116].

إن الخان في المدينة العربيّة الإسلاميّة يشكّل فضاءً آمناً للغرباء الذين يفتقدون إلى علاقات القربى والصداقة في المدن التي يصلون إليها، إنّه يؤدي وظائف الفندق في أيامنا هذه، بل هو يفوقه، كونه مستودعاً للأمانات من بضائع التجار وأموالهم، ولأنّه يتّصل بملحق تنام فيه الحمير والبغال والجمال والخيول، وهي وسائط السفر الرئيسة في مدن ألف ليلة وليلة. وهو في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة يؤدّي وظيفة الفندق نفسها. يقول أحد الشخصيّات[117]: « إنّي دخلت هذه المدينة في هذه الليلة ونزلت في خان (...) فنمت فيه ».

ويصبح الخان في موضع آخر مكاناً لتخزين البضائع والأقمشة، ووضعها أمانة عند صاحب الخان، ليستردّها في ما بعد[118]. و في حكاية « **الملك عمر النعمان وولديه** »، يصبح فضاءً للاستراحة و النوم بعد عناء السفر الطويل، فها هو البدوي الذي خطف (نزهة الزمان) من القدس، يأتي بها إلى دمشق. وفي دمشق يُنزلها في خان السلطان لتستريح، تمهيداً لبيعها في هذه المدينة[119]. ويُصبح في الحكاية نفسها مأوى للغريبين الضائعين:

---

(114) – م ن، ص **78**.

(115) – الخان: أصل هذه اللفظة فارسيّة، وهي تعني محل نزل المسافر، أمّا عند الأتراك فهي تعني لقب السلطان.

– معلوف، لويس: المنجد في اللغة، مادة: خان، ص **201**.

(116) – الخازن، د. وليم: الحضارة العبّاسيّة، ص **96**.

(117) – ألف ليلة وليلة، **113/3**.

(118) – م ن، **176/3**.

(119) – م ن، **292/1**.

ضوء المكان وأخته نزهة الزمان، فبعد أن يصلا إلى مدينة بيت المقدس يشتدّ المرض على ضوء المكان، فيكتريا حجرة في أحد خانات بيت المقدس[120].

لقد امتلأت مدن ألف ليلة و ليلة بالخانات التجاريّة التي تؤدّي وظائف عديدة لأبناء هذه المدن، وكانت هذه الخانات كبيرة، بحيث كانت تستطيع استضافة التجار وخيولهم، وكان ينزل فيها الأمراء و الوزراء وكبار القوم، والتجار والمسافرون من عامّة الشعب. وها هو الوزير نور الدين وزير مصر، يسافر قاصداً البصرة، وعندما يصل حلب ينزل في خانٍ من خاناتها، وينام فيه ثلاثة أيام حتى يستريح[121]، وعندما يصل إلى البصرة ينزل في الخان، ويستقبله بوّاب الخان، ويأخذ بغلته إلى ملحق الخان الخاصّ بالدوابّ[122].

ويبدو أنّ الخان في بعض مدن ألف ليلة وليلة كان يتوسّط المدينة، فالوزير السابق نور الدين نزل في خان مجاور لقصر وزير البصرة، بحيث استطاع وزير البصرة، أن يشاهد بغلته من نافذة قصره[123].

وعلى الرغم من أهميّة الخان في مدن ألف ليلة وليلة، إلاّ أنّه يُلاحظ أنّ رواة الليالي لا يولونه الأهميّة التي يستحقّها، ولذا فقد مرّوا عليه مروراً سريعاً من دون أن يتعمّقوا في وصف بنيته الداخليّة، أو وصف العلاقات الإنسانيّة فيه، أو وصف الطريقة التي تتمّ من خلالها معاملة الغرباء و التجار النازلين فيه، أو الإشارة إلى علاقته بالسلطة السياسيّة، أو خضوعه لرقابة هذه السلطة أو استقلاله عنها، فهذه أمور لم يقترب من وصفها الرواة.

ومن خلال قراءة حكايات ألف ليلة و ليلة يُلاحظ أنّ الخان لا يبدو فضاءً مهمّاً لنمو الحكاية و تشعّب أحداثها، وحركة أبطالها. إنّه محطّة ثانويّة لا ترقى إلى مستوى فضاءات أسواق التجار والجواري التي مرّ ذكرها سابقاً.

---

(120) – م ن، **283/1**.

(121) – م ن، **96/1**.

(122) – م ن، **96/1**.

(123) – م ن، **96/1**.

المصادر والمراجع

(1) - مؤلف مجهول: ألف ليلة و ليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، أربعة مجلدات ..

(2) – (ابن بطوطة) , محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي،704 - 779هـ /1304 - 1377م: تحفة النظّار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر/دار بيروت، بيروت، طبعة 1384هـ/1964م.

3) –التوحيدي، أبو حيان (328 - 387 هـ) : الإمتناع و المؤانسة، صححه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني.

(4) – الخازن، د. وليم: الحضارة العبّاسيّة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية 1992م.

(5) – خليل، د. خليل أحمد: المرأة العربيّة وقضايا التغيير، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، شباط 1982م.

(7) – ضيف، د. شوقي: العصر العبّاسيّ الأول، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

(8) –: فرويد، سيجمند: ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة د. إسحق رمزي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية 1966م.

(9) – قاسم، د. قاسم عبده: ماهيّة الحروب الصليبيّة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، « سلسلة عالم المعرفة »، العدد 149، شوال 1410هـ/أيار (مايو) 1990م.

(10) – عثمان، د. شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، « سلسلة عالم المعرفة »، العدد151، ذو الحجّة 1410هـ/تموز (يوليو)، 1990م.

(11) – لاندو، روم: الإسلام والعرب، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول 1977م.

- معلوف، لويس: المنجد في اللغة، منشورات اسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية و العشرون، 1 كانون الثاني 1973م.

(12) – المالقي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي: في آداب الحسبة، تحقيق: د. حسن الزين، مؤسسة دار الفكر الحديث، بيروت، طبعة 1407هـ/1987م.

دراسات فكرية اجتماعية

المركز والهامش والحقيقة:

من شرعية وجود الأنا إلى شرعية ممارسة التهميش

المركز والهامش والحقيقة:
من شرعية وجود الأنا إلى شرعية ممارسة التهميش

د/أحمد مداس قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات جامعة بسكرة-الجزائر

الملخص:
يتحدث المقال عن قواعد الضبط الاجتماعي التي تكسب الشرعية في قبول الممارسات ورفضها وبالتالي تهميش المخالف منها لقيامه مقام المحظور في مجتمع أو ثقافة أو حضارة ما، وفي الموضوع حديث عن تنوع السلطات المتعلقة بالشرعية، ومستويات اشتغال المركز والهامش على خلفية الصراع الذي يطبع العلاقات بين القطبين (المركز/ الهامش) أو على خلفية التكامل الذي يشغل حيزا من المعرفة العامة حيث يتكاتف القطبان لصناعة كلّ متماسك. ومع كل ذلك تتعين ميادين التهميش في حياة البشر.

الكلمات المفاتيح: الصراع، المركز، الهامش، الإيديولوجيا، المرجعيات، التكامل، التصادم

Résumé :

Cet article a pour objet les règles sociales qui organisent les mécanismes de la société et donnent la légitimité aux actes dans le but de les accepter ou de les refuser dans une société, une culture ou une civilisation donnée. On parle aussi de la diversité des autorités et les niveaux d'application du centre/ périphérie à base de lutte qui marque les relations entre les deux pôles ou à base de complémentarité qui constitue une large superficie de la connaissance générale là ou on constate la convergence des deux pôles pour construire un tout cohérent et homogène. De ce fait, on peut désigner les domaines de toute marginalisation dans la vie humaine.

Mots clés : lutte , centre, périphérie, idéologie , références , complémentarité, confrontation .

مقدمة:

إن المجتمعات البشرية نوعان؛ الأول منهما دينامي كثير التغير والحراك، والثاني ثابت ستاتيكي قليل التغير والتحول، وإن كانت طبيعة المجتمعات تقتضيهما للمرور من البساطة إلى التركيب بحثا عن التطور بما يفتح سجل الصراع الطبقي والسلام الاجتماعي بوصف الأخير مطلبا شرعيا لكل مجموعة بشرية.

يُرجَى من كل تغير أو حراك أن يكون تلقائيا بما يفترض وجود الحراك المُخطَّط له، وارتقائيا من حيث الهدف والحركة، وجذريا مع افتراض التغير الجزئي الذي يعاكس الكليانية، وأن لا يكون رجعيا وإن كان ممكن الوقوع. ويسري –التغير الاجتماعي- على مجموعة من العوامل طبيعية وسكانية وأيديولوجية وثقافية واقتصادية وسياسية وتكنولوجية.

إن ما يسترعي اهتمامنا داخل هذا المناخ يتعلق فعل التغيير والتحول في الحياة الاجتماعية بالظاهرة الأدبية المواكبة له عبر العصور؛ إذ يستند الأدب في كل عصر إلى إيديولوجيا تمكنه من تحقيق ذاته، ويمكنها من فرض سيطرتها على المجتمع وأفراده بتحويل أفكارهم إليها وتصحيحها وتزكية ما وافقها منها، كما يتبنى صراع المخالفين والمعارضين بغية إظهار فساد آرائهم وتوجهاتهم؛ فيخرج الموضوع إلى التهميش المتعمد بتقليل الشأن أو بالمصادرة حتى تستقيم دعائم الإيديولوجيا التي تتصدر السلطة وتقودها، كونها شكلا من أشكال المعرفة، التي تسهم في تحولات اجتماعية، وتسعى إلى إثبات صحة التوجه الذي تحمله بدل القائم من السلطات التي لم تعد تستجيب لتطلعات مجتمع ما.

وعليه؛ فلا يخلو عصر من الصراع بين الأفكار والرؤى بين أطراف المجتمع الواحد، ولا بدَّ أن يُظهر تلازما ثم تبادلا للأدوار بالتحول إلى صورة النقيض القائمة زمن الصراع؛ فالطبقات الارستقراطية صارعت زمنا طويلا الطبقات الوسطى والعاملة حتى لا تتحول السلطة إليها ويتم تغيير نظم الحكم، وتبديل السياسات القائمة التي تخدم مصالح بذاتها لا تتغير لغيرها.

وقد ثبت تاريخيا أن التلازم ينتهي بتحول، فينتهي معه المركز ليحل محله الهامش، أو لا يصل الهامش أصلا إلى الصدارة ليتبوأ المركز مكانته. غير أن الحقيقة تثبت أن اليقين دوما يشكل مركزا في مقابل الشك الذي لا يعدو أن يكون مصدرا من مصادر شيوع وجود ما، ولذا لا يثبت إلا إذا كان أصيلا في نفسه ويقوم على يقين ثابت، حينها يتعين اليقين فيه، فإن كان سائدا على أساس اليقين فهو الهيئة المخادعة، وإن لم يكن الوضع كذلك؛ فإن الهامش يصارع حقيقة اليقين في مركزها.

- ما طبيعة السلطة التي تضفي الشرعية على الممارسات العامة في كل مجال أدبي؟
- كيف يمكن تحويل الشرعية إلى ممارسة التهميش في صراع المركز والهامش؟
- وكيف يشتغل القطبان في ظل صراعهما؟

1- الشرعية وقواعد الضبط الاجتماعي:

والحقيقة التي يستند إليها علماء الاجتماع في هذا المقام ما يصطلحون عليه بطرق الضبط الممارسة في المجتمعات البشرية من حيث هي رسمية وغير رسمية[1]، وجميعها يدخل في باب تعيين المركز، ويبقى ما عداه هامشا تجري عليها قواعد وسنن الصراع وتبادل الأدوار بالتحول. وإن كان لا بد من تعيينها بحسب الأهمية في حياة الناس وبنيات المجتمع؛ فهي كالآتي:

- الدين: بوصفه سمة طبيعية متجذرة في الإنسان الذي يرنو لأن يكون منزها متبعا قبسا نورانيا مؤسسا على صفاء الروح وسلامة السريرة والسماحة الدينية[2]. ويتبعه بالضرورة نمط التربية التي نشأ عليها أفراد المجتمع، والأدب العام، والشعائر المتبعة، والمثل العليا، التي تفرض على المجتمع قيودا يلتزم بها أكثر أفراده بغية التجانس والتماثل، وبعدا عن عوامل الفرقة والتشرد التي يسعى المجتمع دوما إلى التخلص منها. كما يتبعه أيضا العرف الاجتماعي والثقافة المكتسبة، والقيم الاجتماعية المتزنة بحسب اعتقاد أفراد المجتمع الواحد، بل ويتبعه حتى الفن بوصفه حاملا لقيم نبيلة تتأسس على التطهير والتنزيه والسلامة الفكرية والاعتقادية.
- القانون: بوصفه منظما للعلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، ومنظما للعلاقات بين المجتمعات المتعددة وبين أفرادها في تعاملاتهم التي تتطلب نوعا من الصرامة وحفظ الحقوق وتعيين الواجبات.

ومن قواعد الضبط ما يصطلح عليه بالقواعد غير الرسمية[3]، ومنها الرأي العام والدعاية والشائعات، ولعل أهمها على الإطلاق:

- الإعلام: بوصفه سلطة تتأسس على مراقبة المجتمع وأفراده بهدف التكاتف مع السلطات التنفيذية والتشريعية والقانونية، فتصنع بذلك نمطا من السلوكات يتحول مع الزمن إلى سنن وأعراف اجتماعية تحفظ أسس المجتمع من كل صنوف التصدع، فتشكل مركزا ثابتا له، وتعين الهامش في صور المخالفات الدينية والاجتماعية والقانونية وما تعارف عليه الناس من جيد السير والأفعال.

وعليه؛ تتقيد سلوكات الأفراد والمجتمعات بأنساق سياسية وقانونية وأخلاقية وجمالية ودينية وفلسفية[4]في شكل آراء وأفكار وقواعد تكوّن معرفةً مُلزِمةً لظهورها في مظهر المجال المعرفي لفهم نسق فكري ما[5]، وهو ما يسمى بالإيديولوجيا حيث تكتسب منها شرعية التداول وأحقية الوجود وسلطة التميز [6].

وفي المسألة فهم لحقيقة وجود معيّن بدلالة علاماتية كون الإيديولوجيا تحيينا للقيم وفق وقائع منظمة وخاصة[7]، لتتحقق –هذه القيم- باستعمال السلطة داخل المجتمع[8] وتكتسب الشرعية على كل المستويات، كما تتوقف عندها الاجتهادات وصور الاستدلال المنطقي لصلاحية ظاهرة أو أداء أو اختيار ما. والأمر خاضع للوعي الاجتماعي المتفق عليه مطلقا أو المتفق عليه جزئيا بحيث يمثل النسبة العليا داخل بنية المجتمع الواحد، وهذا الوعي في حقيقته ليس إلا النظم السياسية والقانونية والفكرية والجمالية والاقتصادية[9] التي سبق تسميتها بقواعد الضبط الاجتماعي. وفي جميع الأحوال هي جملة البنى الفوقية على رأي الماركسيين الذين يرون الإيديولوجيا في بعض مداراتها انعكاسا مقلوبا ومشوها للواقع معارضة بذلك الوعي الحقيقي للإنسان[10] على الرغم من أن الفكر الماركسي إيديولوجيا يدعو ويبشر بالواقع الجديد الذي يتخطى كل أشكال الاستغلال ومساوئ الرأسمالية، ولعله السبب الذي يجعل منها مخالفة لكل إيديولوجيا كما رآها الماركسيون. لقد تحدث لوسيان غولدمان عن رؤية العالم وجعل منها مكافئا للوعي الجماعي(conscience collective) الذي قد يعادل الإيديولوجيا[11] ولا يقف عائقا أمام هذه الفرضية غير تضارب الوعي الفردي مع الوعي الجماعي وذلك لنسبية العلاقة بين الفرد والمجتمع[12]. وهو ما يشكل أزمة[13] لارتباط كل تحرر سياسي واقتصادي بالتحرر الفكري، الذي يحسن التعامل والتفاوض مع التبعية الثقافية[14] ويفصل بوضوح بين الأصالة والاستلاب[15] للوصول إلى النموذج الثقافي القائم على المجتمع المدني[16] الذي يجمع بين الممارسة والفكر على عكس ما كان وما يزال سائدا في المجتمعات العربية[17].

وعلى ذلك تتنوع السلطات، وترتبط بالحقيقة من وجهة نظرها الخاصة معينةً مركزا حوله جملة هوامش على اختلاف طبيعتها وما تقدمه من الحقائق المُدرَكة، ومن هذه السلطات:

1- السلطة الحضارية القائمة وما تفرضه من طقوس واعتقادات، وما تتطلبه من ممارسات تتعلق بها.
2- السلطة الثقافية المتميزة والسامية وعدم وجود ما يقابلها أو يعادلها أو يقوم مقامها في الهامش.

3- السلطة العلمية التكنولوجية الفارقة التي تتعدى كل السلطات بما في ذلك السلطة الفلسفية والفكرية والدينية الموروثة. والسلطة التكنولوجية الحالية تستند إلى فلسفة وفكر راقيين، ولكنها حادثة تساير هذا التطور وهي الناشئة بعده.
4- سلطة الحوادث التاريخية والتجارب العامة والناجحة.
5- سلطة المبادئ الثورية.
6- سلطة المبادئ الاجتماعية والسياسية المتفق عليها كالعلمانية والبرلمانية والديمقراطية والجمهورية والملكية واللائكية وكل اختيار عام.
7- سلطة الدين والأخلاق والعرف الاجتماعي.
8- سلطة العقل والمعرفة[18] التي يدّعي كل طرف انتماء فكره إليها، ويبرر ذلك بكل الوسائل الممكنة، مع الحكم على غيرها بالضعف والتعسف وسوء التقدير، بما يترتب عنه إن إدراك الحقيقة في الهامش تتطلب قيام الفكر المخالف الذي لا بد أن يتبوأ المركز لتظهر حقيقته.

إن الحقيقة كوجهة نظر من أجل الحكم على المظاهر العامة للوجود البشري معطلة تماما من جهة الهامش أو معطلة جزئيا لعدم بلورتها أو تبلورها في الوجود العيني البشري[19]. ومهما كان السند وكانت قوته الإقناعية؛ فإنه يحتاج إلى التمركز أولا ليكتسب المكانة التي تؤهله للاعتراف به. لذلك سعت كثير من الحركات إلى العنف بهدف قلب الأوضاع، وهي السبيل التي باتت معطلة أو شبه معطلة بموجب الشرعية المنظمة للعلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، والتي ينبغي أن ينسجم معها البشر في توجهاتهم العامة، لأن الشرعية تمر وفق قنوات معلومة لتحظى بالقبول والتأييد، وتترتب عليها بالضرورة علاقات ومصالح استراتيجية وإيديولوجية. وعلى ذلك يتعين وسطان؛ الأول منهما وسط يكون فيه الحكم على الممارسات مقبولا ومحترما، ووسط يحكم فيه عليها بالرفض والاشمئزاز، وفي الأول نصرة معلنة للفكر المضطَهد، ليكون الثاني فارضا لممارسات مستهجنة حسب حقائق الوسط الأول[20].

ترتبط الحقيقة بالمركز والهامش معا من وجهة نظر كل طائفة، سواء عدّت نفسها مركزا أم هامشا، والكل تتحكم فيه إيديولوجيا يتحرك بموجبها، ويسعى لبلورتها، وإظهارها في صورة التوجه الحكيم الذي يستند إلى شرعية ما، هي عينها شرعية مرفوضة عند الطرف الآخر، أو هي شرعية أسيء فهمها وتقديرها فوُضعت في غير محلها، بما يمنع التكامل ويلهب التصادم؛ ذلك أن التوجهات تتخذ صورتين، أولاهما إيديولوجية تتعلق

بالمجموعات القيادية التي ترنو إلى قيادة المجتمع، والثانية طوباوية ترنو إلى تحطيم الأوضاع القائمة جزئيا أو كليا[21] ويسري على الكل منطق الاختيار والصراع أو التزكية، لأن الفكر الطوباوي يعادل إيديولوجيا مضادة[22] (anti-ideologies) . وعلى هذا تتأسس بنية الهامش في مقابل المركز على جملة الثنائيات:

- ايديولوجيا تحمل رؤية وغاية، وحقيقة تتعين مع الزمن والصراع.
- صراع متلازم وأقطاب هما المركز والهامش.

والكل يتعيَّن من النسق السياسي الذي يخفي مصالح ذاتية خلف الممارسات المعلنة، أو من الرؤية الكونية بالعودة إلى التاريخ واستخلاص التشابهات والاختلافات، أو من النسق الابستمولوجي الذي مجاله نظرية المعرفة[23].

2- حقيقة اشتغال المركز والهامش:

يشتغل المركز والهامش وفق علاقات الصراع في الثقافتين الغربية والعربية،كما يشتغل وفق علاقات التكامل كما سيأتي بنمطية الخلفيات المحركة بوصفها دوافع، والممارسات الحسية بوصفها نتائج.

1.2- علاقات التكامل:

يبدو والله أعلم أن مسألة اشتغال المركز والهامش في المعرفة العامة للمجتمع البشري تقوم على التكامل والصراع. فأما حديث التكامل بين المركز والهامش فيبدأ من حيث حاجة كل منهما للآخر، كحال المتن والحواشي؛ فقد جاء في لسان العرب أن (المتن من كل شيء: ما صلب ظهره، والجمع متون ومتان... ومتن كل شيء: ما ظهر منه... والمتن: ما ارتفع من الأرض واستوى... والمتن والمتان: ما بين كل عمودين... ومتن الرمح والسهم: وسطهما...ووتر متين: شديد. وشيء متين: صلب...ويقال: ماتن فلان فلانا إذا عارضه في جدل أو خصومة... والله أعلم) [24] وذكر معاني أخرى. في هذا المد المعجمي يتعين المتن مركزا يقابل الحاشية وهي جانب الثوب أو غيره بما يعادل الإيضاح والشرح. والحَاشِيةُ من كلِّ شيءٍ: جانبُه وطرفُه. ومن الإبل: صغارُها التي لا كبار فيها. والأَهْلُ والخاصّة، يقال هؤلاء حاشيته. وما علّق على الكتاب من زيادات وإِيضاح. والجمع: حواشٍ. ويقال: عيشٌ رقيقُ الحواشي: ناعمٌ في دعة، وكلامٌ رقيق الحواشي: ليّنٌ. ورجلٌ رقيق الحواشي: لطيفُ الصحبة[25]. وعلى هذا تكون الحواشي استدراكا وزيادات على المتون، كما تكون تنقيحا وتصحيحا لما ورد فيها، وتفصيلا لما غمض وبَهُم منها. ومن

ذلك كل الحواشي التي وشحت الكتب كحاشية الصبان وحاشية الأشموني في مجالهما.

ومنه تقابل الكتابة النثرية بالكتابة الشعرية في العصور المتأخرة على خلفية الشعر والنثر في العصر الجاهلي وما تلته من عصور؛ فقد مثل الشعر مركزا تعينت معه كل حدود الإبداع اللغوي البشري(26)، وظل النثر على ما فيه من جماليات تعبيرية هامشا مقدما على مختلف أشكال الكلام الأخرى، ولكنه أدنى مرتبةً من الشعر، وأقل منه شأنا، وكان قد اتصل بالموضوع المشافهة والتدوين، وللأولى الحظوة على الثانية قبل الإسلام لقلة الكاتبين والعارفين بفنونها، وبعد الإسلام لغاية دينية، ومخالفة منهجية بين تدوين القرآن وترك تدوين غيره من حديث وشعر. وتطور العمل بثقافة الرواية عندنا، ووضعوا لها قواعد وقوانين تعدت ضبط الفؤاد إلى ضبط الكتاب، وجعلوا الأولى علامة للعلم والوثوق والتميز كما هو حال علم الحديث.

ومنه أشكال التعبير المختلفة التي تعيّن الموضوعات والمسائل التي تشكل قضايا جوهرية في حياة المجتمع لأجلها تتشكل البناءات الفنية المتنوعة، فظهر إلى جانب الشعر النثر عموما، ممثلا في المقامات ثم في فنون الرواية والقص والأخبار والتاريخ، على أنها –كما ذكرنا- أشكال مختلفة متنوعة، وكل منها مركز يعضده الباقي على أساس كونه هامشا، فيكون التكامل قائما، ما قام بين تلك الأشكال الأدبية منظارا مشتركا لذات المقاصد والأهداف والقضايا الاجتماعية التي تعالجها.

ومنه أيضا التصادم رجل/امرأة في المجتمع العربي على غرار ما حدث ولا زال يحدث في بعض البلاد الغربية، وانتقال الشعور من اختلاف التنوع إلى الاختلاف الجنسي والدونية(27). ووصل الصراع حدّ التقنين للعلاقات الدولية، وعرف العالم ما يطلق عليه بالنظرية النسوية مع ظهور مقال: (المرأة والعلاقات الدولية) عام 1988 في أزمة التنظير لموضوع العلاقات الدولية. وعليه؛ طرحت مسألة المساواة مع الرجل في كل شيء، كما طرحت مسألة الحرية الفردية ومصادرة الرأي والحقوق الدستورية، ومسألة الاضطهاد والاستغلال والطبقية في اتخاذ القرار بل وحتى مسألة العبودية، فتشعبت بذلك الاتجاهات النسوية من نسوية ليبرالية إلى نسوية اشتراكية ماركسية معلنةً خلافا جوهريا إيديولوجيا، في العلاقات الدولية، ولم يتفق المدّ النسوي إلا على تأكيد (تهميش دور المرأة في السياسة العالمية)(28) وناقشت بذلك كل النظريات السابقة لبيان مدى إشراك المرأة أو إبعادها من

السياسة الدولية. وعلى خلفية هذا الصراع يأتي تقابل الأدب النسوي والأدب الذكوري، وتعين بين الأدبين خلاف النسبة، وبذل كل طرف جهده في التمييز والتقديم لكل منهما، حتى وصل الأمر حدّ التصادم لعدم اعتراف الأدب الذكوري بما هو أنثوي، ليكون النضال قائما على أساس أن يُعطى للمرأة حقها الطبيعي في ممارسة الإبداع كما هو حق الرجل. والحق في نظري أن الدرس النقدي كان قد دفع هذا الوضع وأبعده من ميادين الدراسة التي خرجت إلى مركزية النص متجاوزة المؤلف، ثم إلى مركزية القارئ متجاوزة المؤلف والنص معا، وفي ذلك تهميش واضح، ولكنه من مقتضيات الطبيعة النقدية. فبمجرد ظهور المد البنيوي تحول النقد إلى موت المؤلف، فلم يعتن لا بذكر ولا بأنثى، والعبرة بوصف الإبداع المؤسس على النص ثم على القارئ. ولنا أن نمثل لذلك بكتب النقد التي لا تحفل بجنس المؤلف بقدر ما تهتم بمضمون النصوص المقدمة.

ومنه أيضا تقابل الأدب الشعبي والأدب الفصيح على خلفية الدراسات الإيديولوجية بعد ظهور النقد المتأثر بالماركسية والشيوعية والبلوريتارية التي تمثل عموم الشعوب لا خاصة الأفراد والرؤية الارستقراطية عند الغربيين . من هنا جاءت دراسة بروب للحكايا الشعبية[29]، وربطها بالنظام الكوني الذي يسعى الاشتراكيون إلى نشره والتبشير به، ليكون صورةً يُرجى لها أن تشيع. إن الفكرة ببساطة لا تتعدى اختلاف التنوع بوصفه طبيعة بشرية متعلقة بالطبقات الاجتماعية-تركيزا على نتاج السواد الأعظم من البشر-، على الرغم من اختلاف التضاد الذي تغذيه الإيديولوجيا المضادة للفكر الرأسمالي، وما أكثر الدراسات السيميائية التي قامت على الأدب الشعبي[30]مع النقاد الروس ومن وافقهم في توجهاتهم، ووصل الموضوع حدّ تحديد الأدب الشعبي والثقافة الشعبية مقاييس تأخذ حيزا في التكوين العام للأكاديميين[31].

ومنه قضايا لغوية في النحو التوليدي ونحو اللغة العربية[32]؛ فالهامش موضوع للدراسة بمقابلته بغيره من المصطلحات المستخدمة، فجاء في شكل كل ما لم يتعلق بالقاعدة كالهامش الموسوم والفضلة عموما وما نزل منزلة المقتضى من الشيء. ثم يعين مفهوم الهامش في مقابل مفهوم نحو النواة[النظرية اللسانية] ومفهوم النحو الكلي ومفهوم النحو الخاص. وجاءت الخلاصة مُعينةً لأربعة اعتبارات: النحو الكلي هو المركز لكل اللغات الطبيعية، ونحو النواة هو المركز لكل لغة خاصة، والنحو الخاص هو نحو كل لغة خاصة، ويبقى الهامش جزءًا من نحو النواة[33].

ومنه أيضا قضايا الاطراد والشذوذ في اللغة العربية[34]، فالمطرد ما شاع وكثر استعماله بين الناس، والشاذ ما خالف الاستعمال والقياس. وبالنظر إلى التركيب شاذ/مطرد؛ يكون هناك المطرد في القياس والاستعمال معا، وهناك المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال، وهناك المطرد في الاستعمال الشاذ في القياس، ويبقى الشاذ في القياس والاستعمال معا. وعليه؛ يكون الاطراد مركزا والشذوذ هامشا.

ومنه أيضا إهمال العلل الجدلية في النحو كما في الفقه عند الظاهرية، وأساس المسألة أن لو كان للعلة مكان وحظوة لأجلها تُعرَف لكان الوضع قد بينها[35]، تماما كحال مسائل الفقه التي تتعلق بالتسليم والطاعة من دون تعليل ولا حاجة إليه؛ لأنها من صميم التدين والامتثال. وإن كانت عند المخالفين علما؛ فإنه يتعلق بالمعرفة العليا التي لا حاجة للمتكلم لمعرفتها. وفي ذلك وجه حق بيّن؛ فالمتكلم لا يناله ولا ينال سامعه من معرفة العلة الجدلية شيء يُنتفع به، ولكن العلماء والعلماء وحدهم لهم في ذلك قياس تتعين به الأشباه والنظائر، ويبدو في كلام الظاهرية غلق لهذا الباب أحصل منه علم أو لم يحصل، ليكون في الوضع وجه من التهميش، لا يضر استخدامه وممارسته، ولا تنتفع به إلا الخاصة عند التقعيد. ولذلك يُدرج ضمن علاقات التكامل تجاوزا وتساهلا في تركه وإتيانه.

ومن ذلك أيضا الترجمة[36] التي تطرح أمام المختصين أشكالا من المقاربات، التي يمكن لها أن تتكامل وتتكاتف وقد تتضاد دون أن تصل حدَّ التصادم، وأولها المقاربة اللسانية في شقها الأسلوبي المقارن ثم اللساني النظري فاللساني التطبيقي وفي شقها اللساني الاجتماعي وثانيها المقاربة التأويلية، والثالثة المقاربات الإيديولوجية فالمقاربة الشعرية فالمقاربة النصية فالمقاربات السيميائية والمقاربات التواصلية والمقاربات المعرفية[37] لتقع هذه المقاربات في دائرة النظرية التأويلية، ونظرية الفعل والحركة، وفي نظرية اللعب، ونظرية الأنظمة المتعددة[38] من حيث تحقيق المعنى والتكافؤ الدلالي واللساني وكذا الأمانة في النقل وتوصيل المعرفة[39].

ومن الاستخدام الجماعي لمجمل الملفوظات التي يتواصل بها أفراد المجموعات البشرية تتعين بالضرورة دلالات مركزية وأخرى هامشية لتلك الألفاظ مهما كان المجال المستخدمة فيه، وهو ما يصنع اتفاقا حول مركزية

وهوامش بذاتها يتصل بكل منها ألفاظ تتعين هامشيةً على خلفية مركزية ثابتة إلى حد بعيد.

إن(أفراد البيئة اللغوية رغم اختلافهم في تلك الدلالة الهامشية يشتركون في إحساس لطيف غامض يصعب تحديد مداه، لم يتفطن له معظم اللغويين، وهو ما نكتسبه من كثرة تجاربنا مع ألفاظنا ودلالاتها من إمكان التنبؤ بالدلالة أو جزء منها لدى سماع ألفاظ لم نسمعها من قبل ولم نتعلم شيئا عنها....)[40].

ومدار الحقيقة في ذلك ترابط الإشارة والإيحاء[41] (dénotation) (connotation)؛ ذلك أن الأمر لا يتعدى القدر المشترك من الاتفاق حول معنى لفظ يتأسس عليه المركز لقيامه على المعنى المباشر المحدد للإحالة[42]، في حين يخضع ما تعلق بالتجارب الخاصة والموروثات لسلطة الهوامش الدلالية[43] المعزولة عن معناها الأساسي[44] بوصفها إيحاءات تثير مجالات معرفية ودلالية هامشية في الذهن[45]، ليؤدي السياق دوره في تحديدها مقارنةً بالمعنى المركزي[46] على خلفية الإقناع والملء الدلالي[47] للملفوظات بالارتباط بتجارب الناس وخبراتهم بشكل جماعي وفكري وحضاري[48]، أو بشكل فردي على قدر التجربة الشخصية الخاصة[49]. وللدلالة المركزية والدلالات الهامشية صورة تكاملية على أن التصادم بينها وارد بحيث تجتمع في قراءات مركزية تعضدها أخرى هامشية على أساس التعدد والمحتمل الممكن؛ وذلك لوجود الإرادة المقصودة بين الإشارة والإيحاء بوصفهما خاصيتين ذاتيتين[50]. ونحو ذلك مجال المسكوت عنه والمنطوق به بوصفهما خاصيتين نصيتين ترتبطان بالفجوات وملئها زمن القراءة، ويتعلق الأمر بالتهميش اللاإرادي الذي يثبته القارئ ويعيد بناء المقروء على أساسه[51].

تنحو الصور السالفة إلى التصادم والتكامل معا؛ لأنها تدخل في التكوين العام للشخصية الإنسانية، ويقع العمل فيها بالإفراد كما يقع بالمزج والمزاوجة بنيَّة بلوغ قمة الأداء. كما يحدث وأن تتحول هذه المقاربات إلى صراع من مستوى أول يهمش بعضا ويمركز بعضا، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الصراع الذي سيأتي الحديث عنه، بقدر ما هو إشراك وتكامل وتكاتف لا استئثار بالمركز والأنا دون الآخر، وهو يقع موقع النقد الذاتي الذي تستقيم به الأشياء في الحياة العلمية والاجتماعية والفكرية.

وأما الصراع الخالص؛ فهو ما يسري على الفكر والإيديولوجيا والخلفيات المعرفية للأفراد والمجتمعات، ومع الكل تتعين ميادين التهميش.

2.2- علاقات الصراع والتصادم:

إن حديث التصادم والصراع يبدو من ميادين التهميش في الثقافة الإنسانية عموما، وهي المحصورة في مجالات تعيّن فيها المركز في صراعه مع الهامش، كمجال العقائد وتوابعه، والخصومات العلمية والأدبية والتوجهات الفكرية والفلسفية والإقليمية وحتى الجنسية، وهو يقع على مستويين كلاهما علوي يشكل الباعث والدافع لكل ممارسة تتعلق بالمركز والهامش:

أ- الصراع على مستوى الإيديولوجيا والمرجعيات:

في كتاب (الإيديولوجيا العربية المعاصرة)[52] لعبد الله العروي صراع اليمين واليسار وتيارات أخرى، أهمها المشروع القومي العربي في مصر والجزائر وتونس في مقابل المشروع الليبرالي، الذي تنبأ له بالصمود مستدلا بانطفاء الاشتراكية السوفياتية التي استلهم منها المشروع القومي العربي خطوطه العريضة[53]. وفيه أيضا تنبؤ واستشراف برؤية استراتيجية أخضعها للمقوم التاريخي الذي قام دليلا-الحقيقة التاريخية- على صحة القراءة التي قدمها الباحث في دراسته.

يؤكد الباحث على فكر التهميش الذي خضع له كتابه بعد صدوره لمخالفته المشروع القومي بفعل القراءة التابعة للمد النقدي المتشبع بالفكر القومي، الذي سبق تلك القراءات مما جعل من الكتاب عديم النفع، وغير قادر على التغيير في مجتمع يمارس التهميش بوسائل متنوعة[54]. ويمثل لذلك بالمقارنة بأقوال متضاربة في الفكر البشري تتأسس على انحطاط الإسلام بسبب تعلقه بالخرافات في رأي الغربيين، وكل ما فيه في الحقيقة حث على التأمل والتعقل والنظر والتسامح والأخوة، مستندا إلى فكر محمد عبده في رسالة التوحيد. وفي المقابل يعزو كثير من العرب تقدم الغرب إلى العقل والحرية، على أن الحقيقة تحمل امتحان غليليو وسجنه، وإهانة ديكارت، واضطهاد روسو، وتعذيب جوردانو برونو، وكلهم مفكرون لم ينعموا قط بالحرية التي يتطلبها الفكر العقلي. وذكر من النماذج ما أعاد إلى الفكر صنيع المتوكل بالمعتزلة على صنيعهم بالناس، وصنيع المرابطين بكتب الغزالي، وما عاناه الفارابي والرازي من حصار واتهامات على خلفية التوفيق بين الحكمة والشريعة. إن الصورة الماثلة للعيان أن الحرية والعقل لا يعيشان في مناخ بعيد عن سيادة فكر وسلطة تسيَّرانهما، والأمر يتأسس على الفهم الحقيقي للدين وللقيم التي ينبني عليها وعلى الصورة التي يتم بها فهم كل ذلك[55].

في هذا التقعيد المنهجي توضيح لصور التهميش والتبادل والتداول بين الأدوار في أحوال تتضارب وتتناقض؛ فقد بدأها بتساؤلات محمد عبده

وتخريجاته للأوضاع التي عاشها العرب والغربيين معا، ثم توجه إلى رجل السياسة وداعية التقنية، إذ تجاوزت الأوضاع الإصلاح الديني إلى نمط من السياسة الرشيدة إلى الصناعة والتكنولوجيا بوصفها مفتاح التقدم والرقي في عالم لا يؤمن إلا بذلك[56]. وفي كل ذلك بحث عن إدراك الهوية وأشكال الوعي في علاقتنا بالغرب، مما يتأسس عليه المركز الغربي في شقه الثقافي والفلسفي والصناعي التكنولوجي، بالهامش العربي في تخلفه المتعدد النواحي[57].

إن الصراع في حقيقته تداول للأدوار بين الاشتراكية العربية ممثلةً في المشروع القومي، وبين المشروع الليبرالي الذي يستند إلى القوة التاريخية والوجود الفعلي للتطور الصناعي والتكنولوجي والرقي الاجتماعي الذي يمثله الغرب.

وتناول الموضوع أيضا محمد صالح المراكشي حين سعى إلى إثبات تهميش المركز في الثقافة العربية، وذلك بتأكيد الصراع بين المركز ممثلا في العقيدة الإسلامية، وبين الهامش ممثلا في التيار العلماني على أساس بناء (نظام ثقافي جديد يشع داخله مركز جديد ومغاير تماما للمركز التقليدي)[58]، حيث بدا تيار العلمانيين العرب من الرعيل الأول والمنتمي للمسيحية [شلبي شميّل وفرح أنطون وسلامة موسى] محقرا للفكر الديني والعقائدي مطلقا، ومناديا باستبدالهما بالعلم[59] . والأصل في كل ذلك تحمسهم للمدنية الغربية وتحفزهم لترسيخ المبادئ العلمية الحديثة (يدفعهم إلى ذلك هذا التواصل المبكر مع الغرب)[60]، وقد تشبعوا بالفكر الغربي المنافي للعقيدة والتدين والمليئين بالأحقاد والفتن والتعصب[61] ومن ذلك الظلم السياسي المسلط على المثقفين المسيحيين مما أدى إلى مناداتهم بالقومية[62] الناشئة ضمن إطار طبقة العلمانيين الذين أثروا في سائر المثقفين العرب مسيحيين ومسلمين[63] .

إن الموضوع في عمومه حسب فتحي القاسمي مرتبط بعوامل تاريخية وسياسية ونفسية تمخضت عنها أهداف مست التعليم وأسهمت في بناء الحداثة العربية بتغيير الواقع العربي وإقصاء الحركات الدينية والتحول إلى السلطة المدنية اللائكية وتفعيل دور المرأة. وفي ذلك دعوة صريحة إلى تهميش الفكر العقائدي والديني على خلفية تهميشه في الثقافة الغربية يوم أن تمَّ الاستغناء عن الكنيسة والتحول من علاقة الإنسان بالله إلى علاقة الإنسان بالإنسان كما دعا إليه بعض العلمانيين المتأخرين على تفاوت بينهم كزكي محمود نجيب وحسن صعب وفؤاد زكريا وعبد الله العروي ومحمد أركون؛ فقد أضحى الفكر الديني مهمشا في الفكر الإنساني الحديث لخروجه إلى الكونية والتسامح الإنساني بدل اضطهاد العقائد للإنسان وحمله على صور قد

لا يرضاها لغيره لمجرد المخالفة الدينية[64]. وعلى هذا تحول الفكر العلماني الهامشي إلى فكر مركزي زاحم وزحزح المركز العقائدي ليصير هامشا في الثقافة والمعرفة العربيتين، وفي هذا المنطق الصورة المثلى التي يشتغل في ضوئها صراع المركز والهامش.

وتناول مسألة الصراع الإيديولوجي بمستوى آخر رشيد الإدريسي[65] في دراسته لمقامات الحريري، فكان للمانوية دور في توجيه أفعال بطل المقامات في مجملها بتغليب الخير على الشر. وفي حديثه عن حدود الإيديولوجيا المانوية في مقامات الحريري للربط بين الإيديولوجيا والتعبير الأدبي وافق رشيد الإدريسي عبد الله العروي حينما تحدث عن الهوية وأشكال الوعي في المجتمع العربي[66]، وقد عيَّن أشكال التعبير وارتباطها بالإيديولوجيا في الوطن العربي، وهي الحقيقة السارية في كل المجتمعات[67]. ويمكن للصراع أن يغذيه المد السادي أو الماسوخي، أوالزرادشتي أو غيره من التيارات الفكرية الشرقية أو الغربية.

ومن الإيديولوجيا والمرجعيات يظهر الصراع الثقافي والفكري والمعرفي وفيه حديث عن الجنس والسياسة والدين وثقافة المنع في الكتابات الأدبية والروائية منها على الخصوص، وكان باختين قد عيَّن مصاحبة الكلمة لكل فعل إيديولوجي وتعلقها به[68] إلى أن رأى (الكلمات منسوجة من خيوط إيديولوجية عديدة لا تحصى، إنها لحمة العلاقات المجتمعية لجميع مجالاتها، ويتضح من ثمَّ أن الكلمة ستكون دائما المؤثر الأكثر ملموسية لكل التحولات المجتمعية)[69]. داخل هذا الإطار الفكري سيناقش البحث مسألة الصراع الفكري والمعرفي والثقافي عموما وهو في حقيقة الأمر –وكما بدا لي- جزء من الصراع الإيديولوجي، بل نتيجة حتمية له بوصفه جملة ممارسات مدركة حسيا، ويمكن الاصطلاح عليه بـ: المستوى الظاهر للصراع.

ب- الصراع الثقافي والفكري والمعرفي:

ناقش فرج بن رمضان مسألة الجنس واستخدامها في الكتابات الأدبية والثقافية معلقا على فرويد في تفسيره للظاهرة في الثقافات المختلفة على أساس(الانطلاق من الحقير للوصول إلى الخطير)[70]؛ ذلك أن الحداثة تعادل الهامش وهي تناوئ المركز الكامن في العقيدة والمعرفة الأصولية؛ فقد(دأبت الثقافة المركزية السائدة على إنتاج وإعادة إنتاج هذه الثنائيات ..حتى تتحول إلى جزء من اللاوعي الثقافي للأفراد والجماعات...و... تساهم في بقاء المنظومة السلطوية المتحكمة في عمق النسيج المجتمعي بكل مكوناته السياسية والثقافية والاجتماعية)[71]. والمسألة تتعلق بقيم ثقافية أساسها ثنائيات:

هامش	مركز
حقير	خطير
لعب	جد
فحش	وقار
جنون	حكمة
خيال	واقع
خطأ	صواب

فحسب فرويد (التناقض الضدي بين المركز والهامش هو تناقض إيديولوجي مفتعل لأننا لو حررنا الفكر من ضغط الإيديولوجيا وآلياتها... لبان أن الهامش ليس هامشا في الحقيقة وأن الحقير من العلاقات جدير بالدلالة على أخطر الحقائق)[72]. وعليه ليس الحديث عن الجنس لذاته ورغبةً فيه دون سواه؛ وإنما الجنس باختصار هو الحياة .. (وأن الشهوة الجنسية هي تعبير عن شهوة الحياة والبقاء لا في المعنى البيولوجي التناسلي للحياة)[73]. في هذا الكلام تفصيل للحقيقة غير المدركة تحت أقنعة المركزية المعرفية (العقيدة الدينية)، ولو تمَّ التحقيق في أصوله المعرفية لانتفى أن تكون هذه المعرفة الثقافية الصرفة محل نزاع وسكوت وظل لا ينجلي، وعلى ذلك يكون التقابل خطأ/صواب (هامش/مركز) وجهان للحقيقة من منظورين مختلفين، تتحقق معهما الوظيفة البيولوجية (الحاجة الحيوانية) ووظيفة الرغبة والبقاء المنشودتين عند الإنسان[74]. وكلاهما مركز وإنما المرغوب عنه منهما هو ما خلا من الحياء كما تقتضيه المركزية الدينية، على الرغم من أن ترك الحياء إذا تعلق بالتدين والمعرفة الدينية لا حرج فيه، لما يقدمه من تحوّل معرفي تحصل به الفائدة، وإنما المرفوض أن يتحول الحديث إلى دعوة تقام طلبا للفجور، والمروق، والتعدي على الحرمات فيلحقه حينئذ البطلان والتحريم لاتصاله بنيّة تخالف مشروعية الحديث فيه زمن مناقشته.

بهذا المعنى يكون الإشكال في المنطلقات الفكرية لفرويد وتعليقاته على أفعال البشر من حيث هي رياء ديني لا يتعلق بالحقيقة ولا التفريق بين الوظائف السالفة؛ ولذلك يكون هذا الشكل من الصراع تابعا للصراع السابق القائم على الإيديولوجيا، والفكر والمعرفة والحضارة[75] ومقوماتها عند كل مجموعة بشرية. إن الممنوع أو الحرام في كل شكل كتابي بما في ذلك الأدبي

على الرغم من طابعه الخاص يخضع للنوايا وهي لا تُدرَك إلا بظروف الإنتاج والسياقات المختلفة وما تعارف عليه الناس أنه من خبايا الحديث عند صاحبه؛ فيختلط الأخذ وتتيه المعرفة؛ إذ تتحكم فيها المنطلقات الفكرية والتوجهات الإيديولوجية وشتى أنواع المعرفة المعروفة باهتمامات القراء، وكلام البشر جميعا يستفصل، لقيام جيد الرؤية فيه. وعلى هذا يُفهم عدم زعزعة الذات والنفس عندما تُقرأ الآيات المحددة للنكاح، وتعرض الآيات مجمل سير الأنبياء، لأن القارئ يستحضر قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) [الفرقان/32]، وليس بين القرآن في طرحه للحقائق عند المسلمين من مقارنة بغيره من أفعال البشر، وإنما تحصل الفائدة بالمعرفة القائمة على نوعية الخطاب التعليمي والتثبيتي المتعلق بمعرفة أصيلة في النفوس. لكن الكلام خارج هذه المساحات المعرفية تعتريه جملة من الشوائب، تخلخل بناءها الكلي، وتفرض نوعا من القراءات يجعلها تقع موقع المرفوض لعلل وأسباب متعددة، لعل أهمها الشك المتصل بنوايا عرضها. ثم قد يحصل الفهم البشري للنص الديني فيصنع ذلك في النفس مشقة القبول والتسليم عند طوائف من الناس، لا لسبب سوى أنها تأويلات بشرية يعتريها ما يعتري البشر من تحول وأهواء ومعارف، أما النص فهو عند الجميع حجة يفسر كما تمَّ إدراكه وفهمه. وهذه حقيقة لا بد من تعيينها وتحديدها والوقوف عندها.

في هذا الإطار كتب نبيل سليمان ما سماه الأدب والحرام عارضا الصورة ذاتها وما تعلق بها من رفض لرواياته وبعض كتابات الأولين لمخالفتها النهج الذي استقامت عليه الأمة؛ ولو كان خوض الحديث فيها من جهة التقويم والإصلاح لكان قبولها تاما، واستقبالها على السعة التي تخدم النية الصالحة طلبا للأفضل من الأخلاق، ودرءًا لكل سيء منها على ما تقتضيه المعرفة الدينية والخلقية والأعراف الاجتماعية التي تتحكم في سيرورة المجتمع، فلما تمَّ لمس سوء النية في ذلك تحوَّل الموضوع إلى الرفض المعادل للتهميش في مقابل استقامة المجتمع على الفضيلة. وليس المراد غياب الرذيلة مطلقا من المجتمع، والعيش في حال من الاتزان السحري الذي يرفع النفس إلى صور الملائكة الكرام في آدائهم الوجودي، وإنما المراد أن تكون النوايا مرتبطة بنشر الرذيلة فترفض لذلك، ولا يتعلق الموضوع بغير ذلك.

عرض بحث نبيل سليمان ثقافة المنع في المجتمع العربي قديما وحديثا، وعلَّلها بالواقع والإيديولوجيا المخالفة ومجمل المؤسسات الفاعلة في المجتمع حتى وصل الدين والأخلاق[76]، وعيّن موضوعين هما الأكثر رفضا في المجتمع العربي أدب الحب الجنسي[77] وأدب القاع[78]. وحصر المسألة في الحرام الذي يسري على الدين والجنس والسياسة، ثم توسع إلى الحرام

اللغوي والروائي والحزبي[79]، ثم تعرض بالحديث لأنواع السلطات فجعل من سلطة العقل السلطة الأولى[80] المتعلقة بحرية التعبير.

تحولت حرية التعبير ولو بالمخالفة إيديولوجيا قائمة بذاتها والهدف منها هو ممارستها دون التعرض لها ولا المساس بممارسيها؛ فتبدو حقيقة خفية تتمثل في تعايش الأفكار المتضادة، والتي هي في الحقيقة أفكار متجانسة تتكامل، ولكل منها سياقها ومجالها الخاص ومجال استعمالها المحدد، ليكون الوعي التام والراقي متعلقا بالنظر إلى رؤية العالم[81] وإنما يقع الشطط إذا تماهت تلك السياقات والمجالات[82].

الظاهر أن الروايات تعرض في مجملها حلولا لمشاكل اجتماعية ونفسية، وتطرح للنقاش مشاكل من نفس الجنس أيضا تحتاج حلولا؛ فهي تصور واقعا أو بعض واقع له في حياة الناس وجود محسوس، ويشكل اهتماما من اهتماماتهم وهاجسا من هواجسهم، مما يحتاج إلى تقويم وفق منهج ترتضيه رؤية الرواية ويساير طبيعة المجتمع ويكون قادرا على التعامل مع تلك المشاكل بشكل يضمن الاستمرار والتقويم، ولا يوقف عجلة التطور، ولا يتسبب في تحوّل المجتمع من نظامه المعهود إلى اضطراب يصعب التحكم فيه ليؤول الأمر إلى الطبيعة المنكرة التي لا تستقيم معها الحياة. وهذه وجهة نظر.

والوجهة الثانية؛ أن يكون مضمون الروايات حقيقة اجتماعية أو نفسية[83]، ويكون من قبيل المعرفة بالشيء كالتي يكفلها الإعلام، لا تزيد عليه إلا في الطبيعة الفنية والأدبية، وشكل الكتابة الجمالية التي تغلفه- المضمون- بوصفه رسالة موجهة. وإن لم يكن كذلك فهي من باب الإنذار والتحذير والتوقع الذي يصرف البلايا، حتى لا يقع ما يماثله من تصرفات في مواقف سردية ترسم مسارات تتعلق فيها النتائج بالمنطلقات الذاتية لشخوص الروايا، فتكون من قبيل ضرب الأمثلة، ولنا في القرآن الكريم قدوة وأسوة حسنة، وإنما كان الذم مقترنا بالإفراط كما قال الباحث[84].

وقد تكون الحقيقة جميلة أو قد تكون قبيحة[85] وعرضها على ما هي عليه يدخل في باب ما تمَّ ذكره، وفي الحالين معا لا ينبغي أن تتعلق بعض السلوكات السردية بمواقف حادة؛ فقد تحدث نبيل سليمان في مقاله مستندا إلى ما كتبه الحبيب السايح عن إدراك المعرفة الذي يُجازى بالعقاب[86]. ويكون التلازم أن تعرف يعادل أن تعاقب... غير أن الحقيقة التي يمكن إدراكها أيضا تفترض أن يكون فعل القمع سلوكا فرديا لا يتعلق بالجمعي، وأن يكون رفض العلم بالشيء مطلبا يفرض نفسه على أفراد المجتمع، فيتحول الفكر إلى الرؤى العلمانية التي تبيح حرية التعبير في كل شيء، وهي وجهة تقابلها وجهة لا ترى في ذلك الفعل السردي غير الحث

على الحياء أو عدم معرفة طريق المعالجة نظرا لجهل الشخصية بواقع الحال.

ويربط الروائي بين هذه الممارسات وبين حرية المرأة ومصادرة رأيها في التعبير عن ما يمثل هاجسا من هواجسها داخل الصراع العميق الموسوم بالأدب الذكوري والأدب النسائي[87] الذي يتخذ من السرد صورة للصراع الجنسي. ويبدو أن الحديث عن الخمر والميسر والجسد والعهر والبذاءة اللفظية يمنع النشر في دوائر بذاتها تتمتع بالسلطة والنفوذ وتشكل المركز، وتنظر إلى تلك الممارسات على أساس أنها سقوط وانحطاط ومخالفات لغوية واجتماعية وأخلاقية وحتى دينية، ولا تعبر عن الفكر الحر، ولا تنتج قراءات، ولا تبني مجالات معرفية، ولا تعالج فجوات هذا المجتمع الذي ننتمي إليه.

وقد يكون لذلك وقع التطهير بالامتناع في مواقف الامتناع وحصول الفائدة بذلك نفسيا واجتماعيا أو بإتيان نقيض الاعتقاد لتتحوّل الغايات وتحصل الفائدة بذلك أيضا. كما قد يكون في ذلك وقع المعرفة التي ترسخ بالحكي والسرد، تحددها الطبيعة العمرية والطبيعة الجنسية في وضعيات مختلفة على أساس وجود أنموذج تعليمي يُحاكى ويتمُّ تخييله.

وفي الواقع السردي المكشوف اختيار مقصود وإرادة فعلية ينحو من خلالهما السارد إلى الحرية الغائبة بوصفها قيمة معنوية واختلافية متصلة بعقدة النقص والفقدان التي تلازم الوجود الذاتي عند كثير من المؤلفين العرب، فإذا ما تمت ممارستها في الفعل السردي، وتمَّ التواصل بذلك مع المجتمع حصلت الفائدة، وخفَّ وقع المنع، ويبقى للمجتمع أن يعاين الحقائق المقدَّمة على نحو ما تقدمه وسائل الإعلام؛ فتتنوع المعرفة ومصادرها بما يمهد للاستقرار والطمأنينة التي تسري في نفوس الأفراد من خلال الإحساس بالأمان، والخوف من الفضائح والعقوبات المختلفة فقد باتت أفعال أفراد المجتمع تحت الرقابة ومعرَّضة للكشف عنها في أي لحظة، مما يصنع التوازن على مستوى الضمير أو على مستوى المصلحة وصيانتها.

إن هذا الشكل يحقق نموا فكريا، ويؤسس لحضارة تسع الفكر والفكر المضاد، وتتعايش فيها كل التيارات على مبادئ السلم والحقوق المشتركة، والصراع السلمي المعلن والمسموح به قانونا وعرفا وسننا اجتماعيا. وبما أن الواقع يفرز إيديولوجيا الفكر المضاد الذي يرى الحرية في شكلها المقيد لا المطلق؛ فيمارس بذلك ضغوطه على مستوى كل المؤسسات الفاعلة في المجتمع، ويقدم جملة الوسائط الممكنة لتحليل الظاهرة السردية وفق أنموذج الثقافة المركزية، وتتعين بعد ذلك كل الممارسات الهامشية المخالفة للتقاليد والأعراف وقواعد الضبط المتفق عليها أو المفترض العمل

بها بحكم الوضع القائم في المجتمعات(ممارسة العزل الفكري). ويباح الصراع على أساس الضرورة الاجتماعية والاختلاف الفكري والمصالح الذاتية والجماعية، ولكن العيب في فكر الإلغاء الكلي والتهميش المتعمد والرفض المطلق للآخر، رغم أن قيام القبول والمشاركة والتعاون بهدف بناء مجتمع مؤتلف اللبنات ممكن، حتى وإن اختلف أفراده من حيث الوسائل المؤدية لذات الغاية، وهذه وضعية تقتضيها الطبيعة البشرية ذات الوجهة الاختلافية تنوعا وتضادا بما يخدم المجتمع؛ فيناله من أفراده على اختلاف مشاربهم إخلاصهم وتفانيهم ووفاؤهم على أساس المواطنة والهوية. وليس أدل على ذلك من المجتمع الأمريكي وآليات اشتغاله من حيث الطبيعة الثقافية المتعددة والمتوافقة ضمن إطار المواطنة والمثاقفة التي تصنع الفوارق الجوهرية لثبات وعراقة الممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

ويتأسس الرفض بكل أشكاله ودواعيه على عدم القبول الكلي أو الجزئي لفكر ما، أو لرؤية ما، وبأشكال التعبير المعروفة شعرا وروايةً ومسرحا، أو ما اتصل بوسائل الإعلام، ومختلف أشكال الإعلان والحركات الجمعوية. والواجب أن يفرز الرفض والقبول معا إنتاج القراءة وممارستها، وتتعين بذلك أنماط من السلطات الأخرى التي تتحكم في فعل القراءة ذاته، ولا بد أن يكون في بعضها الحقيقة الغائبة كليا أو جزئيا في حياة الناس، ويسري عليها فعل الإقناع والاعتراف حتى يكون لها دور في البناء الاجتماعي؛ ذلك أنها تؤسس لقبول الرأي المخالف والمضاد وعدم مصادرته وحجبه عن الناس مهما كان مستوى النقاش، ومهما كانت طبيعة الموضوع المطروح للمناقشة والعرض، فيصل الأمر إلى حدّ الحرية والاختيار واتخاذ القرار وإبداء الرأي. إن الصورة التي ينبغي للمجتمع العربي أن يسلكها تكمن في تدعيم أركانه وتصحيح قواعده في كل ميادين الحياة، ليحقق نهضة متعادلة الأطراف تستطيع أن تستوعب وجهات النظر التي تشكل فئات المجتمع، وتكوّن قناعة على أساس اختلاف التنوع، وحتى التضاد فيه تضاد سلمي حواري بنَّاء.

إن قيام فكرة استيعاب الآخر واستثمار معرفته لخدمة المجتمع هي أعلى أنموذج للتعايش الإنساني دون الأحقاد والتعصب والتقوقع الفكري الذي يولّد كل أشكال الصراع الممكنة، بل قد يصل حدّ استغلال ذلك الوضع والاستفادة منه في تصعيد الصراع الذي يصل إلى الممارسات المرفوضة لقيامها على العنف والإكراه في قالب تحرري أو ديني سابق لكل نمو معتدل لفكر أو إيديولوجيا معينة، حينها تأتي هذه الممارسات ردًّا على الكفر والانحلال والمروق من جهة أو التخلف والرجعية والمعرفة البالية من جهة

أخرى. وهو ما يتولد عنه بالضرورة التهميش والإقصاء والنسيان المتعمد للطاقات والتوجهات الموجودة في بنية المجتمعات.

خاتمة:

نستخلص مما سبق أن ممارسة التهميش تجري على مستويين أولهما المستوى المرجعي والذي يعود إليه الصراع الإيديولوجي والفكري والعقائدي، وهو يتعلق بما يمكن تسميته بالتهميش لذاته. والثاني مستوى الممارسة والذي يعود إليه الصراع الثقافي في صور الكتابات المختلفة، وهو يتعلق بما يمكن تسميته التهميش لغيره، وكلاهما-المستويان- يجريان على جملة المجالات التي سبق الحديث عنها سياسيا واقتصاديا وأدبيا واجتماعيا وثقافيا وحضاريا ودينيا وإيديولوجيا.

إن الصراع في مجمله داخلي يتصل بأفراد المجتمع الواحد، أو خارجي تتعارض وتتصارع فيه الكيانات والمجتمعات المتأثرة بإيديولوجيات ومرجعيات متعارضة؛ فتتعلق حقيقة مستوى الإيديولوجيا والمرجعيات بالإدراك الذهني حسب قواعد بحث علمية محددة تعتمد التحليل والإحصاء والمقارنة، كما تتعلق ذات الحقيقة بمستوى الممارسات في مجمل الميادين الحيوية في الحياة البشرية، ويتم إدراكها حسيا من واقع الحال بتحليل المعطيات والمعلومات المعلن عنها عن طريق مختلف وسائل الإعلام ووسائل التواصل البشري المقصود وغير المقصود.

ويبقى ما تعلق بعلاقات التكامل الذي ينتهي عند رؤية موضوعية مفادها الحقيقة القائلة بتكاتف المعرفة، ولكن الأمر لا يتعدى مجالات معرفية بذاتها، لا يكون الصراع فيها إن وجد معادلا للصراع الموجود بين الإيديولوجيات والحضارات والثقافات والأديان والأمم والمجتمعات.

وعلى هذا تتشعب ميادين التهميش على أن يبدو ذلك من خلال تكامل وتكاتف ونقد ذاتي ينحو إلى التطور وتحيين الفكر والمعرفة بما يحفظ التوازن ويساير العصر المعيش. أو يبدو من خلال التضاد والتصادم بالاختيار والتهميش طلبا للصلاحية الأحادية ونبذا لما يبدو فسادا وقصورا، وهما الصورتان الأكثر ترددا في الحياة البشرية.

إن ظاهرة التهميش تخضع للتحليل والمراقبة لأنها تعين المركز والهامش من خلال الصورة الغائبة والخلفية الفكرية لكل الممارسات الصادرة عن الإنسان تجاه الآخرين؛ فتصنف بذلك الموجودات والوجود ذاته، وهي بوصفها ظاهرة مفروضة (التهميش القسري) تولّد ردّة فعل رافضة، ليكون الصراع في أوجه. ومن التهميش ما يقوم على الاختيار الذاتي الذي يفتقد

الوسط الخصب لكل ممارسة فعالة أو صراع متوازن، فيكون الصراع في أدنى مراتبه إن لم يكن وجوده تقريبا يعادل العدم.

إن طبيعة الصراع تقتضي إثبات الأنا لوجوده ليكتسب منه شرعية الوجود، ويكتسب من شرعية الوجود شرعية ممارسة التهميش ضد كل فكر مخالف؛ لأن شرعيته تنفي شرعية غيره وترفضها، وتكون الضرورة ممارسة التهميش لإثبات الذات، ورفض كل وجود مخالف. إن حياة البشر في أكثر صورها تقوم على أساس هذه العلاقة أي تعالق شرعية الوجود وشرعية ممارسة التهميش والرفض وإذكاء نار الصراع بين قطبيه.

وتقتضي ممارسة التهميش وإثبات الذات التبشير بمبادئ ترنو إلى الأفضلية، وتحل ما استعصى حلُّه من مشاكل عالقة، فينطلق الموضوع من وسائل الضبط الاجتماعي الذي يتحول إلى إيديولوجيا قائمة بذاتها لها في حياة الناس وجود يجب أن يُحترم وفق ما تقتضيه تلك الوسائل من إباحة ووجوب، أو منع وتحريم. وقد تعيّن أن موازين القوى لا تتأسس على العدالة من منظور كل البشر، ليصنع اختلاف الرؤى الفروقات المعرفية التي يقوم عليها المركز والهامش وهي حقيقة تكاد تكون مسلمة.

الهوامش:

[32] - ينظر: محمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1983، ص108-114. ويرى ملحم قربان في كتابه إشكالات، نقد منهجي في الفلسفة والفكر السياسي وفلسفة التاريخ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1981، ص247 أنها تتعلق بالقانون والدستور فقط ويسميه إطار الشرعية وهو الشق الملزم من صور الضبط الاجتماعي.

[2] – وسطية الإسلام معلومة معروفة عندنا. ولذلك ما جاء مخالفا سمي بالضرورة تطرفا ومنه الجماعات الإسلامية المتطرفة. وأما وسطية البوذيين مثلا؛ فإنها تقوم على الحقائق الأربع النبيلة: المعاناة وأسبابها والقضاء عليها والتوسط الذي يعادل سبيل التخلص منها.

64- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،238/8-239.

ينظر: جون كولر: الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة ، الكويت، 1995، ص183 وما بعدها. إن الحديث على الهدوء البوذي يراد منه وجود من دون معاناة وهو ما يعبر عنه أيضا بـ: النرفانا. ومن ذلك أيضا الاستنارة بالتجربة الذاتية(الزن)؛ لأن البوذي يعني المستنير نسبةً إلى سدهارتا جوتاما بوذا (المستنير).

[3] – ينظر: محمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، ص118 وما بعدها.

[4] – ينظر: لويس ألتوسير: الإيديولوجيا –دفاتر فلسفية-، تر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص08.

[5]- Lucien Goldman : le Dieu cache, éditions Gallimard, Paris, 1983, p24.

[6]- ينظر: برهان غليون: مجتمع النخبة، دراسات في الفكر العربي، معهد الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986، ص221 وهو يميز بين الإيديولوجيا والثقافة.

[7]- ينظر: سعيد بن كراد: النص السردي-نحو سيميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، 1996، ص08.

[8] – ينظر: عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ص13.

[9] – تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي، تر: جابر عصفور، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط2، 1991، ص14.

[10] – Marx –Engels : l'idéologie allemande, édition, Paris, p20.

[11] – Lucien Goldman : le Dieu cache, p25.

[12] – ينظر: حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص23.

[13] – برهان غليون: مجتمع النخبة، ص161.

[14] – السابق، ص207. حيث حدثت تحولات حسب برهان غليون في المجتمع العربي من الوحدة إلى التفكك، ومن الاستقلال إلى التبعية، ومن الاكتفاء الذاتي إلى إلى الفاقة، ومن السيادة إلى الضعف والعزلة، ومن الفعالية والإنتاج إلى الهامشية والاستهلاك.

[15] – السابق، ص221.

[16] – السابق، ص273.

[17] – السابق، ص142 وفيها : (ظل الفكر معزولا عن الممارسة وظلت الممارسة بدون فكر) الكلام لبرهان غليون.

[18] – ينظر: السابق، ص165 وص269 وهو يقرر أهمية الفكر العلمي وسلطة المعرفة.

[19] – ينظر: ملحم قربان: إشكالات، ص 181 وص183 وفيهما يتساءل عن معرفة الحقائق التاريخية وعدم وجود الضمان لتلك المعرفة بل يثبت طمسا للحقيقة أو لجزء منها تعتيما بالطبيعة المصلحية للنشر وعدمه.

[20] – ينظر: السابق، ص181-183 وإدراك الحقيقة التاريخية وما يلحقها من تعتيم وملابسات.

[21] – ينظر: كارل مانهايم(karl Mannheim): الإيديولوجيا واليوتوبيا، -دفاتر فلسفية، ص111-112.

[22]- ينظر: السابق، ص14.

[23]- ينظر: عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، ص13.

24 – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، 2003، مادة(متن). وينظر: المعجم الوسيط، ط5، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، باب الميم، مادة(متن) ص853. وفيها: (الماتن في اصطلاح المؤلفين واضع أصل الكتاب... ومتن الكتاب: الأصل الذي يشرح وتضاف إليه الحواشي).

25 – ينظر المعجم الوسيط، باب الحاء، مادة (حشا)، ص177.

26- تكمن أهمية المركزية الشعرية في نقد الشعر لقدامة بن جعفر وعيار الشعر لابن طباطبا العلوي، والموشح للمرزباني، والشعر والشعراء لابن قتيبة، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، ثم منهاج حازم وعمدة ابن رشيق وما نزل منزلة هذه المصنفات.

27 – نبيل سليمان: الأدب والحرام، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية، ص171.

28 – جندلي عبد الناصر: التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م، ص337-341.

29 – ينظر: فلادمير بروب: تيبولوجيا الحكايا الشعبية مثلا. وينظر جيزال فالنسي: النقد النصي، ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص175 فيما سماه تعليقات عن التحليل البنيوي للحكايات.

30 – ينظر دراسة رشيد بن مالك: قراءة سيميائية في كليلة ودمنة، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، 19-20 أفريل 2004، منشورات جامعة بسكرة، قسم الأدب العربي، ص27 وما بعدها. ودراسة جورج موراند الغراب والثعلب مقاربة سردية-خطابية، تر: عبد الحميد بورايو، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، 19-20 أفريل 2004، منشورات جامعة بسكرة، قسم الأدب العربي، ص11 وما بعدها. الدراسة تستند إلى حكايا لافونتين Jean De La Fontaine.

31- إلى سنة 2003 والطلبة في الجزائر في تخصص الأدب العربي يتلقون تكوينا في الثقافة الشعبية والأدب الشعبي، وإلى حدّ الآن (2012) لا يزال الأدب الشعبي مقياسا أساسيا لطلبة الليسانس بعد حذف الثقافة الشعبية من التكوين سنة 2003.

32 – ينظر: صالح الكشو: الهامش في النحو التوليدي تحليل بعض النماذج من التعابير الخاصة، ضمن المركز والهامش في الثقافة العربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1995، ص299 وما بعدها. لم نحصل على هذا الكتاب إلا في أفريل 2012، ولذلك قد يكون بينه وبين بحثنا شيء من التشابه غير المقصود.

33 – ينظر السابق، ص311.

34- ينظر: عبد الحميد عبد الواحد: قضايا الاطراد والشذوذ في اللغة العربية، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية، ص313 وما بعدها.

35- ينظر: محمد خان: أصول النحو، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، مطبعة جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2012، ص102 وما بعدها في حديثه عن العلل الجدلية النظرية وموقف ابن مضاء القرطبي منها.

36 – يمكن العودة في هذا الموضوع إلى:

- جورج مونان: اللسانيات والترجمة، تر: حسين بن رزوق، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2000.

- ماريان لوديرار ود.سيلاسكوفيتش: الترجمة والتأويل، (منشورات السربون)، تر: محمد نبيل النحاس الحمصي، كلية اللغات والترجمة، جامعة الملك سعود، الرياض، م ع س، ط3، 1993.
- هانز غيورغ غدامر: الفهم والتأويل من كتابه: الحقيقة والمنهج، تر: صابر حباشة، موقع: (www.ofouq.com)، بتاريخ: السبت 02 أكتوبر 2004. تاريخ الزيارة: 2008/08/18.
- Mathieu Guidère : introduction à la traductologie, de Boeck, p41-83.
37
38 - ibid., p69-75.
39 - ibid.,p79-83. Et :
Irène Tamba : La sémantique, P U F, Paris, 5e édition, 2005. p64-105.

40 – إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ص121. [الفصل السادس: المركز والهامش في الدلالة].

41 – آن إينو: تاريخ السيميائية، تر: رشيد بن مالك، منشورات مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر ودار الآفاق، 2004، ص68. وبيار جيرو: علم الإشارة، السيميولوجيا، تر: منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1998، ص 51-52 وص79 وص 84. وعنده فيه كل العلامات إشارات وشفرات من ص139-151. وينظر جيزال فالنسي: النقد النصي، ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص189 في حديثه عن المعين(denote) والمضمن(connoté).

42 – محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص182-183. وقد تحدث بوضوح عن الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بوضوح.

43- ينظر:محمد محمد يونس علي: السابق، ص179.

44 – السابق، ص183.

45- ينظر: جيزال فالنسي: السابق، ص187 والتضمين (جملة المعاني الثانوية بالنسبة إلى معنى أول ثابت يحدده التعيين).و:ينظر أيضا محمد محمد يونس علي: السابق، ص190.

46 – ينظر جيزال فالنسي: السابق، ص188 وعادة ما يخضع التضمين للسياق الاجتماعي فتشكل الأشياء نظاما ذا تضمين. وينظر أيضا: محمد محمد يونس علي، السابق، ص202.

47 – ينظر: محمد محمد يونس علي، السابق، ص202.

48 – ينظر: محمد محمد يونس علي، السابق، ص212.

49 – ينظر: محمد محمد يونس علي، السابق، ص217.

50 – ينظر: أحمد مداس: النص والتأويل، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، قسم الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، الجزائر، ط1، 2010، ص122.

51 – ينظر: فولفغانغ إيزر: نظرية جمالية التجاوب، ص71 حين يتحدث عن الانتقاء والإقصاء في بناء العالم الممكن والمنسجم.

52 – صدر الكتاب عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت ، لبنان، ط4، 2011. وأصل النسخة بالفرنسية أعاد كتابتها بالعربية لما رأى أن التراجمة لم يحسنوا ترجمة النص الفرنسي، كما وضَّح ذلك في مقدمة هذه النسخة.

53 – ينظر عبد الله العروي: الايديولوجيا العربية المعاصرة، ص 16.

54- ينظر السابق، ص19.

55- السابق، ص40-41.

56- السابق، ص42-48. وينظر: برهان غليون: مجتمع النخبة، ص145.
57 – السابق، ص49 وما بعدها.
58 – تهميش المركز في الثقافة العربية، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية، ص283. وينظر أيضا: برهان غليون: مجتمع النخبة، ص270 متحدثا عن التنوع الايديولوجي داخل ثقافة التعايش السلمي والتنافس.
59- ينظر: محمد صالح المراكشي: تهميش المركز في الثقافة العربية، ص285-286.
60 – فتحي القاسمي: الأقليات المسيحية ودعوتها إلى علمنة الفكر العربي الحديث، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية، ص252.
61- محمد صالح المراكشي: تهميش المركز في الثقافة العربية، ص287.
62 – ينظر فتحي القاسمي: الأقليات المسيحية ودعوتها إلى علمنة الفكر العربي الحديث، ص253.
63 – السابق، ص255.
64 – ينظر: محمد صالح المراكشي: تهميش المركز في الثقافة العربية، ص287-290.
65- سيمياء التأويل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص460 وما بعدها.
66 – عبد الله العروي: الإيديولوجيا العربية المعاصرة، ص49.
67 – السابق، ص205 متحدثا عن العرب والتعبير عن الذات وخص بالذكر التعبير بالفلكلور(ص207) والتعبير بالأدب(ص217) وفيه التعبير بالمسرح والرواية والأقصوصة. وأما رشيد الإدريسي فقد اتجه رأسا إلى المقامة في كتابه سيمياء التأويل. مرجع سابق.
68 – باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986، ص25.
69- الماركسية وفلسفة اللغة، ص29-30. وقد كان الماركسيون يصفون الإيديولوجيا بالانعكاس المقلوب والمشوه والجزئي والمبتور من الواقع، ولعل الأمر معقود على الواقع المعطى في مقابل الواقع المدرك، والثاني منهما أكثر موافقة للحقيقة، وأولهما صورة مغايرة للواقع والحقيقة. وهذا من طبيعة الصراع التي طبعت الحياة في كل مناحيها بما في ذلك الجانب التنظيري للمادة العلمية الواصفة لسلوكات الأفراد والمجتمعات.
70- فرج بن رمضان: الهامشية والحداثة العربية، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية، ص62.
71 – السابق، ص62.
72- السابق ، ص63.
73 – السابق ، ص64.
74 – ينظر: السابق ، ص66.
75 – ينظر: ملحم قربان: إشكالات، ص135.
76- ينظر مقال: الأدب والحرام، ضمن كتاب ثقافة التهميش في الثقافة العربية، ص149-154.
77 – السابق، ص154. وفيه حديث المخادنة ونكاح السر واللذة الجنسية والبغاء والسحاق وما شابه هذه المواضيع.
78- السابق، ص156.
79 – نبيل سليمان: الأدب والحرام، ص162.
80 – السابق، ص160-161. وينظر أيضا: برهان غليون: مجتمع النخبة، ص296 وسلطة المعرفة وفي ص 165 يتعين التحرر الفكري عنده مفتاحا لكل تحرر سياسي واقتصادي.

[81] – ينظر: جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية، تر: نايف بلوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1995، ص25.و:
Lucien Goldman : le Dieu caché, p23.
[82] – ينظر: حميد لحميداني: النقد الروائي، ص23.
[83] – ينظر: جورج لوكاتش: الرواية، تر: مرزاق بقطاش، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، 1984، ص8 في قوله: (الرواية هي الشكل الأكثر دلالة على المجتمع[الأروبي]...). وما ينطبق على المجتمع الأروبي ينطبق على غيره من المجتمعات. وينظر: عمار بلحسن: الأدب والإيديولوجيا: ص97. وذلك في قوله: (العمل الأدبي يتضمن عناصر معرفة الواقع، فهو انعكاس عارف وتمثل جمالي لظواهره وأشخاصه وعلاقاته).
[84] – نبيل سليمان: الأدب والحرام، ص155.
Lucien Goldman : le Dieu caché, p111.[85]-
إن النص الروائي يتضمن حقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. والرواية مكان لتجميع الإيديولوجيات أو عناصر إيديولوجيات طبقات متصارعة ومن ذلك طبيعة الحقائق في الروايات. ينظر: عمار بلحسن: الأدب والإيديولوجيا ، ص104. وله في ص96 من نفس الكتاب قوله: (النص الأدبي إعادة إنتاج للأيديولوجيات وهو أحد خطاباتها). وعند حميد لحميداني في النقد الروائي، ص27 إشارة إلى حمل النص الروائي صراعا إيديولوجيا. وما حكم الجمال أو القبح إلا لاتصالهما بإيديولوجيا القارئ والكاتب معا.
[86] – نبيل سليمان: الأدب والحرام، ص164.
[87] – السابق، ص171.

المصادر والمراجع

* آن إينو: تاريخ السيميائية، تر: رشيد بن مالك، منشورات مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر ودار الآفاق، 2004.
* إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية.
* أحمد مداس: النص والتأويل، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، قسم الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، الجزائر، ط1، 2010،.
* إشكالات، نقد منهجي في الفلسفة والفكر السياسي وفلسفة التاريخ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1981
* باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986.
* برهان غليون: مجتمع النخبة، دراسات في الفكر العربي، معهد الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986
* بيار جيرو: علم الإشارة، السيميولوجيا، تر: منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1998
* تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي، تر: جابر عصفور، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ط2، 1991.
* جورج لوكاتش: الرواية، تر: مرزاق بقطاش، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، 1984،
* جورج لوكاتش: دراسات في الواقعية، تر: نايف بلوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1995
* جورج موراند الغراب والثعلب مقاربة سردية-خطابية، تر: عبد الحميد بورايو، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، 19-20 أفريل 2004، منشورات جامعة بسكرة، قسم الأدب العربي.
* جورج مونان: اللسانيات والترجمة، تر: حسين بن رزوق، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2000.
* جون كولر: الفكر الشرقي القديم، تر: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة ، الكويت، 1995،

* جندلي عبد الناصر: التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م.
* حميد لحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990.
* رشيد بن مالك: قراءة سيميائية في كليلة ودمنة، محاضرات الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، 19-20 أفريل 2004، منشورات جامعة بسكرة، قسم الأدب العربي.
* سعيد بن كراد: النص السردي-نحو سيميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، 1996
* صالح الكشو: الهامش في النحو التوليدي تحليل بعض النماذج من التعابير الخاصة، ضمن المركز والهامش في الثقافة العربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 1995.
* عبد الحميد عبد الواحد: قضايا الاطراد والشذوذ في اللغة العربية، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية.
* عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1993
* فتحي القاسمي: الأقليات المسيحية ودعوتها إلى علمنة الفكر العربي الحديث، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية.
* كارل مانهايم(karl Mannheim): الإيديولوجيا واليوتوبيا، -دفاتر فلسفية.
* لويس ألتوسير: الإيديولوجيا –دفاتر فلسفية-، تر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999
* ماريان لوديرار ود.سيلاسكوفيتش: الترجمة والتأويل، (منشورات السربون)، تر: محمد نبيل النحاس الحمصي، كلية اللغات والترجمة، جامعة الملك سعود، الرياض، م ع س، ط3، 1993.
* محمد خان: أصول النحو، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، مطبعة جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2012
* محمد رأفت عبد الجواد: مبادئ علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1983
* محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2007
* مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997.
* نبيل سليمان: الأدب والحرام، ضمن كتاب المركز والهامش في الثقافة العربية
* هانز غيورغ غدامر: الفهم والتأويل من كتابه: الحقيقة والمنهج، تر: صابر حباشة، موقع: (www.ofouq.com)، بتاريخ: السبت 02 أكتوبر 2004. تاريخ الزيارة: 2008/08/18.

* Irène Tamba : La sémantique, P U F, Paris, 5e édition, 2005
* Lucien Goldman : le Dieu cache, éditions Gallimard, Paris, 1983,.
* Mathieu Guidère : introduction à la traductologie, de Boeck
* Marx –Engels : l'idéologie allemande, édition, Paris,

فلسفة

نظرية العقل عند الكندي

نظرية العقل عند الكندي

الدكتور محمد أعراب

تقديم:

يُعتبَر مفهوم "العقل" قلبَ الفلسفة، ذلك أن "العقل" هو "جوهر" الإنسان ومَلَكة التفلسف. فتعريف الإنسان انبثق مع الفلسفة وتأسس على "العقل" كجوهر لوجوده وماهيته. ويعتبر "العقل" قلب الفلسفة أيضا لأنه البؤرة التي تلتقي عندها كل المباحث الفلسفية: الوجود، المعرفة والقيم. فوجود الإنسان ليس سوى فكره. أما "الجسد"، فهو مجرد عَرَض لا يدخل في حدّ الإنسان بعد أن تأسس "الوجود" على "الفكر" ("أنا أفكر، إذن أنا موجود").

من الأكيد أن الأولوية في الفلسفة الحديثة كانت للمعرفة، التي لا تتم إلا بالعقل، والتي كان موضوعها –ولا يزال- هو مقاربة العلاقة بين "العقل" و"الموضوعات" و"العالم". لكن في الفلسفة القديمة والوسيطية كان "العقل" يتخذ أبعادا أكثر تجذُّرا في الميتافيزيقا. فرغم أن المعلم الأول اعتبر أن القوة الناطقة تدخل في مجال العلوم الطبيعية إسوة بالغضبية والشهوية، فإن الفلسفة الأرسطية تجعل من "العقل" أفق الميتافيزيقا من خلال "العقل الفعّال". ومن ثم، لم يَعُد "العقل" شأنا إنسانيا، بل هو شيء مُفارق لعرضية الزمن وتلاعبات الكون والفساد، بل ستُمسي العلاقة بين الإنسان و"العقل الفعّال" بحثا إشكاليا استنفد طاقة "أرسطو" وشُرّاحه وفلاسفة الإسلام من بعده في إطار ما يُعرف بنظرية الاتصال التي تُتوِّج سعادة الفيلسوف.

من هنا، خطورة الطرح المشائي الذي ألقى بظلاله على علاقة الحكمة بالشريعة، ما دامت نظرية العقول ستُلامس العقيدة وتعكر صفوها، ممّا سيُولِّد نفورا في الوسط التداولي الإسلامي انتهى بإقصاء الفلسفة من الثقافة الإسلامية.

الكندي ونظرية العقل:

بدايةً، يُعرِّف "الكندي" (ت 252 هـ/866م) مفهوم "العقل" في رسالة خصصها لتعريف المفاهيم الفلسفية: «العقل، جوهر بسيط مُدرِك

للأشياء بحقائقها.»[33]. وهذا التعريف يقطع صلته مع تعريف المتكلمين للعقل باعتباره "علما". ومن المعلوم أن "الكندي" عاصر مرحلة أوج المعتزلة واقتسم معهم الحُظوة في البلاط العباسي، ولا سيما عند "المعتصم" حيث كان مُربّيا لابنه أحمد. إن القول بـ"جوهرية العقل" -الذي رفضه المعتزلة بشدة- يعني الانخراط في التصور الأرسطي بقدر ابتعاده عن أسس التداول العربي-الإسلامي.

لقد كان "الكندي" أول فيلسوف في الإسلام. وفي البدء تتحدد الأشياء وتتنبئ عما ستتخذه من أشكال لا تُغيّر من جوهرها. فكانت نظرية "العقل" في الفلسفة الإسلامية "وفية" لرائدها الأول. وتاريخيتها سارت بشكل دائري: بدأت مع "الكندي" الذي حاول أن يُترجمها فكريا ولغويا، لكن منطقها الداخلي هو الذي انتصر للأرسطية، ثم بدأت تخضع لنوع من التحوير بدءا مع "الفارابي" وتحديدا مع "ابن سينا" لِتَعُود إلى حالها الأول مع "ابن رشد".

وكما قلنا، فالمنطق الداخلي لنظرية "العقل" الأرسطية فرض على "الكندي" ليس القول بـ"جوهرية العقل" فقط، بل أيضا القول بـ"تعدّدية العقل". ففي "رسالة في العقل" اقتفى "الكندي" أثر المعلم الأول في نظرية "العقل"، يقول: «إن رأي أرسططاليس في العقل أن العقل على أربعة أنواع: الأول منها العقل الذي بالفعل أبدا، والثاني العقل الذي بالقوة، وهو للنفس، والثالث العقل الذي خرج في النفس من القوة إلى الفعل، والرابع العقل الذي نُسميه الثاني.»[34].

نلاحظ، أولا، أن "الكندي" استعمل مفهوم "النفس" في إطار تعريفه للعقل، وعندما نعود إلى رسالة الحدود نجد أنه يُعرِّف بالمقابل "النفس" بـ"العقل"، حيث يقول عن "النفس": «هو جوهر عقل متحرك من ذاته بعدد مؤلف.»[35]. ورغم أنه يُعرِّف "النفس" من خلال "الجسم" أيضا، فإنه لا يمكننا أن نفهم أن العلاقة بين "العقل" و"النفس" هي نوع من التماهي. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، إذ سيعود في "رسالة العقل" لإرساء نوع من التجاذب والانفصال بين "العقل" و"النفس".

---

[33] الكندي: رسالة في حدود الأشياء ورسومها، ضمن "رسائل الكندي الفلسفية"، تح وتقديم محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، مصر، 1950، ص. 165.

[34] المصدر السابق نفسه، "رسالة في العقل"، ص. 353-354.

[35] نفس المصدر، "رسالة في حدود الأشياء ورسومها"، ص. 165.

والملاحظة الثانية هي التي ستُسلط الضوء على موقف "الكندي"، وتتعلق هذه الملاحظة باستعماله للزوج المفهومي الأرسطي: "القوة" و"الفعل"، وأيضا الزوج المفهومي الآخر: "المادة" و"الصورة". إن توظيف هذه المفاهيم هو ما يسمح بمماثلة بين "العقل" و"الحس": «إن الصورة صورتان: أما إحدى الصورتين فالهيولانية، وهي الواقعة تحت الحس ؛ وأما الأخرى فالتي ليست بذات هيولى، وهي الواقعة تحت العقل، وهي نوعية الأشياء وما فوقها.»[36].

فالصورة الهيولانية هي محسوسة بالفعل، وإلا لما تمكَّنت النفس من تمثُّلها، فهي في النفس بالقوة، أي أن النفس تملك استعدادا طبيعيا للحس. وإذا كانت الآلات خالية من كل عيب، فإن النفس تُحس بالمحسوسات بالفعل، و"صارت في النفس بالفعل"، بل إنها تصير هي النفس: «القوة الحاسّة ليست هي شيئا غير النفس، ولا هي في النفس كالعضو في الجسم، بل هي النفس، وهي الحاسّ، وكذلك الصورة المحسوسة ليست في النفس لغير أو غيرية، فإذن المحسوس في النفس هو الحاس.»[37].

إن تعقُّل النفس لمحسوساتها يُحوِّلها من مجرد استعداد إلى امتلاء تنتفي فيه كل غيرية أو اختلاف بين النفس ومحسوساتها، بل تصير جزءا من تكوينها وعنصرا في بنيتها. وإذا كانت النفس هي التي تقوم بعملية الإدراك الحسي بفاعليتها، فإن هذه الفاعلية تعود في الحقيقة إلى دور المحسوسات أو الصور الحسية، لأنه بدون هذه المحسوسات تظل النفس مجرد استعداد وتقبع في عطالتها الذاتية. فالمبدأ الأرسطي يرتكز على كون الشيء الذي بالقوة مُحتاج إلى ما يُخرجه إلى الفعل، ولا يخرج بذاته. «فكل شيء أفاد شيئا ذاته فإن المستفيد كان له ذلك بالقوة، ولم يكن له بالفعل ؛ وكل ما كان لشيء بالقوة فليس يخرج إلى الفعل بذاته، لأنه لو كان بذاته كان أبدا بالفعل، لأن ذاته له أبدا ما كان موجودا، فإذن كل ما كان بالقوة فإنما يخرج إلى الفعل بآخر، هو ذلك الشيء بالفعل.»[38].

هذه العناصر الأساسية في الميتافيزيقا الأرسطية تُلقي الضوء على "العقل" في إطار المماثلة، بشرط ألا ننسى الفارق الجوهري بين الإدراك الحسي الذي يَنْصبّ على الصور الهيولانية، والعقل الذي يدرك الصور المجردة كأنواع الأشياء وأجناسها وماهيتها.

---

[36] نفس المصدر، "رسالة العقل"، ص. 354.

[37] نفس المصدر، ص. 355.

[38] نفس المصدر، ص. 356.

وعندما يقوم "العقل" بعملية التعقل، فإنه ينتقل من حالة كان فيها عاقلا بالقوة إلى حالة التعقل الفعلي. فلولا ذلك الاستعداد القَبْلي لتلقي المعقولات، لما تسنّى له التعقل أصلا. ولكن -كما قدّمنا- لا يستطيع "العقل" أن ينتقل من ذاته وبذاته إلى مرحلة الفعل. ولتخطي هذه المسافة الإبستمولوجية يلزمه فاعل يُخرِجه إلى الفعل عبر عدة مراحل:

- **أولا**: المرحلة التي يوجد فيها "العقل" بالقوة، أي كاستعداد لتلقي المعقولات: «فإن النفس إذا باشرت العقل، أعني الصور التي لا هيولى لها ولا فنطاسيا [الصور المتخيلة]، واتحدت بالنفس، أعني أنها كانت موجودة في النفس بالفعل، وقد كانت قبل ذلك لا موجودة فيها بالفعل، بل بالقوة، فهذه الصورة التي لا هيولى لها ولا فنطاسيا هي العقل المستفاد للنفس من العقل الأول، الذي هو نوعية الأشياء التي هي بالفعل أبدا.»[39]. فالإنسان في بدء عملية التعقل لا يملك إلا عقلا فارغا واستعدادا محضا، قد يكون ذلك سلبيا، لكن هذا لا يعني أن عملية التعقل لا تأتي من الداخل كنظرية التذكر الأفلاطونية التي تقوم على التوليد والنبش في الأفكار الكامنة في النفس قبل مجيئها إلى عالم البدن الذي يُعرِّضها للنسيان. إن "الكندي" والتيار المشائي يُخرج عملية التعقل من الفرد والذاكرة، لا ليُسكنها في عالم المُثل، وإنما في عقل مُفارق كما سنرى. والسؤال الذي يطرح نفسه – وإن كنا لا نعتزم الإجابة عنه هنا لأن المجال لا يتسع لذلك- هو: لماذا مال فلاسفة الإسلام إلى "أرسطو" ميلا كُليّا أنساهم فلسفة أستاذه "أفلاطون"؟ هل يتعلق الأمر بعملية الترجمة التي وفَّرت نصوص "أرسطو" أكثر من محاورات أستاذه أم بجاذبية العقلانية الأرسطية؟ طبعا هذا لا يعني أن الأفلاطونية لم يكن لها وجود في الفلسفة الإسلامية، أو لم يكن لها مُناصروها، ولكن الملاحظ هو هيمنة الأرسطية منذ البدء وعودتها بالقوة عند أُفول نجم الفلسفة الإسلامية. فَبِها تم الافتتاح وبها كان مسك الختام. وأيا يكن الأمر، فلقد تبيّن إذن أن "العقل" الذي يملكه الإنسان هو "العقل بالقوة" الذي يروم الاستفادة من قبس "العقل الذي بالفعل"، لذلك يُسمى "العقل المستفاد".

- **ثانيا:** إن "العقل" عند انتقاله من القوة إلى الفعل يصير "قُنْيَة للنفس"، أي يتحول إلى مِلْك. لذلك، يُسميه ابن سينا "العقل بالمَلَكة"[40]. ويقول "الكندي" عن هذا "العقل" : «هو الذي بالفعل للنفس، قد اقتنته، وصار لها وجودا، متى شاءت استعملته، وأظهرته لوجود غيرها منه،

---

[39] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[40] أحمد فؤاد أهواني: الكندي فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، د ت، د ط، ص. 271.

كالكتابة في الكاتب، فهي له ممكنة، قد اقتناها وثبتت في نفسه، فهو يُخرجها ويستعملها متى شاء.»[41]. ونبدأ من حيث انتهى الكندي: فتشبيه هذا "العقل" بالكاتب الذي صارت له الكتابة مَلَكة يعني أن "العقل" صار بمقدوره ممارسة التفكير، إذ لم يعد عقلا بالقوة، بل صار قُنْيَة للنفس تستعمله متى شاءت. وهذا التشبيه يُفيد أيضا أن "العقل" قبل اكتساب هذه المَلَكة كان مثل الإنسان الذي لا يعرف الكتابة، فهو يحتاج إلى من تكون لديه ملكة الكتابة بالفعل لكي يُخرجه من حالة اللاكتابة، أي أن يُكسبه تلك الملكة وأن يفيده إياها. ولكن قابلية اكتساب الكتابة لا تعني عدم وجودها أصلا، بل هي –على العكس- موجودة كاستعداد أي موجودة بالقوة. ولولا وجودها بالقوة لما خرجت إلى الفعل أصلا. فالشيء لا يخرج إلى الوجود الفعلي إلا إذا كان موجودا بالقوة.

ورغم أن الزوج المفهومي "القوة"/"الفعل" ساعد على تفسير كثير من المعضلات الميتافيزيقية وملأ الفراغات المحرجة، فإنه مثل أكبر الأخطار في الفلسفة الإسلامية. فإذا كان الأمر ناجحا على صعيد الطبيعة وتفسير مبدأ الحركة، مما يفيد في تلافي مشكلة الخلاء واللاتناهي، فإنه بالمقابل يفضي إلى القول بقِدَم العالم والحركة ونفي الخلق من عدم، الشيء الذي يتنافى مع العقيدة الدينية للإسلام التي تقول بحُدوث العالم وتناهيه وبالخلق من عدم. فإله "أرسطو" ليس إلها خالقا، وإنما هو فقط "المُحرك الذي لا يتحرك". وسنرى تداعيات هذا الزوج المفهومي على مستوى نظرية العقل.

- **ثالثا**: إن هذا "العقل" الذي صار قُنية للنفس سيتحول إلى عقل ظاهر. في الحقيقة لقد حَيَّر "الكندي" الباحثين في حديثه عن أنواع "العقل"، فعباراته غامضة تُوحي بشيء، ثم سرعان ما تَنقُضه في موضع آخر. حتى إن الباحثين اختلفوا في عدد العقول التي قال بها (هل هي أربعة –إذ استعمل عبارات العدد: الأول، الثاني، الثالث والرابع ؛ لكنه أدمج في أحيان كثيرة بين الثالث والرابع بما يُوحي أنهما وجهان لعملة واحدة). فهل يتعلق الأمر بثلاثة عقول أم عقلين فقط؟[42].

---

[41] رسائل الكندي، مصدر سابق، "رسالة العقل"، ص. 357-358.

[42] أُنظر تحليل ومناقشة آراء الباحثين في المقدمة القيمة لرسائل الكندي للمحقق عبد الهادي أبو ريدة [ص 312-352]، حيث يناقش تحليل "أرسطو" وشراحه كالاسكندر الإفروديسي وأرستوكليس، ومن المحدثين ناجي وجيلسون، مع مقارنة مستفيضة بين نص "أرسطو" باليونانية والترجمة اللاتنية لمقالة "الكندي". وقد

يقول الكندي: «فإذن العقل إما علة وأول لجميع المعقولات والعقول الثواني ؛ وإما ثان، وهو بالقوة للنفس، ما لم تكن النفس عاقلة بالفعل ؛ والثالث هو الذي بالفعل للنفس، قد اقتنته [...] ["وصار لها موجودا، متى شاءت استعملته، وأظهرته لوجود غيرها منها، كالكتابة في الكاتب ؛ فهي له مُعَدَّة ممكنة، قد اقتناها، وثبتت في نفسه ؛ فهو يُخرجها ويستعملها متى شاء"؛ وأما الرابع فهو العقل الظاهر من النفس، متى أخرجته، فكان موجودا لغيرها منها بالفعل. فإذن الفصل بين الثالث والرابع أن الثالث قُنية للنفس، قد مضى وقت مبتدأ قُنيتها، ولها أن تُخرجه متى شاءت، والرابع أنه إما وقت قنيته أولا وإما وقت ظهوره ثانيا، متى استعملته النفس ؛ فإذن الثالث هو الذي للنفس قُنية، قد تقدمت، ومتى شاءت كان موجودا فيها ؛ وأما الرابع فهو الظاهر في النفس متى ظهر بالفعل.»[43].

أوردنا هذا النص المطول لِنُبيِّن ذلك الغموض الذي تركه "الكندي" بخصوص مسألة تعدُّد العقول، مع أنه ألف هذه الرسالة لإزالة الغموض الذي خلَّفه "أرسطو" نفسه. هذا النص هو آخر فقرة في الرسالة وهي لا تُسعفنا بشكل حاسم، بل هي تُعيد نفس اللَّبس الذي تركه "أرسطو" الذي أورث خلافا هائلا بين شراحه. وربما لولا ذلك الانفتاح والغموض لانْسَدّ القول وماتت الأرسطية باكتمالها.

- **رابعا:** تحدثنا عن لحظة تحول "العقل" من "عقل بالقوة" إلى "عقل بالفعل"، ثم إلى "عقل بالمَلَكة"، وذكرنا أن إخراج "ما بالقوة" إلى "ما بالفعل" لا يمكن أن يكون بشكل ذاتي، بل لابد من تدخل فاعل خارجي للإشراف على هذه العملية. فما هو هذا "الفاعل" الذي يُخرج "العقل" من مرحلة "القوة" إلى مرحلة "الفعل"؟ وكيف تتم عملية التحوّل؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تنقلنا من داخل "النفس" إلى أفق أرحب. فمعلوم أن "العقل الذي بالقوة" وكذا "الذي يصير بالفعل" يتماهى مع "النفس" كما قدّمنا. فمن المنطقي ألا ينتمي ذلك "الفاعل" إلى "النفس"، بل يأتي من خارجها، لأن "النفس" لا تملك إخراج ذاتها من "القوة" إلى

انتهى إلى اعتبار هذا التعدد ليس سوى تعدد اسمي، وهو تعدد لمراحل التعقل أو هو لحظات لذات "العقل". ولكن "العقل الفعّال" عقل مفارق كما سنرى، وبالتالي أصبح لدينا: عقل إنساني وعقل مفارق، فالأقرب إلى الصواب هو القول بعقلين، وليس بعقل واحد أو أكثر من عقلين.

[43] رسائل الكندي، مصدر سابق، "رسالة العقل"، ص. 357-358.

"الفعل". إن الذي يقوم بعملية الإخراج هاته هو "العقل الأول" الذي هو "بالفعل أبدا"، وهو عبارة عن "نوعية الأشياء التي هي بالفعل أبدا"[44].

يتحدث "الكندي" في "كتاب في الفلسفة الأولى" عن هذا "العقل الأول" وعن علاقته بـ"النفس"، فيقول: «هو أنواع الأشياء –إذ النوع معقول- وما فوقها، والأشخاص محسوسة، أعني بالأشخاص جزئيات الأشياء التي لا تعطي الأشياء أساميها ولا حدودها، فإذا اتّحدت بالنفس فهي معقولة، والنفس عاقلة بالفعل عند اتحاد الأنواع بها ؛ وقبل اتحادها بها كانت عاقلة بالقوة ؛ وكل شيء هو لشيء بالقوة فإنما يُخرجه إلى الفعل شيء آخر، هو ذلك المُخرج من القوة إلى الفعل، بالفعل ؛ والذي أخرج النفس التي هي عاقلة بالقوة إلى أن صارت عاقلة بالفعل، أعني مُتّحدة بها أنواع الأشياء وأجناسها، أعني كلياتها، هي الكليات أعيانها ؛ فإنها باتحادها بالنفس صارت النفس عاقلة، أي لها عقل ما، أي بها كليات الأشياء ؛ فكليات الأشياء، إذ هي في النفس خارجة من القوة إلى الفعل، هي عقل النفس المستفاد الذي كان لها بالقوة، فهي العقل الذي بالفعل الذي أخرج النفس من القوة إلى الفعل، والكليات متكثرة، كما قدمنا، فالعقل متكثر.»[45].

هذا النص يسمح لنا بالتعرف على طبيعة "العقل الأول" من خلال الأوصاف والخصائص التي خصّه بها "الكندي":

4- إنه أول العقول، بمعنى أنه قَبْلي وسابق على عقول الأفراد ؛
4- إنه هو الذي يُنتج عملية التعقل في العقول الفردية ؛
4- إنه أنواع الأشياء وكلياتها وأجناسها ؛
4- إنه بالفعل دائما ولا يكون بالقوة، ويسمى أيضا "العقل الفعّال" ؛
5- إنه هو الذي يُخرج "النفس" من "العقل بالقوة" إلى "العقل بالفعل" ؛
6- إنه متميز عن "العاقل" لأنه "عقل مُفارق" ؛

[44] رسائل الكندي، مصدر سابق، "رسالة العقل"، ص. 356، حيث يقول: "فهذه الصورة التي لا هيولى لها ولا فنطاسيا هي العقل المستفاد للنفس من العقل الأول، الذي هو نوعية الأشياء التي بالفعل أبدا، وإنما صار مفيدا والنفس مستفيدة، لأن النفس بالقوة عاقلة، والعقل الأول بالفعل.".

[45] "كتاب في الفلسفة الأولى"، ضمن "رسائل الكندي الفلسفية"، المصدر المذكور، ص. 154-155.

7- إنه "عقل" و"معقول": فهو "عقل" لأنه هو الذي يُخرج "العقل" من "القوة" إلى "الفعل"، و"معقول" لأنه هو "كليات الأشياء" التي يتم تعقلها ؛

4- إنه لا يخضع لقانون الكون والفساد، ولم نجد ما يدعونا إلى القول صراحة إنه خالد وأزلي كما يقول "أرسطو"، رغم أن "الكندي" يقول: "العقل الذي بالفعل أبدا"[46] ؛

4- أن "النفس" لا تصير عاقلة إلا عند اتحادها بهذا "العقل المفارق".

وتضعنا هذه الخاصية الأخيرة في بؤرة إشكالية المعرفة في تصور "الكندي"، فالمعرفة لا تأتي من المجهود الذاتي للنفس في التحصيل ومراكمة المعرفة، وإنما من اقتباسها من "عقل مفارق" خارج حدودها الأنطولوجية. فالذات هنا مُفرَغة من المحتوى المعرفي الذي أُسكِن في عالم الماهيات والكليات المُفارق. وإذا كان للإنسان عقل، فهو "عقل بالقوة" يتمتع بعطالة ذاتية أصلية.

وفي سياق آخر، نرى "الكندي" يؤيد نظرية "أفلاطون" في المعرفة كإشراق يَفيض من الباري تعالى على "النفس" المتجردة: «وهذه النفس التي هي من نور الباري، عز وجل، إذا هي فارقت البدن، عَلِمت كل ما في العالم، ولم يَخف عنها خافية، والدليل على ذلك قول أفلاطون، حيث يقول إن كثيرا من الفلاسفة الطاهرين القدماء، لمّا تجردوا من الدنيا وتهاونوا بالأشياء المحسوسة، وتفردوا بالنظر والبحث عن حقائق الأشياء، انكشف لهم علم الغيب، وعلموا بما يخفيه الناس في نفوسهم، واطلعوا على سرائر الخلق.»[47].

---

[46] رسالة العقل، ص. 353. أما "أرسطو" فيقول في "كتاب النفس": «العقل الذي بفعله تحدث كل الأشياء، فهو كموجود ما، شبيه بالنور [...]. وهذا العقل مفارق، غير منفعل، غير ممتزج، وهو من حيث الماهية [...] بالفعل[...] وهو متى فارق، لم يكن إلا ما هو عليه في ذاته، وهذا هو وحده اللامائت، الأبدي.»، مذكور في: "رسائل الكندي الفلسفية"، مقدمة المحقق، ص. 335-337.

[47] "رسالة القول في النفس"، المصدر السابق، ص. 274. ويقول أيضا: «إن النفس بسيطة ذات شرف وكمال عظيمة الشأن، جوهرها من جوهر البارئ عز وجل، كقياس ضياء الشمس من الشمس».

هذا النص ذو النفحة الصوفية-الإشراقية، وإن كان يختلف عن النظرية التي بلورها "الكندي" في جل رسائله، فإنه يلتقي مع الطرح السابق في مسألة مُفارقة المعرفة للعقل، وكلا الطرحين يُجرِّد "النفس" من المعرفة: "أرسطو" وضعها في "العقل الأول" أو "العقل الفعّال"، و"أفلاطون" أسكنها في "عالم المُثُل".

ولا تفوتنا الفرصة للتنويه بنظرية غاية في الطرافة والعمق يُعتبر فيها "النوم" عمقا للفكر، وأن "الرؤيا" هي المجال الذي تُبصر فيه "النفس" من خلال القوة المُصوِّرة، المعقولات المجردة. يقول "الكندي" : «فإذا استغرق الفكر مفكرا، حتى لا يستعمل شيئا من الحواس بَتَّةً، فقد تناهى به الفكر إلى النوم، وصارت قوته المُصوِّرة هي أقوى ما يكون على إظهار فَعَالِها، إذ ليس يشتغل من إعطاء نفسه صورة معاني أفكاره الحسية، فيراها كالحس، مجردة، لا فصل بينها بتة، بل مع فكره في كل ما فكر فيه تظهر له صورة الفكر مجردة أنقى وأبين وأزكى من المحسوسة.»[48].

فتخلُّص "النفس" من علائق وقيود الجسد يُحرِّرُها من سيطرة الحس. والنوم هو الفرصة التي تتجرد فيها "النفس" من أثقال المحسوسات ومن الاشتغال بعالم الهيولى الذي يُشوِّش صفاء الذهن. ثم إن النوم هو الجسر الذي تَعبُر من خلاله "النفس" إلى عالم المعقولات لِتستمِدّ الصور التي قد تكون تنبؤات بالوقائع المستقبلية إذا كانت الرؤيا واضحة وجَلِيّة[49].

تلتقي خيوط أفلاطونية مع ألياف رفيعة أفلوطينية لتُنسج في نسيج أرسطي يصعب الفرز فيه بين ما هو أصيل للكندي وبين ما هو شرح وعرض لنظريات غيره من الفلاسفة. لكن البيّن هو أن "الكندي" لم يَنجرّ تماما مع نظريات تتعارض مع العقيدة الدينية كما فعل بعض اللاحقين، فنراه لا يأخذ بإله أرسطو –المحرك الذي لا يتحرك- ولا يُؤله "العقل"، ولا يقول بقِدَم العالم، بل يُخصّص "رسالة للبرهنة على تناهي العالم". وفي الوقت

---

[48] نفس المصدر السابق، "رسالة الكندي في ماهية النوم والرؤيا"، ص. 296-297. ويقول في موضع آخر: «فالرؤيا إذن هي استعمال النفس الفكر ورفع استعمال الحواس من جهتها، فأما من الأثر نفسه فهي انطباع صور كل ما وقع عليه الفكر من ذي صورة، في النفس، بالقوة المُصوِّرة، لترك النفس استعمال الحواس ولُزومها استعمال الفكر.»، ص. 300.

[49] نفس المصدر السابق. وانظر كذلك درجات الرؤيا: المباشرة والرامزة والكاذبة، ص. 303 وما بعدها.

الذي يُبرهن فيه على خلود "النفس" ما دامت من جوهر إلهي، يكتب "رسالة في سجود الأفلاك" يشرح فيها آية قرآنية بمقاييس عقلية[50].

لكن كل ذلك لا يمنعه من اعتبار أن السعادة لا تتأتى إلا بالاتصال بالعقل الأول الذي يشكل لحظة انتقالية تُؤهله لشرف الاتصال بالبارئ عز وجل. ذلك أن موضوع الفلسفة الأشرف هو «علم الحق الأول الذي هو علة كل حق»[51]. إذن لا بد من العلم أولا، وهذا العلم لا يتم إلا من خلال الاتصال بالعقل الأول الذي يَفيض على عقل الفرد فيُفيده فيصبح مستفادا، ثم بعد ذلك يُشرف الفيلسوف على عالم الملأ الأعلى المُفارق.

نَخلُص إلى القول إن العقل عند "الكندي" مُوزَّع بين عالمين: عالم الإنسان وعالم ما وراء الطبيعة. فعقل الإنسان ليس سوى استعداد أو عقل بالقوة، وبتعبير صريح: عقل فارغ من كل مضمون معرفي. أما ما يملأ هذا "العقل" فهو العقل الأول المفارق. وكما يقول الأستاذ "محمد المصباحي": «لا يملك الإنسان جهازا لصنع المعقول، بل يملك فقط مرآة قابلة لانعكاسه فيها، وهذا ما يسلب المعرفة تاريخيتها وبشريتها.»[52].

وهكذا، ليس بوسعنا سوى القول إننا بدأنا مع "العقل" لننتهي إلى "اللاعقل". فقد بدأنا مع "عقل بالقوة" لم يكن سوى مجرد إمكان، لتنتهي بنا رحلة المعرفة في عالم "العقل الأول" المُفارق الذي هو خارج أفق الإنسان. ولأن هذا "العقل" يتعالى على الإنسان ويُفارق عالمه، فهو لأجل ذلك "لاعقل".

---

[50] أُنظر: "رسالة الإجابة عن سجود الجِرْم الأقصى وطاعته لله عز وجل"، ضمن رسائل الكندي، ص. 244–261.

[51] "كتاب الكندي في الفلسفة الأولى"، ص. 98.

[52] محمد المصباحي، من المعرفة إلى العقل، دار الطليعة، ط أولى، 1990، بيروت، ص. 20.

المصادر والمراجع:

أحمد فؤاد أهواني: الكندي فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، د ت، د ط.

الكندي: رسالة في حدود الأشياء ورسومها، ضمن "رسائل الكندي الفلسفية"، تح وتقديم محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، مصر، 1950.

محمد المصباحي، من المعرفة إلى العقل، دار الطليعة، ط أولى، 1990، بيروت.

الاقتصاد و إدارة الأعمال

دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية

دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية

إعداد   فؤاد غالب كردي حنني
جامعة القدس

الإهداء
إلى روح والدتي رحمها الله وأسكنها فسيح جناته
إلى زوجتي الغالية إلى والدي العزيز اطال الله في عمره وأشفاه
إلى أبنائي الأعزاء معن وميرا وحلا
إلى زوجتي الغالية   ريما
إلى شهداء شعبنا الابرار

الشكر والعرفان
أتقدم بالشكر الجزيل إلى إدارة جامعتي الحبيبة جامعة القدس وإلى جميع الزملاء و العاملين فيها
كما أتقدم إلى الأساتذة الأفاضل الذين ما بخلوا في المساهمة في تحكيم استبانه الدراسة ، وأخص بالذكر الدكتور عبد الوهاب الصباغ ، والدكتور جمال حلاوة من جامعة القدس – أبو ديس ، وإلى الدكتور مجيد منصور من جامعة النجاح
كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية الزراعية موضوع الدراسة على تعاونهم في تعبئة استبانه الدراسة
والشكر موصول إلى مديرية وزارة العمل في منطقة نابلس وجميع العاملين في مديرية وزارة العمل على تعاونهم معي من أجل إتمام هذا العمل وإخراجه إلى حيز الوجود

إلى كل هؤلاء جميعاً مني كل الاحترام والشكر والتقدير والعرفان،

الباحث : فؤاد غالب كردي حنني

الملخص بالعربية

أجرت هذه الدراسة في الفترة الزمنية الممتدة من شهر شباط لعام 2012 وشهر أيار من العام نفس ، وقد هدفت الدراسة إلى التعرف على واقع ودور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات الفلسطينية المحلية ، كما هدفت إلى التعرف على الفروق في واقع ودور الجمعيات التعاونية الزراعية في منطقة الدراسة تبعاً للمتغيرات المستقلة ، التحصيل العلمي ، عدد سنوات الانتساب للجمعية ، المهنة ، عدد سنوات العمل في الزراعة ، العمر الزمني للجمعية ، ظروف السوق الذي تعمل به الجمعية.

وقد خرجت الدراسة بمجموعة من النتائج ومنها أن هناك دور ايجابي للجمعيات التعاونية في المعرفة بمفاهيم العمل التعاوني ، كما أن تقييم لجان الإدارة لهذه الجمعيات كان ايجابياً أيضاً ، كما أظهرت نتائج الدراسة الضعف الكبير للجمعيات التعاونية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية الفلسطينية، وأن دورها في مجال تقديم منتجات جديدة كان ضعيفاً جداً ، كما أظهرت الدراسة عدم قدرة الجمعيات التعاونية واستعدادها على المنافسة في السوق المحلي، وذلك لعدم إلمامها بأعداد المنافسين المحليين وحتى الخارجيين ، كما أن دورها في خدمة العملاء كان ضعيف ودون المستوى المطلوب وأظهرت النتائج أيضاً عدم قدرة الجمعيات التعاونية على التعامل الإيجابي مع الموردين والموزعين وكانت قدرتها على سرعة القيام بالمهمات والأنشطة المختلفة بطيء ، في حين أخر أشارت النتائج إلى ضعف الجمعيات التعاونية في تنفيذ برامج التدريب وتحسين القدرات لأعضائها في مجال التنافسية لتحقيق مستويات جودة مناسبة لمنتجاتها كي تستطيع المنافسة في ظروف السوق المختلفة.

وأوصت الدراسة إلى ضرورة إصدار حزمة من الأنظمة والقوانين والتشريعات الناظمة والداعمة للعمل التعاوني ، والمساعدة في نشر ثقافة العمل التعاوني في المجتمع الفلسطيني من خلال وسائل الإعلام المختلفة ، كما أوصت الدراسة إلى ضرورة ،إعادة الاعتبار للتعاونيات الزراعية في إصدار شهادة المنشأ للمنتجات الزراعية ، والتي تفيد في تعزيز التصدير للسوق الخارجي وتعزز من دور التعاونيات في العملية الاقتصادية ، وإلى ضرورة المساعدة في تدريب كادر الجمعيات التعاونية الأعضاء والعاملين فيها على كيفية تعزيز وتبني نظام الجودة الشاملة في عملها ، وإلى ضرورة المساعدة في تقديم المنح والتسهيلات البنكية وتعزيز الإقراض الزراعي كي تتمكن التعاونيات من الاعتماد على ذاتها في المساهمة في تطوير المنتجات المحلية وتعزيز قدرتها التنافسية للوقوف أمام المنافسين

Abstract
Conducted this study in the time period from February of 2012 and May of this year the same, have study aimed to identify the reality and the role of agricultural cooperatives in promoting the competitiveness of Palestinian products local, also aimed to identify differences in the reality and the role of agricultural cooperatives inthe study area depending on the independent variables, educational attainment, number of years of membership of the organization, profession, number of years of employment in agriculture, the chronological age of the Assembly, the market conditions in which they operate Assembly . Has emerged study a range of results, including that there is a positive role of cooperative societies in the knowledge concepts collaborative work, and the assessment of the management committees of these associations was positive too, as results showed great weakness for cooperative societies in promoting the competitiveness of local products Palestinian, and that their role in the field of introduce new products was very weak, as the study showed the inability of cooperative societies and their willingness to compete in the domestic market, due to lack of familiarity with local competitors numbers and even external. The role in the customer service was weak and substandard The results also showed the inability of cooperative societies to deal positively with suppliers and distributors were able to speed to do tasks and activities of various slow, while other results indicated weak cooperative societies in the implementation of training programs and improved capacity for its members in the field of competitiveness to achieve quality levels suitable for their products so that they can compete in different market conditions

The study recommended the need to pack version of regulations, laws and legislation governing and supporting cooperative work, and to assist in spreading the culture of collaborative work in Palestinian society through various media, as recommended by the study to the need, rehabilitation of agricultural cooperatives in the issuance of a certificate of origin for agricultural products, which are useful for promote export to foreign markets and enhance the role of cooperatives in the economic process, and the need to help train a cadre member cooperatives and their employees on how to promote and adopt a comprehensive quality system in their work . And the need to assist in the provision of grants and bank facilities and promote agricultural lending to enable the cooperatives to be self-reliant in contributing to the development of local products and enhance their competitiveness to stand in front of rivals

الفصل الأول

المقدمة وأساسيات الدراسة

مقدمة

لقد لعبت الزراعة تاريخيا دورا هاما بل ومركزيا في الاقتصاد والحياة الفلسطينية بشكل عام، حيث وفرت عبر التاريخ الدخل الرئيسي والثانوي لشرائح واسعة وكبيره من السكان، كما شكل امتلاك الأراضي والمنتجات الزراعية والعيش في الريف وفي إطار بنية الحياة الريفية، عناوين ورموز مهمة للهويه والثقافة الفلسطينية. وبرغم تراجع هذا الدور خلال العقود الماضية إلا أن الزراعة ما زالت تشكل حيزا هاما في مجمل مناحي حياة الفلسطينيين.

واليوم فان الزراعة تشكل مصدر دخل رئيسي لقرابة 10% من الرجال و30% من النساء، كما وتشكل 10.8% من الناتج المحلي الإجمالي أي 856 مليون دولار، كما وتشغل ألزراعه قرابة 16% من قوة العمل الفلسطينية، ويستهلك هذا القطاع 65% من المياه المتوفرة وقسم كبير من الطاقة الموجودة. وفي ظل تزايد راتب العمل في الزراعة عن الرواتب

الأخرى (39% مقابل 27%)، فان القيمة الكلية والدخل الصافي من الإنتاج الزراعي والمعالجة والمبيعات الزراعية قد تناقصت في السنوات الخمس الماضية، ويزيد من تفاقم هذا الوضع تواصل الإجراءات الإسرائيلية (من استيطان وجدار الفصل العنصري.. الخ) ضد الأرض والزراعة الفلسطينية، حيث بلغ مجموع خسائر القطاع الزراعي الفلسطيني خلال الأربع سنوات ألماضيه 1.2 مليار دولار والتي تشكل ما نسبته 10% تقريبا من إجمالي الخسائر الفلسطينية لنفس الفترة . ويشكل هذا تحديا وإنذارا مع التزايد السريع للسكان وتزايد الطلب على المواد الغذائية، بكمية أكبر وجوده أفضل. ولكن في الوقت الحاضر، فان المنتجات الزراعية والإقليمية تتزايد بوتيرة أسرع من تزايد السكان.

ولذلك فان تطوير مكانة الزراعة ومدلولها الاقتصادي يتطلب ان تقوم فلسطين عبر الوقت بتزويد السكان بنوعية طعام جيدة وذلك من خلال التخطيط وتدريب الكوادر البشرية.

و يعٌد تفعيل دور مختلف المؤسسات على مختلف قطاعاتها الحكومية والأهلية ومنها الجمعيات التعاونية الزراعية من أهم السياسات التي تساهم في تحسين كفاءة إنتاج الغذاء وزيادة القدرة التساومية "Bargaining Power " للمنتجين الزراعيين وخاصة في إطار تزايد القوى السوقية للمشترين ,(Folwell et al.,1998) كما تمثل دوراً بارزاً في تخفيض التكاليف الإنتاجية بما يفيد كل المتعاملين منتجين كانوا أم مستهلكين، فعن طريق الجمعيات التعاونية يمكن إتباع أحدث الوسائل الإنتاجية والتسويقية باعتبارها إطاراً مناسباً للتنسيق التسويقي الأفقي "Horizontal Marketing Coordination" (Caves, 1987).

ولم يعد أيضا التركيز على بناء المؤسسة وفي أي الميادين تعمل ، بل ينصب العمل اليوم على جودة ما تقدمه هذه المؤسسات من سلع وخدمات ومقدار التميز الذي تحققه في سبيل بقائها واستمرارها .لقد شغل موضوع الميزة التنافسية اهتمام الباحثين وتوسعت المدارك والمفاهيم المتعلقة بذلك وقد أخذ هذا المفهوم في الانتشار مع كتابات مايك بورتر بشأن الإستراتيجية التنافسية والميزة التنافسية والتي تعرف على أنها : قدرة المنظمة والمؤسسة على صياغة وتطبيق الاستراتيجيات التي تجعلها في مركز واهتمام أفضل بالنسبة للمنظمات والمؤسسات الأخرى العاملة في نفس النشاط وتحقيق الميزة التنافسية من خلال الاستغلال الأمثل للإمكانيات والموارد الفنية والمادية والمالية والتنظيمية والمعلوماتية بالإضافة إلى القدرات والكفاءات وغيرها من الإمكانيات التي تتمتع بها المنظمة والتي يمكنها من تصميم وتطبيق إستراتيجيتها التنافسية . ويرتبط تحقيق الميزة التنافسية ببعدين أساسين ، هما

القيمة المدركة لدى العميل وقدرة المنظمة أو المؤسسة على تحقيق التميز (الدراركة ، مأمون ، وشبلي ، طارق ، الجودة في المنظمات الحديثة ، دار الصفاء للنشر ، عمان ،2002(

2.1مشكلة الدراسة

هناك نقص كبير في معرفة الدور الحقيقي لهذا القطاع وخاصة التعاونيات الزراعية في مجال تعزيز بنية الاقتصاد الفلسطيني ومدى إسهام هذا القطاع في العملية الاقتصادية والتنموية المحلية .َإضافة إلى نقص المعلومات حول الميزة التنافسية للسلع والخدمات التي تقدمها التعاونيات الزراعية الفلسطينية ومقدار حجم السوق ومجال التركيز على هذه السلع والخدمات المقدمة منها لجمهور الأعضاء والمواطنين يشكلا عام . وتتمثل مشكلة الدراسة في التعرف إلى دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية .

3.1مبررات وأهمية الدراسة

- نقص المعرفة والمعلومات الكاملة التي توضح الدور التنموية للتعاونيات الزراعية
- حصر قدرت ومجالات الجمعيات التعاونية في تحقيق الميزة التنافسية بمنتجاتها
- رصد المعيقات التي تعترض تطبيق إستراتيجية تنافسية وبالتالي ميزة تنافسية لمنتجات الجمعيات الزراعية التعاونية
- رغبة لدى الباحثة حيث تندرج هذه الدراسة ضمن مشروع التخرج من الجامعة
- نقص الدراسات والأبحاث التي عالجت الميزة التنافسية في عمل الجمعيات التعاونية وبالتالي تعتبر هذه الدراسة من الدراسات الأولى التي تبحث هذا الموضوع

4.1أهداف الدراسة

تتمثل أهداف الدراسة في الآتي:

الهدف الرئيس الأول وهو :التعرف على واقع ودور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات الفلسطينية المحلية

الهدف الثاني : التعرف على الفروق في واقع ودور الجمعيات التعاونية الزراعية في منطقة الدراسة تبعاً للمتغيرات المستقلة ، التحصيل العلمي ، عدد سنوات الانتساب للجمعية ، المهنة ، عدد سنوات العمل في الزراعة ، العمر الزمني للجمعية ، ظروف السوق الذي تعمل به الجمعية

5.1مجتمع الدراسة

يمثل مجتمع الدراسة أعضاء الهيئات الإدارية للجمعيات التعاونية الزراعية بمختلف أنواعها وأعضاء لجان الرقابة فيها العاملة حسب تصنيف دائرة التعاون في وزارة العمل الفلسطينية ، في محافظة نابلس إضافة إلى مدراء التعاون في وزارة العمل وخبراء التعاون في وزارة الزراعة وعددهم ستة خبراء من الوزارتين

6.1أداة الدراسة

من أجل تحقيق أهداف الدراسة تم تصميم استمارة خاصة بأعضاء الهيئات الإدارية للجمعيات التعاونية .إضافة إلى استمارة مقابلة للخبراء في مجال العمل التعاوني في وزارتي الزراعة والعمل الفلسطينية

7.1أسئلة الدراسة

تسعى الدراسة للإجابة عن السؤال الرئيسي الآتي من وجهة نظر أعضاء لجان الإدارة والرقابة "ما واقع دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية

كما تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة الفرعية الآتية :

هل يوجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (α=0.05) في إجابات المبحوثين حول دور وواقع الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية تعزى لمتغيرات:

- عدد الأعضاء المنتسبين للجمعية
- النشاط الإنتاجي للجمعية التعاونية
- عدد سنوات عمل الجمعية في الزراعة
- العمر الزمني للجمعية التعاونية
- عدد العاملين في الجمعية

8.1حدود الدراسة :

حدود مكانية : تغطي هذه الدراسة الجمعيات التعاونية الزراعية العاملة في منطقة نابلس الجغرافية فقط

حدود بشرية : أعضاء لجان الإدارة للجمعيات التعاونية ،إضافة إلى المتخصصين في العمل التعاوني

حدود زمانية : شباط 2012 حتى أيار 2012

الفصل الثاني
الإطار النظري والدراسات السابقة
Theoretical framework and previous studies

1.2 مقدمةIntroduction

إن النظام التعاوني يشتمل العديد من أنماط النشاط الجماعي بين الأفراد المتمثل في العون والتضامن والمساعدة المتبادلة ، وذلك لتحقيق أهداف اقتصادية لا يمكن أن تتحقق بالمجهود الفردي، وقد كان لتطور العلم والمعرفة واستخدام الإنسان لمعطيات العلم في تطوير وسائل الإنتاج واستخدام الآلة على نطاق واسع وزيادة الإنتاج الأثر الأكبر في ظهور التعاون المنظم كوسيلة وأداة أصلاحية وتصحيحية في المجتمع والذي برز بصورة واضحة في أعقاب الثورة الصناعية في أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر كرد فعل للمساوئ الناجمة عن تراجع الرأسمالية، خاصة بالنسبة للفلاحين والطبقة العاملة، وتمثلت هذه الآثار السيئة للنظام الرأسمالي المتدهور في الاستغناء عن أعداد كبيرة من العمال، وانتشار البطالة، وانخفاض في مستوى المعيشة، واستغلال النساء والأطفال في الإنتاج الرأسمالي لانخفاض أجورهم ، وظهور كثير من الأمراض والعلل الاجتماعية الخطيرة، ويعد روبرت أوين 1771-1858 الأب الروحي للتعاون والذي حاول تطبيق أفكاره الإصلاحية عن طريق جمع جهود العمال تعاونياً، وعلى الرغم من الإخفاقات التي لازمت التجربة إلا أنها كانت كافية لانطلاق التجربة التعاونية العالمية الرائدة لرواد روتشيديل، حيث اجتمع في 15 أغسطس 1843، 28 عاملاً من بينهم امرأة بمدينة روتشيديل الإنجليزية معلنين أول جمعية تعاونية في العالم.. ومن ثم انتقلت التجربة الناجحة إلى بقية المدن البريطانية وإلى بقية دول العالم.(أبو الخير1986(

2.2أهمية العمل التعاونيImportance of collaborative work

يعتبر التعاون نظام لتحرير الاقتصاد وإطلاق للقوى المنتجة من عقالها وهو يمكن أن يكون الدواء الناجع لعلاج الكثير من المشكلات اليومية للسوق التي أصبحت اليوم مشكلات مزمنة بل أدت إلى اختناقات تموينية.. وفي آخر الأمر إلى ضائقة الغلاء.. بل أن الحركة التعاونية بما يمكن أن نضيفه من ثقافة جديدة في الوعي الزراعي والتجاري والإنتاجي، وبما تثري به المواطن من تجارب في المجالات الاقتصادية, وبما تبتدع من وسائل علمية لتطوير الإنتاج والعلاقات الإنتاجية، وبأثرها السلوكي على البناء القومي للمجتمع فإنها وسيلة حية لتعليم الشعب وتربيته. فالشعوب تتعلم بالممارسة وهي تتعلم أسرع عن طريق العمل الجماعي وبصفة خاصة عندما تكون وسيلة العمل

الأساسية هي الديمقراطية التعاونية التي تتيح للأعضاء حرية التعبير عن الرأي وتساعد على التوصيل للقرارات الرشيدة عن طريق الحوار الهادف.. ثم هي تشعر الأعضاء بأنهم يصنعون مستقبلهم بأفكارهم وتخطيطهم ومجهودهم في العمل مما يجعل الوحدة في الفكر وفي العمل شاملة للتخطيط والتنفيذ. إن جوهر التعاون وطبيعته وظروف نشأته تقضي بحرية واستقلال ومساواة أعضاء التعاونية وتسيير ورقابة جمعيتهم التعاونية وهو ما يعبر عنه ويترجمه مبدأ الديمقراطية التعاونية الذي يعني الاعتراف بالسلطة العليا وعلي قدم المساواة لكافة الأعضاء الذين تكونت منهم ومن أجلهم الجمعية التعاونية فيكون لهم حق وسلطة قيادتها وتقرير مصيرها بحيث لا تكون حركة جمعيتهم مفروضة بواسطة سلطة خارجية وإنما تكون هذه الحركة خاضعة للإرادة الجماعية للأعضاء كما تكون معبرة عن مصالحهم ومشبعة لحاجاتهم المشتركة والتي تكونت الجمعية بغرض إشباعها أفضل إشباع ممكن. يتحقق ذلك في الواقع العملي عن طريق ممارسة الأعضاء لحقوقهم وسلطاتهم كمنتجين وزراعيين وكأعضاء تعاونيين من خلال تشكيلاتهم الديمقراطية وأهمها الجمعية العمومية ومجلس الإدارة. ولا شك إن الديمقراطية التعاونية تعتبر بمثابة الأصل التعاوني العام الذي يتعين احترامه كقاعدة عامة تحكم الجمعيات التعاونية بكافة أنواعها(محمد العتيبي(

3.2مفهوم التعاونCooperation concept

يعرف التعاون على أنه نوع من أنواع التنظيم ترتبط فيه جماعة من الناس ارتباطاً اختيارياً بصفتهم الإنسانية على قدم المساواة لإعلاء شأن مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية (المؤسسة التعاونية الأردنية 2008.)

في حين يعرف برتراند " 1958 “ Bertrand أن التعاون هو أي شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي يشمل شخصين أو أكثر أو مجموعة من الأفراد الذين يعملون معاً لتحقيق أهداف عامة .ويعرف الخشاب ، التعاون بأنه عملية اجتماعية يرجع الفضل في ترويض الأفراد عليها للأسرة أولا ثم البيئة الخارجية (الخشاب 1965 (

4.2تعريف الجمعية التعاونية Definition of the Cooperative Association

عرف التشريع الفلسطيني الجمعية التعاونية بأنها مؤسسة اقتصادية يرتبط أعضاؤها طوعاً بمساهمتهم الذاتية وملكيتهم المشتركة وإدارتهم ومراقبتهم الديمقراطية ، وتمارس نشاطها بصفتها الاعتبارية لتلبية احتياجاتهم وطموحاتهم المشتركة في مجالات التوريد والإنتاج والتسويق والتصنيع والاستهلاك والسكن والتعليم والصحة والبيئة .(وزارة العمل 1997 (

تعريف جامعة كاليفورنيا عام 1957، حيث عرفت الجمعية التعاونية بأنها منظمة اختيارية من الأفراد تجمعهم مصلحة مشتركة يسير العمل بها على أسس ديمقراطية ، بغرض تزويد الأعضاء بالخدمات بسعر كلفتها (أبو الخير 1979 ،ص97.(

5.2المبادئ يقوم عليها العمل التعاوني Principles of cooperation

استنادا إلى الدور الكبير الذي جسدته وما زالت تجسده الجمعيات التعاونية والحركة التعاونية بشكل عام في العديد من البلدان والدول المختلفة ، في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية وما حققته من نتائج إيجابية على هذين الصعيدين فقد تم تأسيس التحالف التعاوني الدولي بلندن عام 1895 كمؤسسة ناظمة وداعمة لتوجهات العمل التعاوني على مستوى العالم ، كما أكدت مبادئ التحالف على شعبيته الحركة التعاونية على مر العصور وانتمائها لمصلحة الأفراد والجماعة لتحقيق أهدافها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها .ومن أهم هذه المبادئ : (شومان 1979(

• العضوية الاختيارية المفتوحة : التعاونيات منظمات مفتوحة لكل الأشخاص دون تمييز جنسي أو اجتماعي أو عرقي أو سياسي أو ديني وتتمتع التعاونيات بالحياد تجاه الجميع.

• الإدارة الديمقراطية للتعاونيات : التعاونيات منظمات ديمقراطية يحكمها أعضاؤها ويشاركون في سياساتها واتخاذ القرار عن طريق ممثليهم المنتخبين ديمقراطيا والممثلون مسئولون أمام ناخبيهم وللأعضاء حقوق تصويت متساوية عضو واحد صوت واحد وعلى المستويات الأعلى تدار التعاونيات وتنظم بأسلوب ديمقراطي

• مساهمة العضو الاقتصادية : يساهم الأعضاء بعدالة في رأس مال تعاونيتهم الذي يكون ملكية تعاونية , ويتلقى الأعضاء تعويضا عن رأس المال المسهم به ويمكن تخصيص الفائض لتطوير التعاونية و دعم الأنشطة الأخرى التي يوافق عليها الأعضاء ويوزع الباقي على الأعضاء بنسبة تعاملهم مع التعاونية.

• الإدارة الذاتية المستقلة :التعاونيات منظمات ذاتية الإدارة يديرها أعضاؤها ويؤمنون تمويلها المالي ويمكن لهم التعاون مع منظمات أخرى أو مع الحكومات سواء بالإدارة أو التمويل شرط تأكيد الإدارة الديمقراطية لأعضائهم والمحافظة على التحكم الذاتي التعاوني.

• التعليم والتدريب والإعلام (الثقافة التعاونية): تقدم التعاونيات التدريب والتعليم لأعضائها ولقياداتها المنتخبة ومديرها وموظفيها ليستطيعوا أن يساهموا بفعالية لتنمية تعاونياتهم

• التعاون بين التعاونيات : تخدم التعاونيات أعضاءها بكفاءة أكثر وتقوى الحركة التعاونية بالعمل سويا من خلال مؤسسات محلية وإقليمية ودولية

• الاهتمام بالمجتمع : تعمل التعاونيات من أجل التنمية المتواصلة لمجتمعاتها من خلال سياسات يوافق عليها الأعضاء .(الشيشكلي2007 (

• الحياد الديني والسياسي ، بحيث لا تقبل العضوية في الجمعيات التعاونية على أساس الانتماء السياسي أو الاعتناق الديني ، إضافة إلى مبدأ آخر وهو التعامل نقداً في معاملات الجمعية بين الأعضاء لأن التعامل غير النقدي سيؤدي إلى إضعاف الجمعية التعاونية من خلال إضعاف رأس مال الجمعية نتيجة للتعامل غير النقدي (الحيالي 2002 (

6.2الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للجمعيات التعاونية conomic and social importance of cooperative societies

تظهر أهمية الجمعية التعاونية كمؤسسة اقتصادية واجتماعية في كونها تسهم في تحقيق مزايا تتعلق بالاتي:

• توفير البيئة المناسبة لنمو وازدهار الاستثمارات المتوسطة والصغيرة
• التعاونيات وعاء جيد لتنفيذ برامج التنمية البشرية
• التعاونيات أداة جيدة وفاعلة لمواجهة مشكلة البطالة
• الإحلال محل الدولة في ملكية الأصول الخاضعة للخصخصة
• دعم وتطوير أنشطة القطاعات غير الرسمية في الاقتصاد
• المساهمة في برامج الإرشاد الزراعي الريفي

ويتوقف نجاح هذا الدور على خطوات الإنشاء والتأسيس الجيد للتعاونيات وفقاً لأسس وقيم ومبادئ التعاون(محمد، العتيبى ،2010(

7.2حاجة المؤسسات إلى التطوير المستمر

تنشط المؤسسات في بيئة تتميز بالتغيير المستمر والسريع،وهو ما أجبرها على البحث عن الحلول المناسبة التي تسمح لها بالتكيف بنجاح مع الظروف البيئية المتغيرة،ومنه ضمان الاستمرارية والنمو..،وقد تصل المؤسسات إلى ذلك بوجود مديرين وإطارات مبدعين ويتوقعون التغيير وقادرين على إدارته، مع انتهاج أساليب جديدة للتغيير.

إن إعادة الهندسة تعتبر أحد التقنيات أو الأساليب التي لها الأثر البالغ في إنجاح العملية التطويرية بالمؤسسة،وإعادة ترتيب الأعمال،من خلال إحداث تغيير جذري مطلوب في المؤسسة يؤهلها لكيفية أدائها لنشاطاتها المختلفة بهدف تحسين الأداء وذلك على كل المستويات،التصميم،التشغيل وغيره من

العمليات التي تدفع بالمؤسسة نحو أحسن مرد ودية وأحسن استغلال وتسيير لمواردها المتاحة بهدف الرفع من القدرات التنافسية للمؤسسة وبالتالي ضمان مكانة مرموقة في السوق في ظل قانون تناقص الأرباح،وفي ظل الأوضاع البيئية الراهنة التي تتميز بالتعقيد والتغير السريع، وميزتها الأساسية أنها عابرة للحدود(غول فرحات ،2011 (

إن إعادة هندسة المؤسسات أصبحت أمرا حتميا في ظل التغيرات التي تعرفها البيئة المحلية والدولية على شتى الأصعدة،وبالأخص التطور التكنولوجي المذهل في تكنولوجيا المعلومات،التي تسمح للمؤسسات بإعادة تصميم تنظيمها بصفة جذرية،ولكيفية أداء نشاطاتها وعملياتها المختلفة،وذلك بتجاوز التقسيم التقليدي للأعمال والعمل على شكل وظائف متخصصة في مجال معين،بينما تصبح عبارة عن مجموعة من الإجراءات والأنشطة المتكاملة وما ينتج عنها من أشياء ذات قيمة مرتفعة ومتميزة،تثير رغبة المستهلك وتؤثر على قراراته الشرائية،والنتيجة الختامية من وراء ذلك هي تصغير حجم المؤسسات الناجمة عن تخفيض القوى العاملة ودمج الوظائف بفعل استخدام الحاسبات الآلية مع محافظة المؤسسة على تحقيق الإيرادات السابقة وأكثر منها(حسين ، حريم 2003 (

8.2مفهوم الميزة التنافسيةCompetitive Advantage

إن مصطلحا التنافسية والمنافسة من المصطلحات الأكثر انتشارا ورواجاً في عصرنا الحاضر على المستويات الاقتصادية والسياسية والقطاعية الأخرى ، حيث يركز مصطلح التنافسية على المستوى الاقتصادي في يشير مصطلح المنافسة على مستوى المؤسسة ، وعلية فأنة لا يوجد تعريف موحد لموضوع التنافسية والاختلاف في ذلك يرجع إلى بالأساس إلى الزاوية التي يتناول منها كل كل باحث في هذا الشأن بحث يكون هناك اختلاف في مفهوم التنافسية على المستوى الكلي (الدولة) عنة على المستوى الجزئي (مستوى المؤسسة) وذلك كما يأتي :

- مفهوم التنافسية على المستوى الكلي (الدولة (

يوضح تقرير التنافسية العالمية ، التنافسية على أنها تعني مدى مقدرة دولة ما على تحقيق معدل مرتفع من نمو حصة الفرد في المجتمع من الناتج المحلي ، وبالتالي فأن القدرة التنافسية وحسب هذا التقرير والصادر عن المنتدى الاقتصادي العالمي هي التي تعكس وتفسر الصفات الهيكلية لكل اقتصاد وطني.

في حين تشير المنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية ، بأن التنافسية على المستوى الاقتصادي القومي لدولة ما بأنها الدرجة التي يمكن وفقها إنتاج

السلع والخدمات الموجهة للأسواق الدولية بحيث تحافظ على المداخيل الحقيقية لمواطنيها وتوسع فيها على المدى الطويل على أن يكون ذلك وفق سوق حرة وعادلة

- مفهوم التنافسية على المستوى الجزئي (المؤسسة (

هناك من يرى ومنهم (MC Fetridge) بأن الميزة التنافسية لمؤسسة ما يمكن أن تتحقق في حالة ما إذا كان باستطاعتها أن تحتفظ بمستوى مرتفع من الإنتاجية والأرباح مقابل انخفاض التكاليف وارتفاع الحصة السوقية دون أن يكون ذلك على حساب الأرباح

في حين يعرفها (علي السلمي) بأنها مجموعة المهارات والتكنولوجيات والقدرات التي تستطيع الإدارة تنسيقها واستثمارها لتحقيق ، إنتاج قيم ومنافع للعملاء أعلى مما يحققه المنافسون ، وكذلك تأكيد حالة دائمة من التميز والاختلاف فيما بين المنظمة أو المؤسسة ومنافسيها (أحمد بلالي ،2005 (

9.2تعريف الميزة التنافسية Definition of competitive advantage

يعرف مايكل بورتر 1996 الميزة التنافسية على أنها تنشأ بمجرد توصل المؤسسة إلى اكتشاف طرق جديدة أكثر فاعلية من تلك المستعملة من قبل المنافسين ، حيث يكون بمقدورها تجسيد هذا الاكتشاف ميدانياً أو من خلال إحداث عملية إبداع بمفهومه الواسع.

كما تعرف (خليل ، م ،1998) بأنها ميزة أو عنصر تفوق للمؤسسة يتم تحقيقه في إتباعها إستراتيجية معينة للتنافس .

في حين يعرفها (السلمي ، ع ،2001) القدرة التنافسية هي المهارة أو التقنية أو المورد المتميز الذي يتيح للمنظمة إنتاج قيم ومنافع للعملاء تزيد عما يقدمه لهم المنافسون، ويؤكد تميزها واختلافها عن هؤلاء المنافسين من وجهة نظر العملاء الذين يتقبلون هذا الاختلاف والتميز، حيث يحقق لهم المزيد من المنافع والقيم التي تتفوق على ما يقدمه لهم المنافسون الآخرون.

كما أن إستراتيجية التنافس توضح على أنها مجموعة متكاملة من النشاطات والتصرفات التي تؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق ميزة تنافسية متواصلة ومستمرة عن المنافسين مستندة على أسس ومنها ، طريقة التنافس ، وحلبة ، وأساس التنافس والشكل التالي يوضح هذه الإستراتيجية .(خليل ، ن 1998 (

10.2تحديات البيئة التنافسية وفقا لنموذج مايكل بورتر Michael Porter’s model

يوضح مايكل بورتر مجموعة مؤثرات البيئة الخارجية على تنافسية المؤسسة في إطار تحليله لهيكل الصناعة في الدول المتقدمة . تحليلا هيكليا لقطاعات النشاط المختلفة وقوى المنافسة الفاعلة فيها . ضمن ما أصبح ما يعرف

بنموذج قوى المنافسة لبورتر ، حيث يؤكد بورتر من خلال هذا النموذج على أن العامل الأول الذي يحدد مردودية المؤسسة ضمن قطاع معين هو جاذبية هذا القطاع والذي يصنعها تجاذب قوى المنافسة بداخله ، والأمر الأخر هو الوضعية التنافسية النسبية لمؤسسة ما بالنسبة لمنافسيها . وبرأي بورتر ونتيجة للاستجابة لتفاعل هاذين العاملين نجد أن هيكل القطاع يمارس تأثيراً كبيراً في تحديد قواعد اللعبة التنافسية وعلى الاستراتيجيات التي تستطيع المؤسسة اعتمادها ، حيث أن المنافسة في قطاع ما يجب أن تتجاوز سلوك المنافسين الموجودين ، بلى يجب أن تتعداهم إلى باقي القوى الأخرى التي تحكم مع بعضها البعض قواعد اللعبة التنافسية وتصبح بمقدورها تحديد ربحية القطاع على أساس أن درجة الربحية تقاس بمر دودية رأس المال المستثمر على المدى الطويل مما يخلق انعكاس مباشر وإيجابي على الميزة التنافسية المستمرة للمؤسسة . (أحمد بلالي ،2005)

11.2أنواع الميزة التنافسيةTypes of competitive advantage

يمكن التمييز بين نوعين أساسيين من الميزة التنافسية يتعلق الأول بميزة التكلفة ويتعلق الآخر بميزة التميز وذلك كما يأتي

o ميزة التكلفة الأقلleast cost advantage

يمكن لمؤسسة ما أن تحوز ميزة التكلفة الأقل إذا كانت تكاليفها المتراكمة بالأنشطة المنتجة للقيمة أقل من نظيرتها لدى المنافسين، وللحيازة عليها يتم الاستناد إلى مراقبة عوامل تطور التكاليف، حيث أن التحكم الجيد في هذه العوامل مقارنة بالمنافسين يكسب المؤسسة ميزة التكلفة الأقل، ومن بين هذه العوامل مراقبة التعلم: بحيث أن التعلم هو نتيجة للجهود المتواصلة والمبذولة من قبل الإطارات والمستخدمين على حد السواء، لذلك يجب ألا يتم التركيز على تكاليف اليد العاملة فحسب، بل يجب أن يتعداه إلى تكاليف النفايات والأنشطة الأخرى المنتجة للقيمة، فالمسيرون مطالبون بتحسين التعلم وتحديد أهدافه، وليتم ذلك يستند إلى مقارنة درجة التعلم بين التجهيزات والمناطق ثم مقابلتها بالمعايير المعمول بها في القطاع.

O ميزة التميز feature of Excellence

تتميز المؤسسة عن منافسيها عندما يكون بمقدورها الحيازة على خصائص فريدة تجعل الزبون يتعلق بها ، وحتى يتم الحيازة على هذه الميزة يستند إلى عوامل تدعى بعوامل التفرد، والتي نميز من بينها التعلم وآثار بثه: بحيث قد تنجم خاصية التفرد لنشاط معين، عندما يمارس التعلم بصفة جيدة، فالجودة الثابتة في العملية الإنتاجية يمكن تعلمها، ومن ثم فإن التعلم الذي يتم امتلاكه بشكل شامل كفيل بأن يؤدي إلى تميز متواصل.

12.2معايير الحكم على جودة الميزة التنافسية Criteria for judging the quality of competitive advantage
تتحدد بثلاث ظروف، هي :

- مصدر الميزةSource feature

نميز بين نوعين من المزايا وفقاً لهذا المعيار:

o مزايا تنافسية منخفضة: تعتمد على التكلفة الأقل لقوة العمل والمواد الخام، وهي سهلة التقليد نسبياً من قبل المنافسين.

O مزايا تنافسية مرتفعة:تستند إلى تميز المنتج أو الخدمة، السمعة الطيبة أو العلامة التجارية، العلاقات الوطيدة بالعملاء، وتتطلب هذه المزايا توافر مهارات وقدرات عالية المستوى مثل تدريب العمال.

- عدد مصادر الميزة التي تمتلكها المؤسسة Number of sources feature possessed by the institution

إنّ اعتماد المؤسسة على ميزة تنافسية واحدة يعرضها إلى خطر سهولة تقليدها من قبل المنافسين، لذا يستحسن تعدد مصادر الميزة التنافسية لكي تصعب على المنافسين تقليدها.

- درجة التحسين، التطوير والتجديد المستمر في الميزة The level of continuous improvement in feature

تقوم المؤسسات بخلق مزايا جديدة وبشكل أسرع لتفادي قيام المؤسسات المنافسة بتقليد أو محاكاة ميزتها التنافسية الحالية، لذا تتجه لخلق مزايا تنافسية من المرتبة المرتفعة، كما يجب على المؤسسة أن تقوم بتقييم مستمر لأداء ميزتها التنافسية ومدى سدادها بالاستناد على المعايير السائدة في القطاع، كما يمكنها إثراء هذه المعايير بهدف التقييم الصائب لها ومعرفة مدى نجا عتها، وبالتالي اتخاذ القرار في الاحتفاظ بها أو التخلي عنها في حالة أنها لا تحقق هدفي التفوق على المنافس والوفرات الاقتصادية.

13.2الدراسات السابقة

- دراسة سامية لحول ، 2008 ، بعنوان التسويق والمزايا التنافسية

دراسة حالة مجمع صيدال لصناعة الدواء في الجزائر وقد هدفت الدراسة إلى : الوقوف على مدى التغيير والتطور في الأوضاع الاقتصادية العالمية الجديدة. التعرف على مدى التغيير والتطور الذي خضع له التسويق من حيث اتساع وظائفه وتعدد مجالات تطبيقه وتنوع أدواره واعتماده كأسلوب لمعالجة المشاكل. ،التعرف على دور التسويق في حل إشكالية التنافسية وبناء المزايا التنافسية واستدامتها. ، الكشف عن حقيقة العلاقة بين التسويق والتفكير الإستراتيجي للمنظمة. ، التعرف على الأوضاع المحيطة بصناعة

الدواء على مستوى العالم والجزائر. ، التوصل إلى أهم محددات الميزة التنافسية لصناعة الدواء في الجزائر وأساليب تدعيمها.
وتمثلت أسئلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي : ما دور التسويق في تحقيق المزايا التنافسية في ظل محيط تنافسي؟. ما هو دور التسويق في تحقيق المزايا التنافسية لمجمع صيدال لصناعة الدواء؟
واشتملت الدراسة على مجموعة من الفرضيات ومنها:
o إن تنافسية الجزائر على مستوى صناعة الدواء تعتبر فرصة وركيزة مهمة للاندماج في الاقتصاد العالمي .
O تزداد تنافسية صيدال بإتباع مسار التسويق الإستراتيجي والتكتيكي

وقد مثل عينة الدراسة مجمع صيدال لصناعة الدواء كعينة للبحث لما له من ثقل صناعي ،وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي القائم على تشخيص الحالة واختبار الفرضيات، حيث تم اختيار مجمع صيدال باعتباره ممثل لصناعة الدواء بالجزائر كعينة للدراسة ، وقد خرجت الدراسة بمجوعة من التوصيات ومنها : ضرورة دمج المنظمات الدوائية الوطنية لتحقيق التكامل والدعم لتنافسية صناعة الدواء في . الجزائر، تطوير الموارد البشرية والمعرفية على مستوى الجامعات والمعاهد الوطنية، بالإضافة إلى الاهتمام ، بتخصص صناعة الأدوية المفقود في الجامعات والمعاهد الجزائرية، و ضع حوافز خاصة للاستثمارات في مجال تكنولوجيا صناعة الدواء، ضرورة معرفة أسباب تفضيل عدد كبير من الأطباء والصيادلة للتعامل مع الأدوية المستوردة ثم وضع وإستراتجيات قابلة للتنفيذ للتعامل مع هذه الأسباب.
• دراسة محمد عبد الفتاح العتيبى ،2010 ، دور التعاونيات في دعم الشبكات وتنمية الصناعات العربية وتعزيز قدرتها على الإبداع والابتكار ، ورقة عمل مقدمة إلى الملتقى الخامس للصناعات الصغيرة والمتوسطة ، الجزائر.
هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أهم الملامح العامة في الشراكة بين القطاعات الأربعة القطاع العام والخاص والقطاع التعاوني والقطاع المختلط ، في مجال المعلومات الصناعية والشبكات وتنمية الصناعات والحرف اليدوية وخاصة التقليدية ، كما هدفت الدراسة إلى أبراز الدور الذي تقوم به المنظمات التعاونية بالتحديد في هذا المجال إلى جانب القطاعات الأخرى ، كما هدفت أيضاً إلى إظهار نظرة جديدة إلى دور النظام التعاوني كقطاع عالمي ومحلي رائد وفاعل ومؤثر فيما يتعلق بالصناعة وتطويرها .كما تسعى هذه الدراسة إلى تعزيز قيمة العمل التعاوني المنظم في المساهمة المثلى في تطوير واقع قطاع الصناعات والحرف المختلفة من أجل رفع

جودة مخرجاتها بما يتلاءم مع احتياجات المستقبل ، وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات ومنها أن هناك دور هام وفعال للمنظمات والاتحادات التعاونية في خلق قوة ثقافة للصناعات العربية والمحلية الحديثة والتقليدية الحرفية في مواجهة العولمة ، إمكانية الاستفادة من دور التعاونيات في تسويق وتصدير منتجات التراث والصناعات التقليدية ، باعتبارها من الآليات المبتكرة لفتح أسواق تراثية لتسويق هذه السلع واستغلالها سياحياً واقتصادياً إضافة إلى تنمية مناطق تواجد وانتشار التراث وتحويلها إلى مراكز تسويق سياحية ، وأوصت الدراسة إلى ضرورة تأسيس جمعيات تعاونية لأصحاب الصناعات الحرفية والاهتمام الكافي بالتدريب الحرفي ، تشجيع الصناعات الحرفية التعاونية من قبل الحكومات المحلية من خلال منحها تسهيلات ضرورية مشجعة مثل الإعفاء الضريبي ، تقديم الدعم والتمويل المحلي والعالمي للتعاونيات من اجل تطوير وتحديث وسائل الإنتاج لكي تتناسب منتجاتها بشكل أفضل مع ذوق المستهلك ، والمنافسة في الأسواق الخارجية

دراسة بن عنتر عبد الرحمن ،2008 ، إدارة الجودة الشاملة كتوجه تنافسي في المنظمات المعاصرة ، هدفت الدراسة إلى التعرف على الاهتمام الكبير الذي توليه المنظمات المعاصرة لموضوع الجودة في ظل بيئة عالمية تنافسية مفتوحة تأخذ فيها منظمات الأعمال والمنظمات العامة على السواء في العالمين المتقدم والنامي، بأحدث أساليب الإدارة وتحسين الأداء ودعم التنافسية، ومن بينها نظم إدارة الجودة الشاملة، وهو الأمر الذي ينعكس إيجابا على حالة الأداء والإنتاجية وجودة المنتجات والخدمات والتواجد في بيئة الأعمال الدولية.حيث لم تعد الجودة تلك المتغيرة الثانوية التي لايلقى لها الاهتمام إلا في حالة ظهور فشل أو خطأ أو عيب بل أصبحت حاليا تفرض نفسها كنظام شامل يجب تسييره بكفاءة عالية. وركزت الدراسة على دور إدارة الجودة الشاملة في دعم تنافسية المنظمات المعاصرة وتحسين كفاء وتعظيم فرصها للتواجدعلى المستوى العالمي ،من خلال التركيز على اهم عناصر وعوامل نجاحها وأسباب فشل تطبيقها في المنظمات المعاصرة، علاقتها مع الايزو، ووضعها في ظل التحديات الإدارية المعاصرة

الفصل الثالث

منهجية الدراسة وإجراءاتها Study methodology and procedures

سيتناول الباحث في هذا الفصل المنهج الوصفي ،ومجتمع وعينة الدراسة وإجراءاتها ، وأدواتها

1.3منهج الدراسة

اعتمد الباحث في هذه الدراسة، التي أجريت بين شهر شباط 2012 وشهر أيار من نفس العام 2012 ، المنهج الوصفي الذي يستند إلى وصف الظاهرة موضع الدراسة ، وذلك لأن هذا المنهج هو الأنسب حيث يناسب هذا النوع من العلوم ، و تم الاستعانة بالأستبانة كأداة لجمع البيانات من أعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية الزراعية العاملة فقط في منطقة نابلس ومن مختلف الأنواع الحيوانية وعصر الزيتون ، والنباتية ، التسويق .

2.3مجتمع الدراسة

يمثل مجتمع الدراسة أعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية الزراعية العاملة في منطقة نابلس ، لقد اشتمل مجتمع الدراسة على الجمعيات التعاونية العاملة حسب تصنيف دائرة التعاون في وزارة العمل والبالغ عددها (26) جمعية عاملة ، ويبلغ عدد أعضاء لجان الإدارة في هذه الجمعيات (150)عضو وقد تم اختيار ما نسبته 20% من مجتمع الدراسة كعينة للدراسة والتي بلغت(30)من أعضاء الجمعيات موضع الدراسة وقد غطت هذه الدراسة الجمعيات التعاونية في محافظة نابلس منذ العام 1980 وحتى العام 2009 .إضافة إلى أنه تم تصميم استمارة خاصة بعدد من الخبراء العاملين في المؤسسات ذات العلاقة ومنها وزارة العمل ووزارة الزراعة الفلسطينية وعددهم ستة خبراء تم إجراء المقابلة معهم وهم(مدير مديرة وزارة العمل في محافظة نابلس ومدير دائرة التعاون بالوزارة ومدير دائرة الجمعيات الزراعية في وزارة العمل ، إضافة إلى مدير زراعة نابلس ومدير عام دائرة التسويق في وزارة الزراعة وخبيرة التنمية الريفية في وزارة الزراعة (

3.3عينة الدراسة

تم توزيع (30) إستبانة على عينة عشوائية منتظمة أخذت من أعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية العاملة في محافظة نابلس ، وقد استثنيت الجمعيات التعاونية الحديثة والتي لم يمر على تأسيسها أكثر من ثلاثة سنوات من عينة الدراسة ، أي خلال الفترة الممتدة من العام 1980 حتى العام 2009وقد استرجعت جميع الاستبيانات (30) التي تم توزيعها

4.3أدوات الدراسة

تم الاعتماد بشكل رئيسي في جمع البيانات على الأستبانة ، علماً بأنه تم الرجوع والاعتماد على المراجعة الأدبية ذات العلاقة بموضوع الدراسة ، جاءت الاستبانة (ملحق 1.3) مكونة من شقين: الأول ويتكون من 5 فقرات تتناول معلومات عامة عن أعضاء لجان الإدارة والجمعية التعاونية بشكل عام موضع الدراسة ، والثاني يحتوي على سبعة محاور رئيسية تتكون من 43 فقرة تتناول وجهة نظر وتقييم أعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية الزراعية . ولقد تم اعتماد سلم الإجابات من ثلاثة درجات حسب سلم لكرت وهي : موافق (3 درجات)، محايد (2 درجة) ، غير موافق (1 درجة (

5.3 صدق الأداة (تحكيم الاستبانة (

للارتقاء بمستوى استمارة الاستبانة ولضمان تحقيقها للهدف الذي وضعت من أجلة، تم عرضهما على مجموعة من الأكاديميين والمتخصصين والخبراء في العمل التعاوني إضافة إلى إحصائيين ذو خبرة ، وبالأخص في موضوع الجودة الشاملة والميزة التنافسية حيث تمت مراجعتهما وتحكيمهما من قبل هؤلاء المتخصصين وكان لملاحظاتهم وآرائهم أثر واضح في تطوير وتدعيم الاستبانتين ووضعها في صورتهما النهائية.

6.3 ثبات أداة الدراسة

لقد قام الباحث بالتحقق من ثبات الأداة، من خلال اختيار عينة مصغرة من أعضاء الجمعيات التعاونية وعددهم 4 أعضاء، حيث و وزعت عليهم الأستبانة للإجابة عليها من قبلهم ، وبعد خمسة أيام تم إعادة توزيع الأستبانة من جديد على نفس العدد (4) من نفس العينة المصغرة حيث تم استثنائهم من العينة النهائية عند توزيع الاستبانة بشكل نهائي ، وبعد ذلك تم احتساب معامل كرونباخ ألفا لفحص الاتساق الداخلي للفقرات وبلغت قيمته 0.87 ، وبالتالي أصبحت الأداة جاهزة ومهيأة ليتم توزيعها على كامل عينة الدراسة.

7.3 محاور الدراسة

من أجل تسهيل التعامل مع البيانات التي تم جمعها من عينة الدراسة ، حيث تم تقسيم الأستبانة المخصصة لأعضاء لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية موضع الدراسة . إلى مجموعة من المحاور اشتملت على سبعة محاور (43) فقرة غطت موضوع الدراسة ،إضافة إلى محور خاص بمتغيرات الديمغرافية لمجتمع الدراسة اشتمل على (5) فقرات ، وكذلك استبانة المقابلة تم تقسيمها إلى مجموعة من الأسئلة ذات العلاقة بمجال الدراسة للاطلاع على الأراء المختلفة

8.3خصائص عينة الدراسة المتعلقة فقط بأعضاء لجان الإدارة

يتضح من نتائج تحليل الإستبانة ، بأن توزيع عينة الدراسة حسب متغير مجال تخصص الجمعية كان كما يأتي:
يتضح بأن معظم الجمعيات ضمن مجتمع الدراسة كان من الجمعيات التعاونية الزراعية من تخصص الإنتاج الحيواني حيث شكلت ما نسبته 37 % من عينة الدراسة ، تليها الجمعيات من تخصص عصر الزيتون وشكلت ما نسبته 27% من عينة الدراسة ، ثم الجمعيات من تخصص التسويق الزراعي وشكلت نسبة 23% من عينة الدراسة ، في حين كانت الجمعيات التعاونية من تخصص الإنتاج النباتي أقل نسبة . حيث شكلت ما نسبته 13% من عينة الدراسة

كما يتضح من نتائج تحليل الاستبانة بان معظم الجمعيات عمرها الزمني أقل من خمسة سنوات وشكلت ما نسبته 60% من عينة الدراسة ، تليه مجموعة الجمعيات التي عمرها الزمني أكثر من 15 سنة وشكلت ما نسبته 33.30 % ، في حين كانت نسبة الجمعيات التي عمرها الزمني تراوح بين 5 و15 سنة 6.70 ، دليل على أن نتائج الدراسة والتي أظهرت ضعف الجمعيات التعاونية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية ، حيث أن عمرها الزمني وفي الغالبية العظمى للجمعيات حديث جدا ، ولا تتوفر لدى هذه الجمعيات الخبرات الكافية للعمل على عملية الإنتاج وبالتالي تحقيق الجودة الشاملة في عملية الإنتاج ، الأمر الذي يضع تحديات كبيرة أمامها لكي تعمل في ظل سوق يمتاز بمنافسة شديدة مما يهدد وجودها واستمرارها في تقديم الخدمات لأعضائها وللجمهور الفلسطيني والذي ينتظر منها الكثير في دعم المنتجات المحلية وتعزيز حضورها في السوق المحلي والخارجي
كما يظهر من نتائج الدراسة في ، بأن الغالبية العظمى من الجمعيات التعاونية التي شكلت عينة الدراسة عدد سنوات عملها بالزراعة وفي مجال التخصص هو قليل بمعنى أقل من خمسة سنوات وشكلت ما نسبته 60% من عينة الدراسة ، في حين أظهرت نفس النتائج بأن عدد سنوات عمل الجمعيات في المجال الزراعي والتخصص بالمرتبة الثانية كان أكثر من خمسة عشر سنة وشكلت ما نسبته 33% من عينة الدراسة ، في حين كانت نسبة الجمعيات والتي عملت بعمر زمني بين خمسة سنوات إلى خمسة عشرة سنة 7% ، وهذا برأي الباحث يشكل دليل أخر على عدم قدرة الجمعيات التعاونية على تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية بسبب قلة الخبرة والمعرفة باحتياجات القطاع الزراعي الفلسطيني المحلي
ويتضح من نتائج الدراسة بأن الجمعيات التعاونية والتي تحتوي على عدد أقل من 40 عضو شكلت ما نسبته 80% من عينة الدراسة ، في حين كانت

الجمعيات التي تحوي عدد أعضاء أكثر من 80 عضو ذات نسبة قليلة حيث شكلت ما نسبته 13% من عينة الدراسة ، في حين أخر شكلت الجمعيات التعاونية والتي تحوي عدد أعضاء منخفض نسبته 7% من عينة الدراسة .
وبرأي الباحث فأن هذا دليل أخر على ضعف الجمعيات التعاونية في تعزيز ميزة تنافسية للمنتجات المحلية ، حيث أنها لم تعبر عن احتياج حقيقي لدى المزارع الفلسطيني ، كما أنها لم تشكل التكتل الاقتصادي النوعي والذي يحتاج إليه المزارع الفلسطيني لكي يسهم في حل جزء أو كل من مشكلاته التي يعاني منها المزارع . وهذا برأي الباحث ربما راجع إل عدم قناعة حقيقية بأهمية العمل التعاوني والجماعي من قبل المزارع الفلسطيني ، أو ربما راجع إلى عدم الاهتمام بالجمعيات التعاونية من قبل الجهات الداعمة والمختصة الفلسطينية ، أو ربما لعدم توفر القناعة بأن العمل التعاوني يشكل الركيزة الأساسية في التخفيف من المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني بشكل عام والمزارع بشكل خاص، وأن هناك مؤسسات وتكتلات اقتصادية أخرى ربما يعول عليها في حل مختلف هذه المشكلات ومنها ربما القطاع الخاص المحلي إذ لا تشكل التعاونيات مركز استقطاب واسع للمزارع الفلسطيني
وبالنسبة لعدد القوى العاملة في الجمعيات التعاونية أظهرت نتائج الدراسة بأن عدد العاملين في التعاونيات كان قليلا بشكلا عام ، حيث شكلت الجمعيات التعاونية والتي تشغل ثلاثة إلى ستة عاملين ما نسبته 43% من عينة الدراسة ، في حين شكلت الجمعيات التعاونية التي تشغل أقل من ثلاثة عاملين ما نسبته 30% من عينة الدراسة وبالنسبة للجمعيات التعاونية التي تشغل أكثر من ستة عاملين ، حيث شكلت ما نسبته 27% من عينة الدراسة . وهذا يوضح برأي الباحث عدم استعداد كامل من الجمعيات لتحقيق الميزة التنافسية للمنتجات المحلية حيث أن العمل على تحقيق مستويات جودة في الإنتاج يتطلب عدد من العاملين المهرة وتوفر الخبرات الضرورية الواجب توفرها لكي تنجح المؤسسات ومن ضمنها التعاونيات في تحقيق معدلات جودة مناسبة ترتقي للمستوى المطلوب محلياً على الأقل.

الفصل الرابع
نتائج الدراسة ومناقشتها

في هدا الفصل سيقوم الباحث بعرض ومناقشة نتائج تحليل الاستبانة.حول دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية، .حيث سيتناقش الباحث فيما يلي تحليل النتائج المرتبطة بمحاور ومجالات الدراسة وأسئلتها

1.4 الإجابة عن السؤال الرئيس للدراسة

ما دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات الفلسطينية؟

وللتحقق من سؤال الدراسة استخدم الباحث المتوسطات والنسب المئوية والتقدير الآتي:

(50% فاقل) درجة قليلة جدا.
(من 50% وحتى أقل 60%) درجة قليلة.
(من 60% وحتى أقل 70%) درجة متوسطة.
(من 70% وحتى أقل 80%) درجة مرتفعة.
(من 80% فأكثر) درجة مرتفعة جدا.

2.4مجال المعرفة بمفاهيم العمل التعاوني

للتعرف على دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز المعرفة بمفاهيم العمل التعاوني استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 1.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 1.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير لدور الجمعيات التعاونية الزراعية لمجال المعرفة بمفاهيم العمل التعاوني

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
1	عززت من معرفتك بأهمية العمل الجماعي التعاوني	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
2	عززت مستوى المعرفة بمبادئ العمل التعاوني	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا

3	حسنت من الإدراك بأهمية العمل التطوعي في المجتمع	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
4	عززت من المعرفة بمفهوم العمل المؤسساتي المهني	2.90	0.31	97%	مرتفعة جدا
5	زادت من علاقات التنسيق مع المؤسسات الأخرى ذات العلاقة	1.30	0.65	43%	قليلة جدا
6	حسنت من معرفتك بمفاهيم التنمية المستدامة	1.30	0.65	43%	قليلة جدا
الدرجة الكلية		**2.42**			**%81 مرتفعة جداً**

يتضح من نتائج جدول 1.4 أعلاه بان دور الجمعيات التعاونية في تعزيز المعرفة بمفاهيم العمل التعاونية كانت مرتفعة والدرجة الكلية للمجال كانت 81%، حيث جاءت على كل فقرات المجال مرتفعة جداً ، و برأي الباحث لم تساعد هذه النسبة المرتفعة في تمكين الجمعيات التعاونية من العمل على تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية ، في حين أكدت نتائج المقابلة إلى ضعف ثقافة المجتمع المحلي بموضوع التعاون وأن هناك عدم ترسيخ لهذا المفهوم لدى الغالبية العظمى من السكان والمواطنين ،وأكد الخبراء أهمية أن يتم تضمين المناهج الفلسطينية بمفهوم العمل التعاوني في المدارس والجامعات المحلية لتعزيز ثقافة العمل التعاوني بين المواطنين

3.4مجال تقييم أداء لجان الإدارة

للتعرف على دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تقييم أداء لجان الإدارة للجمعية ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 2.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 2.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لدور الجمعيات التعاونية الزراعية لمجال تقييم أداء لجان الإدارة

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
7	ينتخب أعضاء لجنة الإدارة بطريقة ديمقراطية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
8	يشغل لجنة الإدارة أعضاء ذوي كفاءة مناسبة	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
9	للجنة الإدارة دور في تحسّين أداء الجمعية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
10	للجنة الإدارة دور في توسيع عضوية الجمعية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
11	تسهم لجنة الإدارة في تنمية مفاهيم العمل التعاوني لأعضاء الجمعية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
12	تحرص لجنة الإدارة على توفر المهنية لدى العاملين في الجمعية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
13	تزوّد الهيئة العامة بالتقارير الدورية عن سير العمل	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
14	تلتزم بدعوة الهيئة العامة لعقد الاجتماعات الدورية	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
15	يتوفر انسجام بين أعضاء لجنة الإدارة في العمل	3.00	0.00	100%	مرتفعة جدا
16	تدير الجمعية وفقاً لمبادئ التعاون العامة	2.90	0.31	97%	مرتفعة جدا
17	تستثمر أرباح الجمعية في مشاريع وفق مفاهيم	1.30	0.65	43%	قليلة جدا

	العمل التعاوني				
الدرجة الكلية		**2.84**			**95 %** **مرتفعة جداً**

يتضح من نتائج الجدول 2.4 أعلاه ، بأن تقييم لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية كان عالي جداً وبدرجة ممتازة ، حيث كانت الدرجة الكلية للمجال 95% وهذه نسبة كبيرة جداً ، وبرأي الباحث كل هذا الأداء الجيد للجان الإدارة إلا أنها لم تتمكن من بذل الجهود الإيجابية باتجاه تعزيز قدرات عمل الجمعية وخاصة في تعزيز الميزة التنافسية لمنتجاتها وتعزيز حصصها السوقية سواء في السوق المحلي أو الخارجي ومما يعزز رأي الباحث نتائج المقابلة حيث أتت النتائج لتشير إلى أن هناك ضعف واضح في مسك الدفاتر المحاسبية في الجمعيات التعاونية ، إضافة إلى أن معظم الجمعيات لا توظف متخصصين في الشؤون المالية والإدارية حيث أن أعضاء لجان الإدارة هم من يمسك هذه الملفات والإدارة

4.4مجال القدرة في تقديم منتجات جديدة

للتعرف على قدرة الجمعيات التعاونية الزراعية في تقديم منتجات جديدة ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 3.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 3.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لدور الجمعيات التعاونية الزراعية لمجال القدرة في تقديم منتجات جديدة

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
18	تقديم منتجات بمعايير الجودة في السوق المحلي والخارجي	1.40	0.81	47%	قليلة جدا
19	تطوير المنتج للوقوف أمام السلع البديلة في السوق المحلي	1.20	0.61	40%	قليلة جدا
20	تطوير المنتج للوقوف أمام السلع البديلة في	1.20	0.61	40%	قليلة جدا

	السوق الخارجي				
21	تبني خطة إستراتيجية مبنية على التنافس	1.20	0.61	40%	قليلة جدا
22	التركيز على تقديم منتجاتها لفئة وشريحة معينة من المجتمع	1.30	0.65	43%	قليلة جدا
23	التركيز على تقديم منتجات فريدة من نوعها إلى السوق	2.10	0.31	70%	مرتفعة
24	تقديم منتجات جديدة لضمان النمو والاستمرارية	1.30	0.65	43%	قليلة جدا
الدرجة الكلية		**1.39**			**46 %** **قليلة جداً**

تظهر نتائج الجدول 3.4 أعلاه الواقع الضعيف لدور الجمعيات التعاونية الزراعية المحلية في تقديم منتجات جديدة للسوق المحلي أو الخارجي ، وكذلك الضعف في تنويع العملية الإنتاج للهروب من ضروب المنافسة ، وكذلك الضعف في تبني خطة إستراتيجية مبنية على التنافس ، وان دورها في التركيز على منتجات فريدة من نوعها ولفئة محددة من المجتمع أيضا بقي ضعيفاً ، ولم تبذل جهودا لحماية منتجاتها للوقوف أمام السلع المنافسة، وكانت الدرجة الكلية للمجال 46% وهي ضعيفة جداً . في حين أشارت نتائج المقابلة إلى ضعف عملية الأستثمار في القطاع الزراعي سواء كان من القطاع الخاص أو الأهلي وحتى الحكومة ولم تبذل هذه المؤسسات والقطاعات أي جهداً مميز في هذا المجال . مما أضعف مختلف الجهود المبذولة لرفعة القطاع الزراعي وبالتالي الاهتمام به وتبيان أهميته الاقتصادية والاجتماعية.

5.4مجال خدمة العملاء

للتعرف على قدرة الجمعيات التعاونية الزراعية في خدمة العملاء ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 4.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 4.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لقدرة الجمعيات التعاونية الزراعية لمجال خدمة العملاء

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
25	التميز في الأسعار بما يناسب قدرات المستهلكين	2.23	0.43	74%	مرتفعة
26	التميز في مجال تقديم الخدمات والتسهيلات المطلوبة	1.57	0.86	52%	قليلة
27	التنافس في مجال تقديم الخدمات والتسهيلات المطلوبة	2.23	0.43	74%	مرتفعة
الدرجة الكلية		**2.01**			**68 % متوسطة**

يتضح من نتائج الدول 4. 4 أعلاه بأن دور الجمعيات التعاونية في مجال خدمة العملاء كانت متوسطاً ، وكانت الدرجة الكلية للمجال 68% ، إذ لم تقدم الخدمات والتسهيلات المطلوبة والتي تعزيز الصلات مع العملاء ، وكان المتوسط الحسابي لهذه الفقرة 1. 57 في حين كان نشاطها في التميز في الأسعار مرتفع ، وفي مجال التنافس في تقديم خدمات للعملاء أيضا مرتفعة

6.4مجال المنافسة

للتعرف على قدرة الجمعيات التعاونية الزراعية في المنافسة ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 5.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 5.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لقدرة الجمعيات التعاونية الزراعية لمجال المنافسة

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
28	إلمام بأعداد المنافسين في مجال الخدمة التي تقدمها	1.43	0.68	48%	قليلة جدا
29	إلمام بالمزايا التنافسية التي يتمتعون بها المنافسين	2.20	0.41	73%	مرتفعة
30	معرفة جيدة بسلع وأسعار المنافسين الجدد	2.20	0.41	73%	مرتفعة
31	دراية كاملة بطرق توزيع المنافسين المختلفة	2.20	0.41	73%	مرتفعة
32	معرفة بمستويات التكنولوجيا المستخدمة من قبل المنافسين	2.23	0.43	74%	مرتفعة
33	معرفة بنقاط القوة والضعف لدى المنافسين في المجال الزراعي	2.10	0.31	70%	مرتفعة

34	متابعة التطلعات المستقبلية للمنافسين في المجال الزراعي	1.97	0.49	66%	متوسطة
الدرجة الكلية		**2.05**			**68% متوسطة**

يتضح من نتائج الجدول 5.4 أعلاه بأن دور الجمعيات في مجال المنافسة كانت متوسطاً ، وكانت الدرجة الكلية للمجال 68% ، ويعود السبب نتيجة عدم إلمام الجمعيات التعاونية والعاملين بأعداد المنافسين في مجال الخدمة التي تقدمها ، وكانت باقي الفقرات نسبتها مرتفعة وهذا راجع ربما للمعرفة بظروف المنافسة والتي يجب أن يكون عليها المنافسون لكن مشكلة الجمعيات التعاونية المحلية كما أظهرت النتائج هو في معرفة أعداد هؤلاء المنافسين وطرقهم والبدائل المطروحة أمامهم للتغلب على ظاهرة المنافسة والتجارب الناجحة في هذا المجال

7.4 مجال التعامل مع الموزعين والموردين والسرعة

للتعرف على قدرة الجمعيات التعاونية الزراعية في التعامل مع الموزعين والموردين والسرعة ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 6.4، أدناه يوضح ذلك
جدول 6.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لتعامل الجمعيات التعاونية الزراعية مع الموزعين والموردين والسرعة

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
35	التميز في تقديم تسهيلات مختلفة للموزعين المحليين والخارجيين	1.83	0.59	61%	متوسطة
36	التنافس في مجال الحصول على خدمات مختلفة من الموردين المحليين والخارجيين	1.20	0.61	40%	قليلة جدا
37	تتميز بالسرعة الممكنة لمواجهة المتغيرات الخارجية المؤثرة	1.33	0.66	44%	قليلة جدا

	على السوق				
38	تتميز بالسرعة في أداء الخدمات والأنشطة المختلفة	1.67	0.80	56%	قليلة
الدرجة الكلية		**1.51**			**50 %** **قليلة**

تظهر نتائج الجدول 6.4 أعلاه بأن دور الجمعيات التعاونية في التعامل مع الموردين والموزعين والسرعة ، كان قليلا وكانت الدرجة الكلية للمجال 50% ، حيث أظهرت النتائج بطء الجمعيات في أداء الخدمات والأنشطة المختلفة التي تهم الموردين والموزعون ، إضافة إلى البطء في مواجهة التغيرات المؤثر على السوق سواء السوق المحلي أو الخارجي ، كما أن خدماتها للموردين والموزعين أيضا كانت متوسطة إلى قليلة ولم ترتقي للمستوى المطلوب

8.4مجال التدريب وتحسين القدرات

للتعرف على قدرة الجمعيات التعاونية الزراعية في مجال التدريب وتحسين القدرات ، استخرجت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية والجدول 7.4، أدناه يوضح ذلك

جدول 7.4 المتوسطات الحسابية والنسب المئوية والتقدير ، لدور الجمعيات التعاونية الزراعية في مجال التدريب وتحسين القدرات

الرقم	الفقرة	المتوسط	الانحراف	النسبة المئوية	التقدير
39	توضيح مفهوم الميزة التنافسية للأعضاء المنتجين	2.00	0.45	67%	متوسطة
40	تقديم التدريب للأعضاء من أجل التميز في الإنتاج	2.00	0.45	67%	متوسطة
41	توضيح المعايير الدولية للجودة الشاملة من أجل التميز	2.00	0.45	67%	متوسطة
42	معرفة نقاط القوة والضعف	2.00	0.45	67%	متوسطة

	الخاصة بها				
43	تنمية إمكانياتها البشرية والتنظيمية لمواجهة نقاط الضعف	2.40	0.67	80%	مرتفعة جدا
الدرجة الكلية		**2.08**			**69 %** **متوسطة**

تظهر النتائج في جدول 7.4 أعلاه الدور المتوسط والضعيف للجمعيات التعاونية في مجال التدريب وتحسين القدرات من أجل تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية ، وكانت الدرجة الكلية للمجال 69% . وهي درجة متوسطة ، وبرأي
الباحث فربما هذا آت من عمرها الفتي وقلة الخبرات والمعرفة الكافية بموضوع الجودة والميزة التنافسية ، وعدم الاطلاع الكافي والمعرفة الكافية بمفهوم المنافسة وما هي ضروراتها التي أصبحت أهم الاحتياجات أمام المؤسسات الاقتصادية ومن ضمنها الجمعيات التعاونية ، كما أن الجمعيات التعاونية وحسب رأي الباحث لم تبذل الجهود الكافية لذلك ولم تمارس عملية التدريب وبناء القدرات التي يحتاجها المزارع كي يسهم بتقديم منتجات ذات جودة وتتمتع أيضا بميزات تنافسية ، علها تسهم في تخفيف حدة الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يعانيها المزارع الفلسطيني والمجتمع المحلي بشكل عام

الفصل الخامس

النتائج والتوصيات Results and recommendations

1.5 النتائج

- يتضح من نتائج الدراسة بان دور الجمعيات التعاونية في مجال تعزيز مفاهيم العمل التعاونية كان دوراً ايجابيا
- يتضح من نتائج الدراسة بأن دور لجان الإدارة في الجمعيات التعاونية الزراعية أيضا كان لها دورها الإيجابي وان هناك رضا إلى حداً ما عن أداء لجان الإدارة سواء في رفع التقارير للهيئة العامة أو الدعوة لإجراء الانتخابات والالتزام بعقد الاجتماعات وتوسيع عضوية الجمعية وغيرها من المهمات المكلفة بها لجان الإدارة
- أظهرت نتائج الدراسة في الموضوع الرئيس للدراسة وهو دورها في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات المحلية الفلسطينية ، كان ضعيفا ولم

يرتقي للمستوى المطلوب سيما وان الجمعيات التعاونية تعتبر مؤسسات اقتصاديا معول عليها إحداث التطوير والتنمية في المجال ا والقطاع الاقتصادي المحلي الفلسطيني

- أظهرت النتائج الدور الضعيف للجمعيات في تدريب الأعضاء على التمسك بمستويات إنتاج ذو من جودة عالية ، لتلبية أذواق المستهلكين في السوق المحلي والخارجي
- أظهرت النتائج ضعف دور الجمعيات في خدمة الموزعين والموردين والسرعة في تأدية المهمات
- اتضح من نتائج الدراسة الدور المتوسط للجمعيات التعاونية وعلى مختلف أنواعها في خدمة العملاء والمتعاملين مع الجمعيات
- أظهرت نتائج الدراسة أيضاً بأن دور الجمعيات في موضوع المنافسة كان متوسطاً وفي غالب الأحيان
- أظهرت نتائج الدراسة الضعف الشديد للجمعيات وعدم قدرتها على تقديم منتجات جديد للسوق ولاحتياجات المستهلكين سواء على مستوى السوق المحلي أو الخارجي

2.5التوصيات

- العمل علي إنشاء المجالس التسويقية المتخصصة ووضع آليات عملها. وتشجيع إنشاء مؤسسات كبيرة ذات - إمكانيات مالية ضخمة تقدم كافة الخدمات التسويقية المتطورة أسوة بالدول المتقدمة.
- تشجيع الاستثمار في الصناعات الزراعية والغذائية وتوفير الدراسات والبيئة الملائمة لذلك.
- كسر احتكار تجار المنتجات الزراعية والقطاع الخاص وإعطاء دور للجمعيات الزراعية في عمليات التسويق(استقبال المنتج الزراعي من المُزارع وبيعه لصالحه.(
- تشجيع المشاريع الريفية الصغيرة المنتجة في مجالات تربية الحيوانات والدواجن في المناطق الريفية ,وتقديم الأعلاف والعناية البيطرية لها.
- إصدار الأنظمة والقوانين والتشريعات الناظمة والداعمة للعمل التعاوني
- المساعدة في نشر ثقافة العمل التعاوني في المجتمع الفلسطيني من خلال وسائل الإعلام المختلفة

• إعادة الاعتبار للتعاونيات الزراعية في إصدار شهادة المنشأ للمنتجات الزراعية ، والتي تفيد في تعزيز التصدير للسوق الخارجي وتعزز من دور التعاونيات في العملية الاقتصادية
• المساعدة في تدريب كادر الجمعيات التعاونية الأعضاء والعاملين فيها على كيفية تعزيز وتبني نظام الجودة الشاملة في عملها ، من قبل وزارة الاقتصاد والزراعة والعمل ودوائر التعاون
• تقديم المنح والتسهيلات البنكية وتعزيز الإقراض الزراعي كي تتمكن التعاونيات من الاعتماد على ذاتها في المساهمة في تطوير المنتجات المحلية وتعزيز قدرتها التنافسية

قائمة المراجعBibliography

• السلمي ، علي . إدارة الموارد البشرية الإستراتيجية"، دار غريب للنشر والطباعة، القاهرة، 2001، ص104
• خليل ، نبيل مرسي ، الميزة التنافسية في مجال الأعمال، مركز الإسكندرية، مصر، 1998، ص 37.
• فرحان ، غول ، ورقة علمية ، دور إعادة الهندسة كأسلوب للتغيير التنظيمي في ظل الأوضاع البيئية الراهنة ، الملتقى العلمي الدولي ،الإبداع والتغيير التنظيمي في المنظمات الحديثة :دراسة وتحليل تجارب وطنية ودولية " الجزائر، 2011
• حريم ،حسين،إدارة المنظمات من منظور كلي "، دار الحامد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، عمان ، الأردن ،2003 ، ص331
• الصفحة 20المؤتمر العلمي الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات الحكومية ، الجزائر ، 2005
• دراسة لحول ، سامية ، 2008 ، التسويق والمزايا التنافسية دراسة حالة مجمع صيدال لصناعة الدواء في الجزائر ، جامعة الحاج لخضر – باتنة ، رسالة دكتوراه منشورة
• عبد الرحمان، بن عنتر، 2008 ، إدارة الجودة الشاملة كتوجه تنافسي في المنظمات المعاصرة ، مجلة الباحث ، العدد 6، 2008 ، جامعة بومدراس
• زهية ، موساوي ، خديجة ، خالدي ، ورقة علمية ، نظرية الموارد و التجديد في التحليل الاستراتيجي للمنظمات : الكفاءات كعامل لتحقيق الأداء المتميز ، المؤتمر العلمي الدولي حول الأداء المتميز للمنظمات الحكومية ، الجزائر ، 2005
• محمد عبد الفتاح العتيبى ،2010 ، دور التعاونيات في دعم الشبكات وتنمية الصناعات العربية وتعزيز قدرتها على الإبداع والابتكار ، ورقة مقدمة إلى الملتقى الخامس للصناعات الصغيرة والمتوسطة ، الجزائر
• محمد عبد الفتاح العتيبى ، 2010، الجمعيات التعاونية وأسس قيام المشروع التعاوني ،
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=228446
• حنني ، فؤاد ،2008 دراسة تحليلية لأداء جمعيات التسويق التعاونية في شمال الضفة الغربية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القدس

- الشنواني ،صلاح (1971) التسويق مبادئ وسياسات ،الدار المصرية للطباعة والنشر،بيروت-لبنان
- الزغموري،عمر (1991) الجمعيات التعاونية والتنمية في الأراضي المحتلة ،منشورات مركز العمل التنموي "معا "
- الحيالي ، وليد (2002) محاسبة الجمعيات التعاونية، الجامعة العربية المفتوحة ، هولندا
- الخشاب ، محمد (1965) علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الشافي
- أبو الخير ،كامل (1978) دراسات في التسويق التعاوني ، دار الفاربي للنشر والتوزيع ، القاهرة
- شومان ،عبد الرحمن (1979) التعاونيات
- الشيشكلي ،مصطفى (2007) مستقبل القطاع التعاوني في سوريا ،2007/6/13 www.mafhoum.com/syr/articles_02/shishkali/shishkali.htm
- منشورات وزارة العمل الفلسطينية ، 1997 ، رام الله ، الضفة الغربية

- قعقور ، رائدة ، 2009، دور الجمعيات التعاونية الزراعية في التنمية المحلية ، رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة القدس

- خشبة ، محمد ، الجودة الشاملة وتنافسية المشروعات ، سلسلة اجتماعات الخبراء المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، العدد 2055،15،ص20

ملحق رقم"1"

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يقوم الباحث بإعداد دراسة بعنوان:

دور الجمعيات التعاونية الزراعية في تعزيز الميزة التنافسية للمنتجات الفلسطينية المحلية

يرجى الإجابة عن أسئلة استمارة المقابلة، بصدق وموضوعية من أجل تحقيق أهداف هذه الدراسة مع العلم أن البيانات التي تجمع بغرض الدراسة تعامل بسرية تامة ,
شاكرين لكم حسن مساعدتكم وتعاونكم

الباحث

فؤاد غالب كردي حنني

جامعة القدس

الشخص المقابل: السيد المحترم

تاريخ المقابلة : مكان المقابلة :

عناصر المقابلة:

1. كيف تقيم مستوى ثقافة المجتمع المحلي بمفهوم العمل التعاوني ؟
1. إيجابي 2. متوسط 3. ضعيف
ملاحظات إضافية :

II. ما تقييمك لمستوى معرفة وإدراك أعضاء الجمعيات التعاونية المحلية بالمبادئ والأسس العامة للتعاون ؟
1.إيجابي 2.متوسط 3. ضعيف
ملاحظات إضافية :

III.ما تقييمكم لمستويات الأداء المالي والإداري للجمعيات التعاونية الزراعية ؟
1.دور كبير 2. دور متوسط 3. دور قليل
ملاحظات إضافية :

V. ما مستوى تطبيق مبادئ ومعايير ، المسائلة ، الشفافية ، في عمل الجمعيات التعاونية الزراعية بشكلً عام ؟
1. كبير 2. متوسط 3. قليل
ملاحظات إضافية :

IV. إلى أي حد استطاعت الجمعيات التعاونية الزراعية الفلسطينية ، أن تدعم وتقدم منتجات ذات ميزة تنافسية في السوق المحلي ؟
1. بشكل كبير 2. بشكل متوسط 3. بشكل قليل
ملاحظات إضافية:

IIV. كيف تقيم حجم الاستثمارات في القطاع الزراعي الفلسطيني ومن مختلف المؤسسات " الخاص/ والعام /الأهلي
1. بشكل كبير 2.بشكل متوسط 3. بشكل قليل
ملاحظات إضافية:

IIIV. ما المزايا النسبية التي يتمتع بها القطاع الزراعي الفلسطيني المحلي؟
1.بشكل كبير 2.بشكل متوسط 3. بشكل قليل

العلوم السياسية

الإصلاح السياسيّ والتشريعيّ في القرن التاسع عشر

دراسة في السياق والآفاق

الإصلاح السياسيّ والتشريعيّ في القرن التاسع عشر
دراسة في السياق والآفاق

الدكتور علي الصّالح مُولَى أستاذ مشارك متخصّص في قضايا الفكر العربيّ الحديث والمعاصر.

ملخّص:
لا جدالَ في أنّ القرن التاسعَ عشر كان قرن الإصلاح في عموم الجغرافيا العثمانيّة.وكان مصطلح "النهضة" الأكثر تعبيرا عن بروز اتّجاهات فكريّة وسياسيّة تمدينيّة حاولتْ اختراق سُجُف التخلّف وتسطيرَ مسالكَ للخروج منها. ونعتقد بأنّ مسألة الاستبداد المعبّر عنها بـ"الحكم المطلق" قد استحوذتْ آنَئِذٍ على العقل الإصلاحيّ. وراجَتْ في هذا الصدد ثقافةُ التشريعات وإصدار المراسيم على نحو لافت. فوَجّهْنا عنايتنا في هذا البحث إلى تبنّي مقاربة سياقيّة نقديّة رغبةً منّا في تبيان الآفاق التي فتحها العقل الإصلاحيّ- المراسيميّ والوقوف على حدودها.واستطعنا أن نصل إلى جملة من النتائج لعلّ أهمّها أنّ إنتاج النصوص القانونيّة إنْ لم تكنْ حصاد مسار ثقافيّ أصيل لا يمكنها أنْ تكون إجابة أصيلة عن السؤال الأكثر شهرة في تاريخ الإصلاح العربيّ الإسلاميّ: "لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟"

Résumé:
Le XIXème siècle était le siècle de la réforme dans tout le territoire Ottoman. La notion de “Renaissance” exprimait le mieux l’apparition d’orientations civilisatrices, intellectuelles et politiques. Celles-ci ont tenté de transpercer les voiles de l’arriération et eche des parcours pour en sortir. Nous croyons que la question du echerché que l’on exprime par le pouvoir absolu a alors usurpé la raison réformatrice. Et dans ce echerc, la culture des echerché et la promulgation des décrets se sont remarquablement répandus. Dans cette echerché, nous avons alors porté notre intérêt pour l’adoption d’une approche contextuelle et critique pour mieux expliciter les horizons ouverts par la raison réformatrice qui fonctionne par décrets et echerché leurs limites. Nous avons abouti à un ensemble de echerché . Le plus important est peut- être la production de eche de loi qui, à défaut d’être le produit d’un processus culturel authentique, ne saurait constituer une vraie réponse à la question la plus fameuse dans l’histoire de la réforme arabo-musulmane:” pour quelle raison les musulmans sont-ils restés en retard là où les autres ont progressé? “.

في مقدّمات الإصلاح وملامحه:معطياتٌ سياقيّة

برزت في خطاب مفكّري القرن التاسع عشر وأدبائه وسياسيّيه مصطلحات كثيرة منها: اليقظة، الإحياء، التجديد، التمدّن، العمران، النهضة، الإصلاح. ونشير إلى أنّ الإطار المرجعيّ لبعض هذه المصطلحات هو التراث الإسلاميّ (الإرث الخلدوني على سبيل المثال)، وبعضها الآخَر إطارُها المرجعيّ مستوحًى من التجربة الأوروبّيّة الحديثة(عصر الأنوار على سبيل المثال .(

ومَن يدقّق يقف على ملاحظة مؤدّاها أنّ مصطلحيْن من هذه القائمة راجا رواجا واسعا خبا به بريق غيرهما. ولعلّهما استوعبا ما يجاورهما أو يتقاطع معهما. إنّهما: النهضة والإصلاح. ويبدو أيضا أنّه، لأسباب مركّبة، سيتقدم مصطلح النهضة على مصطلح الإصلاح وسيستأثر في غالب الدراسات المنشغلة بقضايا القرن التاسع عشر بالاستخدام. ودون الخوض المفصّل في الفروق بين المصطلحيْن نسلّط شيئا من الضوء على الأمريْن التاليْن:

ترى ندى توميش في مقالها بدائرة المعارف الإسلاميّة حول النهضة (Renaissance) [1]أنّه كان من الأفضل معرفيّا وتاريخيّا استخدام مصطلح يقظة لأنّها تعني، فوق دلالتها المعجميّة المباشرة، انتباه المسلمين بعد غفلة من الزمن إلى ما آل إليه أمرهم. وشأنُ مَن ينتبه إلى تردّي حاله أن يحزم أمره وينظر في الأسباب التي تساعده على القيام من جديد. أمّا مصطلح النهضة فهو موضوعيّا مصطلح مَنْبَتُه غربيّ وزمنه القرن السادس عشر من ناحية، وهو من ناحية ثانية اتّجاه إحيائيّ للتراثيْن الإغريقيّ والرومانيّ [2].إنّ لمصطلح النهضة إذن حمولة تاريخيّة وثقافيّة وإيديولوجيّة تجعل إطلاقه في غير بيئته ضربا من التشويه والمغالطة.

ما رأته ندى توميش يمكن تعميق النظر فيه بالمعطيات الوجيزة التالية: عرف تاريخ أوروبّا الحديث مسلكيْن أساسيّيْن اقترحهما القيّمون على تجديد معالم الحياة الغربيّة من أدباء وفلاسفة ورجال دين وسياسيّين وهما: الإصلاح (Réforme)والنهضة .(Renaissance) فأمّا الإصلاح فميدانه المجال الدينيّ-الكنسيّ. وقد اهتمّ بتطوير عمل الكنيسة وتجديد أدائها ودفعها إلى القيام بمراجعات كبرى لتاريخها وتصوّراتها وسلوكها. وكان التتويجُ الأبرز لهذا الاتّجاه ظهور البروتستانتيّة.(Protestantisme) وأمّا النهضة فمجالها الفكر والفنّ والأدب، ورعاتُها النخبة البورجوازيّة على نحو خاصّ. واستطاع هذا الاتّجاه الناشط خارج أسيجة الكنيسة أن يُنتج مقولات وتصوّرات وقيما تمجّد الإنسان وتدفع به إلى مركز الكون سيّدا عليه وعلى نفسه.

يمكن القول إذن إنّ الإصلاح هدف إلى تحرير الكنيسة من أخطائها، وإنّ النهضة هدفت إلى تحرير الإنسان من اغترابه واستلابه وسلبيّته.

والظاهر أنّ هذيْن الاتّجاهيْن سارا متوازييْن وربّما تقاطعا في بعض المحاور في مشهد تاريخيّ نادر الحدوث، فكانت النتيجة ثورةً في قطاعات الحياة جميعها. وكانت العقلانيّة ومتعلّقاتُها الفلسفةَ الكبرى التي أضحت عنوانا لأوروبّا الجديدة. وأصبحت القوّةُ الهائلة (قوّة المال والصناعة والآلة الحربيّة والتنظيم المحكم) التي تتمتّع بها أوروبّا تُغري بمدّ البصر خارج جغرافيّتها. وبدأ النزوع إلى حشد مبرّرات السلوك العدوانيّ والإمبراطوريّ يهيّئ التاريخَ الحديث والمعاصر لبروز المرحلة الاستعماريّة.

كانت الجغرافيا العربيّة والإسلاميّة على خطّ التماسّ مع أوروبّا. وكان بينهما منذ عصور سحيقة علاقاتٌ معقّدة تتراوح بين الغزو والهدنة والارتياب [3].وكانت المَعابِر إلى العالم البعيد (الهند مثلا) تمرّ حتما إمّا داخل الجغرافيا الإسلاميّة وإمّا محتكّة بها. وكلّ هذا يعني أنّ المسلمين هم أوّل من سيتأثّر بما يطرأ من تحوّلات عميقة في الداخل الأوروبّيّ وبما تفرزه في الخارج.

ومن المبالغة القول إنّ حملة نابليون بونابرت كانت الحدثَ الأوّل والوحيد الذي فتح المجاليْن الإسلاميّ والأوروبّيّ أحدَهما على الآخَر. لقد كانت الرحلات من قبْلُ وفي الأثناء تنقل للمجاليْن ما يدور فيهما. لكنّ هذه الحملة أصبحت، بما رافقها من ملابسات، حجرَ الزاوية في الكتابة التاريخيّة والحضاريّة المتخصّصة في القرن التاسع عشر. لقد تجاوزت شحنةُ الحدث الرمزيّة فعلَه المادّيّ تجاوزا كبيرا.فنابليون، كما نعلم، لم يهنأ طويلا بالمقام في مصر. وخطابه الذي ألقاه بمجرّد وصوله أرض الإسكندريّة زاعما فيه أنّه مسلم مثلما أهلُ هذا البلد مسلمون وأنّه وفرنسا في خندق واحد مع المصريّين ضدّ المماليك لم يَدُرَّ عطْفَ الناسِ عليه.فبعد ثلاث سنوات سحَب قوّاتِه وعاد من حيث أتى.

للحدث البوناپارتيّ إذن رمزيّة كثيفة ننطلق منها لبناء رؤية معيّنة لما سيكون عليه أمر العرب والمسلمين وقد سكنتهم الحيرةُ واستبدّ بهم القلق وطفقوا يتساءلون عن الأسباب التي تُنْجِيهم ممّا هم فيه. وما ينبغي الاحتفاظ به من المقدّمات التي مرّت هو أنّ انتباه المسلمين إلى أوضاعهم لم يكن ليتجلّى على النحو الذي تجلّى فيه لولا المقارنة مع أوضاع أوروبّا. وهذا يسوق إلى طرح مسألة المرجع في الخطاب الإصلاحيّ في القرن التاسع عشر. إنّنا لا ننكر أنّ حركاتٍ إصلاحيّةً عرفتها البلاد الإسلاميّة نادت بتغيير الأوضاع بالاعتماد على ما يمكن تسميته بالإسلام الصافي أو الإسلام الصحيح [4].وكانت محاربة البدع رسالتَها المحوريّة. ويشهد لها التاريخ أو لبعضها على الأقلّ بأنّها تمكّنت من جذب جمهور إليها، وخرج صداها من الحدود الضيّقة إلى مناطق بعيدة [5]، وأنشأت مراكز قوّة تعاظم أمرُها في

بعض البلدان حتّى أوصلت القائمين عليها إلى سدّة الحكم. لكنّ هذه الرسالة لم تكن، لقصور بنيويّ فيها، قادرة على الوصول إلى الأسباب البعيدة للتخلّف. وكان زعماؤها قليلي الاطّلاع على ما يجري من حولهم. ولم يكن الأنموذج الإسلاميّ الذي ينادون باستعادته إلاّ صورة في ذهن صانعها. فإذا قورن بها الواقع بدا تشويها لها. وهذا الاتّجاه لا يخصّ مجتمعا دون آخر. فاللّجوء إلى استدعاء ما يُعرَف بالعصور الذهبيّة هو، بلا شكّ، مِنْ سيرة الأمم في الأزمات الكبرى. وهو شكل من التعويض يوفّر شيئا من الطمأنينة الكاذبة.

قدّم الحدث البوناپارتيّ في بُعده الرمزيّ إذن إمكانا آخَر لمقاربة سؤال التخلّف. ولم يبق "العصر الذهبيّ" مرجعا وحيدا. لقد صار ينافسه المرجع الأوروبّيّ الماثل في شموخه وتحدّيه. ومن هنا نفهم قيمة الجزء الثاني من عنوان كتاب شكيب أرسلان: "لماذا تأخّر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟". فعبارة"لماذا تقدّم غيرهم؟" لها من الدلالة التاريخيّة ما يجعلها بحقّ برهانا على أنّ طريقا أخرى غير الطريق المعهودة ينبغي التحرّك فيها للظفر بجواب. لقد أصبح الأنموذج الأوروبّيّ جذّابا بما يطرحه من صنائع وعلوم ومخيفا بما يملكه من أدوات الهيمنة.

وشرعَت جهات كثيرة دينيّة وسياسيّة وأدبيّة وفكريّة تخرج من طور الصدمة إلى طور العمل على امتصاصها والبحث عن مسالكَ لتجاوز انعكاساتها السلبيّة. وشهدت بلدانٌ إسلاميّة محاولاتِ إصلاحٍ في أكثر من قطاع كالتعليم والمرأة والجيش. وكان مركز الدولة العثمانيّة الأرضيّةَ التي عرفت أسرع من غيرها إجراء كثير من هذه السياسات الإصلاحيّة. فقد كانت على اتّصال مباشر بأوروبّا إنْ جغرافيّا وإنْ عن طريق المعاهدات والسفارات والبعثات. وكانت فوق كلّ هذا واقعة تحت ضغوط هائلة من دول قويّة كفرنسا وبريطانيا وروسيا راغبة في مدّ نفوذها داخل هذا الكيان الواسع والمفكّك. وكثيرا ما صارت الضغوطُ تهديداتٍ سافرةً، فيندفع الحاكم العثمانيّ مُكرَها إلى القيام بما يُلبّي مصالح أوروبّا من جهة، وما يعتقد هو أنّه يحفظ كيان الدولة من السقوط من جهة ثانية. وكان صدى هذا المسعى الإصلاحيّ تتردّد أصداؤه في بعض الولايات مثل مصر وتونس والشام. وربّما استدعى السلطان العثمانيّ مسؤولين من هذه الولايات أو أوفد إليها رُسُلَه لحثّها على القيام بما يلزم من الإصلاحات .

كانت"التنظيمات" [6](1839-1876) العنوان الأبرز لحركة الإصلاح. وهي بإيجاز مجموعة من المراسيم والقرارات والنصوص الرسميّة التي صاغتها السلطنة العثمانيّة وأقرّتْها في مواكب احتفاليّة علنيّة وأشهدت عليها السفراء ورجال الدين وقادة الأساطيل الحربيّة وقرّرت اعتمادها مدخلا إلى تحسين الأوضاع العامّة. وصاحَبَ ذلك خطابٌ يروّجها

ويكشف عن الحكمة من إحداثها. وكان للعلماء (رجال الدين) دورٌ بارز في هذا الشأن، فقد تكفّلوا ببيان المصلحة الشرعيّة منها، بل وبأنّها من روح الإسلام.

يذكر المصلح التونسيّ ابن أبي الضياف (1802-1874) أنّه زار القسطنطينيّة سنة 1842 في بعثة رسميّة (تسليم هديّة للدولة العليّة، في عهد السلطان عبد المجيد). واستضافه بالمناسبة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت (1785-1858). وكان موضوع الضيافة كلاما في التنظيمات: "تكلّم في شأن التنظيمات" [7].ولم يكن الكلام عابرا: "وأطال... ولم يكلّمني في غير التنظيمات من المطالب" [8].وكان، بصفته الدينيّة، حريصا على إقناع ابن أبي الضياف بأنّها من الدين: "وأنّها من أصول دين الإسلام" [9].ولكنّه لم ينس أنْ يَذكر لصاحبه أنّ المسلمين إنْ لم يُطبّقوها راضين أقبلوا عليها مُكرَهين: "يَقْبُحُ بنا معاشر المسلمين أن يغصبنا غيرنا على أعظم أصول ملّتنا وهو العدل الذي يحبّه الله ولا يحبّ غيرَه" [10].ولمّا كان عارف حكمت شخصيّة رسميّة في الدولة، صدر منه تكليفٌ لابن أبي الضياف مضمونه أن ينقل لباي تونس الرسالة التالية: "الدين النصيحة لله ورسوله وأيمّة المسلمين وعامّتهم. وهذا الأمر لا بدّ منه ولو بعد حين. ومن الحزم أن يتدرّج العاقل في سُلّمه باختياره" [11].ولا يخفى من خلال هذا الإلحاح أنّ الذي وراء التكليف ليس الرغبة الذاتيّة في الالتزام بمعايير الصلاح التي في الإسلام. إنّه الخوف من أن يُفْرَضَ على الدولة العثمانيّة ما لا طاقة لها به. وهذا يسُوق إلى استنتاج أوّليّ مفاده أنّ الاتّجاه نحو إجراء الإصلاحات لم يكن في جزء منه على الأقلّ نتيجةَ الوعي الذاتيّ بأهمّيتها، كما أنّ حماسة رجل الدين لها جاءت في ما يبدو لإضفاء الشرعيّة عليها وقد أضحت ممّا لا مفرّ منه .

ولكنّ هذا لا يمنع معقوليّة رأي آخَر وهو أنّ قاعدة الفكر الإصلاحيّ في الحضارة الإسلاميّة كان الغالبُ عليها المشغلَ السياسيّ. ولذلك قد لا نتردّد في تفسير اندفاع السلطنة العثمانيّة إلى السير في الطريق التي سِيقَتْ إليها بالتقاء محصول ثقافة الإصلاح الإسلاميّة الكلاسيكيّة بما يُطْلَبُ من السلطنة إنجازُه لاتّقاء تَهْلُكَتيْن: الانهيار والتدخّل الخارجيّ .

الإصلاح السياسيّ مَدخل إلى كلّ إصلاح

يحفل التاريخ السياسيّ الإسلاميّ على نحو لافت بمسألة الدولة. والكتابات في ذلك كثيرة أبرزها الأحكام السلطانيّة للماوردي (370هـ-450هـ) والمقدّمة لابن خلدون (1332م-1406م)، وحتّى الكتب ذات النزعة التاريخيّة الموسوعيّة كانت تعطي حيّزا كبيرا من مادّتها لهذا

الموضوع [12].وثمّة كتابات بحثت في مسائل تنظيميّة وإداريّة وماليّة دقيقة ذات صلة مباشرة بإدارة شؤون الحكم [13 .]

والهدف المعلنَ من وراء هذا الاهتمام الذي يبدو أحيانا كأنّه زائد عن الحدّ دينيّ ودنيويّ: حفظ الإسلام وإجراء المصالح.ولكنّ الدنيويّ يستأثر في الغالب بعناية الكتّاب [14].ولهذا نرى أنّ البحث في المُلك وترتيبه ركن أصيل من أركان الفكر الإسلاميّ. ولا عجَبَ حينئذ أنْ نرى المفكّرين المسلمين في القرن التاسع عشر يسرعون إلى الإفادة منه. لكنّ أوروبّا الحديثة نجحت في أن تفرض نفسها مُزاحما عنيدا لذاك المَوْرد.إنّها صانعة الزمن الحضاريّ الجديد.

ولا جدال في أنّ هذا الزمن الجديد له إغراءاتٌ كثيرة وسطوة شديدة. فقد شاعتْ قوانين الاجتماع البشريّ أنْ يتشكّل والعالَمُ الإسلاميّ يحيا انحداراتٍ كبرى. وكان القرن التاسع عشر شاهدا على الإمبراطوريّة العثمانيّة وهي تدخل فعليّا مرحلة الاحتضار وقد صحّ فيها قول من قال إنّها "الرجل المريض" [15].ولكنّ التشبّث بالحياة دفع الغيورين عليها إلى البحث في ما أمكن من أسباب العلاج عسى يستقيم لها حالٌ مع ما هي عليه من هزال .

قال ابن خلدون: "العدل أساس العمران". وقال أيضا: "الظلم مؤذن بخراب العمران". هذان قانونان أصيلان في الثقافة السياسيّة الإسلاميّة. ويبدو أنّ تركيز رجال الإصلاح في هذه المرحلة على الجانب السياسيّ في البلدان الأوروبّيّة مأتاه تأثّرهما بذيْنك القانونيْن ورغبتهما في ألاّ يخرجوا عن نطاق الحضارة التي ينتمون إليهما. فكانوا يجتهدون في ردّ كلّ أمر إليهما. والظاهر أنّ هذا النزوع في تفسير أسباب التخلّف والتقدّم كان محلّ إجماع، لا فرق في ذلك بين سياسيّ أو رجل دين أو مسلم أو مسيحيّ. فللشدياق (1804-1887) في هذا رأي طريف. فممّا لفت نظرَه في رحلته إلى انجلترا أنّ الناس هناك لا تشيب رؤوسهم إلاّ في سنّ متأخّرة. وهو ما أثار دهشته: "ومن العجب أنّ الانكليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه" [16].واجتهد في بحث الأسباب ووقعَ على ما ارتاح إليه تفسيرا: "وعندي أنّ أعظم أسباب الشيب في الأصل هو الهمّ والخوف من ظلم الولاة وذي الإمرة" [17].هذا التفسير ليس عِلميّا أو طبّيّا في كلّ الأحوال. ولذلك ينبغي أنْ يُحمَل على تأويل نفسيّ- سياسيّ يستبطن معاناة الشرقيّين من ظلم ولاتهم وحُلمهم بأنْ يكونوا مثل هؤلاء الانجليز يَحيْون في حريّة وينعمون بعدل .

ورأينا جهودا كثيرة تُبْذَلُ من أجل تقليص المسافة بين القيم السياسيّة الأوروبّيّة والقيم السياسيّة الإسلاميّة.وسواء أكان ذلك نابعا من حرص

المصلحين على ألاّ يصدموا الوجدان الجماعيّ إنْ لاح في ما جاؤوا به مخالفةٌ صريحة لما استقرّ ثقافةً أم كان بسبب تكوين هؤلاء وضغط المرجعيّة الإسلاميّة عليهم، فالنتيجة واحدة وهي أنّ الحلّ لا يكون إلاّ سياسيّا.وأوروبّا، هذا المثال الحيّ أمامهم، تشهد بأنّ التمدّن قوامُه العدل والحرّيّة .

لكنّ الاقتداء بأوروبّا لا يعني أن يأخذ منها المسلمون والعرب ما به حقّقتْ تمدّنها، وإنّما يعني الإيمانَ بالقدرة على فعل ما فعلت أوروبّا. وهذه رؤية تاريخيّة للتخلّف والتقدّم. وهي، نظريّا، أمر بالغ الأهمّيّة. فحين يدخل التاريخ عنصرا تفسيريّا تصبح أغلب الظاهرات مفهومةً فهما مادّيّا ويصبح الإنسان صانع مشكلاته والمسؤولَ وحدَه عن إيجاد الحلول لها.وهذا الاتّجاه في التفسير مَكسبٌ لا ريب فيه للحركة الإصلاحيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لكنّ عمليّة تنفيذه في أرض الواقع تصطدم بعائق كبير وهو عدم انفصال العقل الإصلاحيّ في هذه المرحلة انفصالا مُنتِجا عن العقل الإسلاميّ الكلاسيكيّ. وولّد ذلك مسعًى مستمرّا للمطابقة بين الحاضر والماضي. والغرض من المطابقة هو قياس تفكير القرن التاسع عشر على تفكير الإسلام الكلاسيكيّ. وحيثما كان ثمّة تباعد جرتْ عمليّات ترويض للجديد وتطويع له حتّى يصير مقبولا، وإنْ استحال الأمر رُفِضَ. وهذا تقريبا ما ذهب إليه محمّد عابد الجابري: "إذا كانت حركات الإصلاح في الماضي قد مارست التجديد من خلال الدعوة إلى الرجوع إلى ما عليه السلف الصالح، فلأنّ المجتمع العربيّ كان إلى وقت قريب امتدادا تكراريّا لما عليه حال المجتمع والحضارة في زمن السلف الصالح. ولذلك كان يكفي لكسر البدع وإدخال المستجدّات تحت حكم القواعد والأحكام الفقهيّة البحثُ لها عن أشباه ونظائر في سيرة السلف ونوع قراءتهم للنصوص" [18]. فانظُر مثلا إلى الطهطاوي الذي تجعله كثيرٌ من الدراسات مُدشّنَ عهد التنوير في البلاد العربيّة والإسلاميّة ترَ عنده المطابقات التي لا يصنعها إلاّ عقل لا يقدر على الفصل بين موضوعاته: "وما يسمّونه (يعني الفرنسيّين) الحرّيّة ويرغبون فيه هو عين ما يُطلَق عليه عندنا العدل والإنصاف.وذلك لأنّ معنى الحكم بالحرّيّة هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي المحكّمة والمعتبرة" [19].وهذا خير الدين باشا رأس الإصلاح في تونس تقرأ له فتخال نفسك مازالتَ عند الطهطاوي لم تغادر مصر. إنّه يعتقد بأنّ تحقيق التمدّن لا يكون "بدون إجراء تنظيمات سياسيّة تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا (يعني الأوروبّيين) في التأسّس على دعامتيْ العدل والحرّيّة اللّذيْن هما أصلان في شريعتنا" [20].

لم يتحقّق الانفصال بين العقليْن ولذلك يصعب أنْ نرى عند مفكّري القرن التاسع عشر تمثّلا جدّيّا لمنجزات أوروبّا الحديثة. وحين تتحكّم آليّة القياس في

نشاط عقل هؤلاء نجدهم ينصرفون عن إرجاع المقولات والقيم والظواهر إلى منابتها الأولى ويعمدون إلى إرغامها على الاصطباغ الشكليّ بمنطوق الشرع. وينتج عن ذلك إهدار وقت في استفراغ الجهد من أجل مقايسات بلا جدوى.

ولمّا كانت المسألة السياسيّة العنوان الكبير للإصلاح في القرن التاسع عشر بحث لها المنشغلون بها عن الكيفيّات التي تتحوّل بها إلى نظم وقوانين تردع وتزجر وتضمن العدل والمساواة. وعرف الإصلاح حيويّة كبرى في هذا المجال. ولا بدّ من الإلحاح في هذا الصدد على مسألة أساسيّة وهي أنّ الإسراع في هذا الاتّجاه سيكون على حساب الإصلاح المنصرف إلى تحضير أرضيّة نظريّة وفلسفيّة للمسألة السياسيّة. وسيشكّل ذلك نقطة ضعف تمنع فعليّا نشوء حالة سياسيّة ذات مرجع وعمق فلسفيّيْن. فالنصّ القانونيّ إذا لم يكن نتيجة تطوّر عامّ في مختلف مرافق الحياة وحصيلة تواطؤ وإجماع لا يمكنه أنْ يحقّق المرجوّ منه.

من الفلسفة السياسيّة إلى إصدار المراسيم:

تندرج المراسيم القانونيّة في إطار ما يمكن تسميته تجوّزا بالفكرة الدستوريّة. ولا شكّ في أنّ اشتغال الفكر الإصلاحيّ عليها في القرن التاسع عشر يعدّ في حدّ ذاته أمرا محمودا، فهو ينمّ عن الوعي بضرورة تقييد الإرادة المطلقة للحاكم وتوفير ما يلزم من الضوابط النصّيّة لإخضاع الجميع لمعاملة عادلة. ويتنزّل الحرص على نقل مآثر الدساتير الأوروبّيّة إلى الجمهور المسلم في سياق الترغيب في الإقبال على إنتاج تشريعات كتلك التشريعات طالما أنّه وقر في العقل الإصلاحيّ أنّ العدل أساس العمران. وقد يصل بالمصلح إيمانُه بألاّ خلاص من الخراب المطبق على الدولة إلاّ بإقرار حياة دستوريّة إلى حدّ التذلّل للسلطان واسترحامه .

إنّ الرسالة التي وجّهها الأمير المنفيّ إلى باريس بسبب عقيدته الدستوريّة مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز [21]تحت عنوان: "من أمير إلى سلطان" [22]سنة 1866 تصلح لأنْ تكون مادّة جيّدة لتسليط الضوء على الاتّجاه الإصلاحيّ نحو الفكرة الدستوريّة. لقد استعرض في رسالته مظاهر الانهيار وناقش من يقول من الأوروبّيّين إنّ تخلّف الشرقيّين جزء من دينهم لا فكاك منه. وتدرّج في طَرْق مسائلَ كالاستبداد والفقر والجهل. وانتهى إلى ما رآه الحقّ الذي ينبغي الجهر به: "الحقّ أوْلى أنْ يقال: ما مَنعنا من أن نكون أمّة جدّ مثلهم (يعني الأوروبّيّين) إلاّ طريقةُ حكمنا" [23].وكان يكفي حسَب رأيه تغييرُ طريقة الحكم حتّى تنهض الأمّة. وهو يقصد، بلا ريب، استبدالَ الاستبداد بإشاعة الحرّيّة. واستنجد في هذا بالمثال الفرنسيّ: "في ثلاثين حِجّة تَبدّل يا مولاي كلُّ هذا (يعني التخلّف) بعد أن أُعتِقَتْ الأمّة من

رقّها منذ سنة 1789، وحلّ الفرنساويّون مقاما محمودا... إنّ فضل الحريّة كان على الأمّة الفرنساويّة فضلا عظيما" [24].والحريّة إذا لم يجسّدْها عملٌ تشريعيّ تظلّ شعارا غيرَ ذي قيمة: "فما الإصلاح إلاّ كلمة لا معنى لها إذا لم يصاحبْه العمل" [25].والعمل كما يراه مصطفى فاضل باشا إقرار الدستور: "مولاي، خذ بيد الدولة فجدّدْ شبابها، وأمْدِدْ إليها يدَ الدستور، تنتشِلْها من الفوضى. هَبِ الأمّةَ دستورا صحيح الجسم رحيب الصدر خصيبَ التربة" [26].واستعرض حُجَجَ الذين يرفضون الحكم الدستوريّ: "يقولون لجلالتكم: الدستور يُصيّر الملِك آلةً لا روح فيها يسلبه اختياره وينزع عنه شعاره. وللأمّة: الدستور يريد المسلمين على ترك ما عزّ لديْهم: دينهم ولباسهم وما ألفوه" [27].ونَعت هؤلاء المعارضين بالمنافقين والجاهلين والماكرين. ووجّه، من باب الترغيب في الدستور، دعوة إلى السلطان وأخرى إلى الأمّة فيهما حَثٌّ على عدم الإصغاء إلى أولئك المعارضين: "مولاي، أُنْبُذْ مشورتهم. أمّتي، خلّي عنك سعايتهم. ما قَيّدَ الدستورُ غيرَ الهوى" [28].ووضع جملةً من الأفكار تتناول موادّ هذا الدستور ووظائفه والأهدافَ منه، بعضها في العلاقات الداخليّة وبعضها في علاقة الدولة بالخارج وبعضها في القيم التي يُفْتَرَضُ أنْ يسهر على ترسيخها. وأنهى الرسالة بوضع السلطان في مفترق طريقيْن:إمّا الدستور وإمّا الخراب: "يا جلالة السلطان، اِرجعْ إلى ضميرك قبل غيره يُنْبِئْك بما يجب عليك في هذا الزمان حيث أخذَتْ رعيّتَك الحيرةُ وحاق بها الانحدار من كلّ مكان" [29].ولكنْ هل الطريق إلى العدل هو صياغة نص دستوريّ؟ قد نتفهّم لوْعةَ هذا الأمير المصلح. وقد نجد لندائه "الدستوريّ" تفسيرا، لكنّنا نرجّح أنّ العمران الذي أساسُه العدل أمر بالغ التعقيد والتركيب .

تُقدِّم الدراسات التاريخيّة السلطانَ سليمان الأوّل (1520-1566) واحدا من أبرز حكّام السلطنة العثمانيّة وَلَعًا بالمراسيم. فقد أَسْبَغَ عليه المناصرون له لقب "القانونيّ"، ومردّ ذلك حبّه العدلَ ورغبته في أنْ يضع للأحفاد ما يدوم به ظلّ الخلافة. ومِن مآثره أنّه جمع يوما "أهل ديوانه... وقال لهم: سبحان الدائم الباقي الذي لا يزول ملكه، ها نحن سلكنا طريق آبائنا وأجدادنا، ولا نعلم ما سيكون بعدنا... وإنّي عزمت على جعل قانون يحتوي على تخويف وردع لمن يخرج من ذرّيّتنا عن الصراط المستقيم" [30].وحتّى يضمن تنفيذ ما أقرّه كلّف جهازيْن للمتابعة والتنفيذ: العلماء (رجال الدين)والجيش (الانكشاريّة). العلماء للحثّ على الالتزام بما في القانون، والجيش للردع باستخدام ما يلزم من القوّة المادّية. ولابن أبي الضياف تعليقٌ على جهازيْ المتابعة والتنفيذ يَحْسُن أن نتوقّف عنده قليلا: "القانون الحقيقيّ عند الإسلام هو الشرع... فأمَر رحمه الله (يعني سليمان الأوّل) العلماءَ بما يجب عليهم.

قال تعالى: §وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ§.إعذارا للمخالف حتّى لا تكون في الإسلام فتنة... فإن تمادى في مخالفة الشرع لم تبق إلاّ القوّة العسكريّة المجعولة للذبّ عن حمى الدين إذ لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق" [31.]

لم يخرج ابن أبي الضياف عن محدّدات العقل السياسيّ الإسلاميّ الكلاسيكيّ. فهو يذكّرنا بأنّ في الإسلام نظاما سياسيّا لتدبير الشأن العامّ. وهو بذلك يمنع كلّ نزعة تروم أن تشدّ المسألة القانونيّة في عصره إلى التأثّر بالنظم السياسيّة الأوروبّيّة. ويُرجِع في ضوء ذلك وظيفة الأجهزة الرقابيّة والتنفيذيّة إلى مَنْشَأ دينيّ وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو بذلك يمثّل جيلا من الإصلاحيّين الذين تتنازعهم ثقافتان: ثقافة قانونيّة مدنيّة وثقافة فقهيّة شرعيّة. وبقدر ما يلوح الانتماء إلى ما هو مدنيّ دليلا على الانخراط في تيّار التحديث، يتكشّف الحضور الدينيّ الكثيف عن مشاكل حقيقيّة تحرم الفكر السياسيّ في القرن التاسع عشر من التشكّل بعيدا عن التلفيق والتركيب .

والعلّة التي قدّمها السلطان سليم الأوّل لسنّ القوانين وإجرائها تحتاج منّا إلى شيء من التوقّف أيضا: فالتفكير في سنّ قانون لإجراء العدل نشأ من رغبة السلطان الذاتيّة ولم يكن نتيجة وعي ثقافيّ وسياسيّ وقانونيّ عامّ. ولعلّ السلطان لو كان تعرّض لضغط تيّار تحديثيّ من أجل إقرار الحقوق ما كان ليَقبل. وهذا من طبيعة الحكم الفرديّ. فالإصلاح الذي يرفع سليمان الأوّل لواءه آتٍ من فوق. وكلّ محاولة من هذا القبيل لا يمكنها أن تغيّر المسار العامّ لحياة المجتمع. وعلاوة على ذلك، لم نر في علّة إجراء القانون بعدا ثقافيّا أو فلسفيّا يضع هذه الرغبة في مداها الإنسانيّ الصحيح. فأنْ يكون القانون موضوعا من أجل أنْ "يحتويَ على تخويف وردع"، فهذا لا يدلّ على أنّ الحياة العثمانيّة في هذا العهد تنتظر نصّا قانونيّا يستجيب لحقوق الإنسان الحيويّة والأصيلة.

كان المقصد الرئيس من مبادرة سليمان القانونيّ هو تثبيتَ دعائم حكمه وحكم ورثته من بعده. وكان "التخويف والردع" آليّة لضمان ذلك. ونعتقد بأنّ مفهوم "احتكار استخدام الدولة للعنف" غير وارد في هذا الإطار رغم ما قد يوحي به استخدام مفردتَيْ"التخويف والردع". وبناء على هذا نستطيع أن نقول إنّ اتّجاه الإصلاح في مركز السلطنة العثمانيّة وملحقاتها لم يتمحّض خالصا للمساعَدَة على تركيز قواعد الحكم الرشيد المسنود بجهاز فلسفيّ وثقافيّ حديث حول الدولة. ولا عجَبَ والحال هكذا أنْ يكون خرق النصوص آتيا من واضعيها. نقل ابن أبي الضياف قصّة لا نخالها إلاّ حقيقيّة وهي أنّ سليمان القانونيّ "تعمّد مخافة القانون ولم يمتثل"التغيير" العلماء. فأنهوْا ذلك إلى الينجريّة. ففعلوا بمقتضى قانونه.فشكر الله ورجع عن مخالفته. وكرّر ذلك

ثانيا وثالثا وقال: إنّما فعلتُ ذلك لنرى بروز القانون من القوّة إلى الفعل إذْ لا بدّ من رجال يعملون به، ويلزم تدريبهم على إنكار المخالفة" [32].فظاهر المخالفة في هذه القصّة هو الثناء على رغبة من السلطان في مساعدة رجال سلطنته على التيقّظ وردع المخالف منهم خلال تقصّدِه تجاوز القانون المشار إليه.لكنّنا نميل إلى أنّ استمرار السلطان في صنيعه مأتاهُ من عدم قدرته على الخضوع للقانون أو من شعوره بأنّه فوق القانون. وهذا معنى قولنا إنّ المراسيم إنْ لم تخرج من رحم ثقافة سياسيّة وقانونيّة تفقد كلّ أثر إيجابيّ في حياة الفرد والجماعة.كذلك كان حال "التنظيمات الخيريّة". كانت رغم ما فيها من حسّ سياسيّ باهتة من جهة مقدّماتها التأسيسيّة .

ويهمّنا في هذا السياق أنْ نتوقّف قليلا عند جملة الختام التي أنهى بها السلطان عبد المجيد نصّ التنظيمات. جاء في النسخة المعرّبة التي وزّعتها السلطنة على مقاطعاتها العربيّة ما يلي: "وكلّ مَنْ يصدُر منه ما يخالف هذه القوانين الموضوعةَ على أساس متين، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا نال فلاحا إلى يوم الدين" [33].تأخذنا الجملة إلى مقام منبريّ ترتفع فيه الأكفّ إلى السماء وتردّد فيه الألسن عبارات التأمين. وكان المتوقّعُ أن يظلّ السلطان في مقام الحاكم يضبط آليّات الالتزام بالقوانين الجديدة. وهو حين ينصرف إلى عوالم الدعاء بالشرّ على مَنْ لا يلتزم بما في "التنظيمات" يكشف عن تساكن النقيضيْن فيه: المدنيّ الحداثيّ والدينيّ الأخلاقيّ. وهما نقيضان بسبب تصادم المرجعيّتيْن اللّتيْن نَبَعَا منهما من جهة، ولعدم بروز اجتهادات تعمل على تكييف معقول النقيضيْن تكييفا يتقارب به محمولهما الفكريّ أحدُهما من الآخَر من جهة ثانية .

وهذا لا يمكن أنْ يسهّل عمليّة انبثاق سياق ثقافيّ- سياسيّ جديد. فالسلطان عبد المجيد يتقمّص في الآن نفسه جلباب الشيخ الآتي من تقاليد الرئاسة كما تبلورتْ في كامل مراحل "الحكم الإسلاميّ"حيث تكون الرئاسة "موضوعة لخلافة النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" [34]ويتقمّص دور الداعي إلى إجراء القوانين العصريّة كما أبدعها العقل السياسيّ المدنيّ الغربيّ الحديث .

وما التكييف إلاّ ترجيح عقليّ للمعقول على اللاّمعقول في نظام عمل الحضارتيْن الإسلاميّة والغربيّة ينزاح به منهما كلّ عنصر فَقَدَ جدارته بالبقاء موجّها للفكر والسلوك. وحين يحصل مثلُ هذا الأمر، تخرج كلّ حضارة من مدارها المغلق والحميم وتفتحُ من داخلها نحو خارجها مسارات التقاء مع غيرها لا عُقَدَ فيها. لكنّ الواضح أنّ المحاولات التي رام بعضُ إصلاحيّي"دار الإسلام" في القرن التاسع عشر أنْ يغيّروا بها الواقع لم تُؤْتِ أكلها طيّبا لأنّها لم تنخرط عميقا في مشروع التكييف الذي ألمعنا إليه. ويبدو أنّ الأمر ليس بمستغرَب في سياقه التاريخيّ- الثقافيّ لانعدام مقوّمات

النهوض به مثل الاستعداد للانفصال الإيجابيّ عن المدار الحضاريّ الأمّ من ناحية والإقبال على التفاعل المفتوح مع المدار الحضاريّ الغربيّ من ناحية أخرى .

وكانت النتيجة المباشرة هي أنّنا شاهدنا مُعاشَرةً غير شرعيّة بينهما في عقل المصلح الواحد دون وعي بما يفصل بين هذيْن المجاليْن الحضاريّيْن من مسافات وأبعاد. وهي، على المدى الطويل، ليس لها إلاّ أنْ تحيل على حالة حضاريّة هجينة. وليس غريبا أنْ تسوء حالة "الرجل المريض" سوءا قاده إلى الفناء إذا أخذنا بعيْن الاعتبار أنّ منْ شخّص داءه واقترح علاجه هو "الحكيم" الأوروبّي .

كان ما أطلقتْ عليه أوروبّا"المسألة الشرقيّة (La question d’Orient) ” [35]هو الفضاء الجغرافيّ والثقافيّ والسياسيّ الذي ستنفّذ فيه الحركة الاستعماريّة برامجها التوسّعيّة. وليستْ وصفات العلاج التي تسرّبتْ في مراسيم أو دساتير إلاّ تلطيفا سطحيّا من سرعة السقوط الذي انطلقتْ فيه السلطنة العثمانيّة .

نحبّذ استخدام عبارة"المراسيميّ" بدل عبارة "الدستوريّ" [36]لأنّنا نعتقد بأنّ تاريخ الإصلاح السياسيّ في القرن التاسع عشر غلبت عليه كتابة النصوص القانونيّة دون أن يكون للحسّ التاريخيّ أثرٌ في إنضاجها. ولا ريبَ في أنّ تجربة الإصلاح "المراسيميّ" التونسيّة في القرن التاسع عشر هي من أكثر التجارب شهرة، ولكنّها أيضا من أكثرها إفصاحا عمّا يمكن أن نطلق عليه فوضى العقل الإسلامي وهو يبحث عن مَخَارِجَ من مدارات التخلّف. والفوضى التي نقصد هي ذاك الجهد "المحمود" الذي بُذِلَ لتفكيك الواقع دون الاستقرار في أفق حداثيّ بيّن المقاصد والمسالك. كان جهدا يحرّكه القلق ويدفع به إلى القيام بعمليّات تركيبيّة غير عقلانيّة لمنتجات أوروبّا الحديثة ورصيد العقل الإسلاميّ الجاهز دوما للتطبيق. ولم يتسنّ بفعل هذا الاتّجاه التركيبيّ تكوين رؤية في الإصلاح تمتلك من الشجاعة العقليّة ما به تؤسّس بديلا متكاملا.

عهد الأمان: قراءة سياقيّة

نعتبر "عهد الأمان" [37]سياقا ونصّا المثال الأبرز الذي يجسّد ما أسميناه بفوضى العقل الإصلاحيّ في القرن التاسع عشر. فإذا كان سليمان القانونيّ استحدث من تلقاء نفسه نصّا"دستوريّا" وحضّ الناس على الالتزام بما جاء فيه وإنْ مِنْ خارج السلوك الثقافيّ العامّ للسلطنة العثمانيّة، فإنّ "عهد الأمان"، النسخةَ المُطوَّرةَ من "التنظيمات"، ينقلنا إلى حيثُ انتفاء الوازعيْن الذاتيّ والداخليّ وحضور الضغط الخارجيّ [38].والراجح أنّ هذا الوجه

الثاني من حركة الإصلاح كان صاحبَ الشوكة الأمضى في القرن التاسع عشر. ولذلك يمكن أن نفهم إلى حدّ بعيد لِمَ كانت النتائج محدودة .
توجّه القنصل الفرنسيّ ليون روش (Léon Roches) إلى باي تونس محمّد بن حسين (1811- 1859) وقد استقرّت رغبة أوروبّا في "إرضاخ" المملكة للقانون بالقول: "إنّ محبّتي فيك وفي بلادك حملتني على نصحك". وطفق يعدّد له أحكاما جائرة تضرّر منها المتقاضون الذين كان الباي يجلس للفصل في نوازلهم منبّها على خطورة ما يترتّب على الظلم من ردود. وحثّه على تغيير هذا النهج. وبادر الباي بإعلان النيّة لإنشاء مجلس للقضاء يخفّف به سُخط الخارج عليه. ويبدو أنّ هذا الخارج كان يطلب ما فوق ذلك. ووجدنا ابن أبي الضياف يستعمل صيغة لغويّة ينقل بها الانطباع الذي حصل له وهو يرصد ملامح القنصل وهي "تقانع" (وتقانع بذلك).ولا شكّ في أنّها تدلّ على عدم الرضى وإنْ أخفَتْه. والفرق بينها وبين الصيغة"اقتنع" لا يحتاج إلى تفصيل. ولمّا تكلّم القنصل أوجَز دون أنْ ينجح في كتمان ما قرأه فيه ابن أبي الضياف. قال في ما يشبه الأدب الديبلوماسيّ: "نرجو أن يكون هذا كافيا في سكوت الدول عنك" [39].ولم يأخذ الرجاء مداه في الزمان كما لم يأخذ مشروع الباي حظّه من التطبيق .
لم تسكت الدول عن الباي. ولم تحمد له ما عزم على تنفيذه. فقد أسرعتْ إليه ترفض مبادرتَه إلى إنشاء مجلس للقضاء وتطلب منه "دستورا". نقرأ في "الإتحاف" ما يفيد التصميم على أن يستجيب الباي دون إبطاء: "ومن الغد، جاء قنصل الإنقليز..." [40].وما كاد هذا الغد ينقضي حتّى هبّ إلى المجيء في الغد الثاني قنصل فرنسا: "ومن الغد، جاء قنصل الفرنسيس" [41].وما نلاحظه في هذا المشهد الجيوسياسيّ هو الحركيّة الديبلوماسيّة التي لا تهدأ والتي يختلط فيها الترغيب بالتهديد والسياسيّ بالفكريّ بما يُنْبئ عن تطوّر سريع في انتزاع كلّ ما يمكن انتزاعه من مكاسب. وقد شدّتنا محاورةٌ بين القنصل الإنجليزيّ ريشارد هود(Richard Wood) وابن أبي الضياف حول علاقة الإصلاحات المزمع إجراؤها بالدين. يخاطب ابنُ أبي الضياف القنصلَ ناقلا مخاوفه باعتباره مسلما: "إنّ هذا الترتيب المطلوب منّا، ربّما يمسّ ديننا" [42].ويردّ القنصل ردّ العارف بمقاصد الإسلام المُنْبَري مُعلّما أهل الإسلام أصول دينهم: "إنْ أردتَ دينكم الذي كان عليه سلفكم وبه هُدم في ثمانين سنة ما بناه الرومان في ثمانمائة سنة، فهو المطلوب منكم. وإنْ أردتَ تلوين فتاوى الفقهاء على حسَب أغراض الملك، فمعاذ الله أن يكون هذا دينا. وغايةُ المطلوب منكم إجراء أصول دينكم. ويقبح بأمّة أن يغصبها على العمل بدينها أجنبيّ" [43].ولا يجد ابن أبي الضياف ما به يعلّق إلاّ قوله بينه وبين نفسه: "فأخجلني ولم أجد جوابا" [44 .]

شدّتنا المحاورة لسبب على الأقلّ وهو الصراحة الفاضحة في الخطابيْن. إنّ الغالبَ عليها هو وعيُ المتناظريْن كليهما بأنّ استحداث "دستور" تونسيّ ليس اختيارا محلّيّا ولا هو ضرورة اقتضاها تطوّرٌ في محصول الفكر السياسيّ والقانونيّ التونسيّ. إنّه من باب الفرض والإلزام.ولذلك استخدم ابن أبي الضياف عبارة "المطلوب منّا"، وكرّرها القنصل الإنجليزيّ: "فهو المطلوب منكم" دون أدنى احتراز. فـ"اللّعب"، على المجاز السياسيّ، نلحظه بأوراق مكشوفة. كان ابن أبي الضياف عارفا بالمنزلة التي هو فيها وكذا كان القنصل الإنجليزيّ. لم يراوغ أحدهما الآخَر. مشكلة ابن أبي الضياف تكمن في توجّس من نوع آخَر: ماذا لو خالفتِ الترتيباتُ المُزمع إجراؤها الدينَ؟
لم ينصرف بالتفكير إلى أصل القضيّة، ولم يتساءل عن آثارها المحتملة إيجابا وسلبا. وكان أبعدَ ما يكون عن تقليب"المطلوب" على أوجهه الثقافيّة والفلسفيّة من أجل المسك بالمعقوليّة التي فيه. ويبدو أنّه لم يتحرّك في هذا الاتّجاه لأنّ العقل الإصلاحيّ التونسيّ مازال لم يدرك بعدُ، لأسباب متعدّدة، القاع العميق للمسألة الدستوريّةَ. ونعتقد بأنّ هذا، من الناحية الموضوعيّة، صحيح. ولذلك تحرّك بما يتحرّك به العقل الإصلاحيّ التقليديّ الذي قاد الإصلاحَ في القرن التاسع عشر. وكان القنصل عالما بذلك، فكان خطابه في الدين وليس في فلسفة الحكم المدنيّ. ولذلك كان يكفي القنصلَ جهدا أنْ يرتفع اللّبس الذي يسكن العقل الإصلاحيّ الدينيّ حتّى تتمّ الاستجابة.ولعلّ المَغنم فاق انتظارات القنصل. فابن أبي الضياف، بالخجل الذي غرق فيه بسبب تفوّق القنصل عليه في المعرفة بالإسلام، سَحبَ الاعتراضَ وفتحَ الباب على مصراعيْه أمام "المطلوب ."

إنّ مثلَ هذه المعطيات حين تتضافر تستطيع أن تزيل كثيرا من الوهم أو التبجّح الزائد عن الحدّ الذي نجد آثاره في بعض كتاباتنا التونسيّة على وجه الحصر. فليستِ المسألة مسألةَ سبْق تاريخيّ. قد يكون ذلك محمودا لو كان منبعثا من سياق داخليّ وتتويجا لمسيرة في الإصلاح القانونيّ آن الأوان لقطف ثمارها. ولكنّ الذي لا ريبَ فيه هو أنّ شيئا من هذا لا ينطبق على تاريخ الإصلاح السياسيّ/ الدستوريّ إنْ في تونس وإنْ في مركز السلطنة. فاستشراء النزعات العدوانيّة الغربيّة وبدايةُ التحضير للمرحلة الاستعماريّة كانا من وراء كثير من مشاريع "الإصلاح" التي وقع الترويج لها والتغنّي بمزاياها.ولذلك فالمُعوَّل عليه في مثل هذه القضايا هو معرفة ظروف إنتاج النصّ القانونيّ ومضمونه واستتباعاته في الواقع. ومنْ ينظر في ما أنهى به القنصل كلامه حول وجوب تنفيذ "المطلوب" يتأكّد لديْه أنّ هذا الأمر إنْ لم يكنْ طوْعا، كان غصبا. وليس أمام الباي متّسَعٌ من الوقت سوى ما يُمنَح له للتفاوض مع من يريد: "نترك وقتا تتفاوض فيه مع وزرائك ونصحائك، فإنّ

المطلوب منك واقع لا محالةَ ولو بعد حين، فافعَلْهُ باختيارك" [45].ولم تَشذّ رسالة الفرنسيّين عن هذا التهديد. فقد قال قنصلهم: "إنّ المطلوب منك لا بدّ من إتمامه" [46].ولا شكّ في أنّ تَماثُل الرسالتيْن الإنجليزيّة والفرنسيّة وتزامُنَهما لا يتركان إمكانا لاحتمال الصدفة فيها. إنّهما دليل على التخطيط المشترك بين هذيْن البلديْن لتدشين الحقبة الاستعماريّة وإنْ تحتَ خديعة تحديث الشرق وإخراجه من بربريّته .

أظهر الباي الاستعداد لصياغة "عهد الأمان". وينقل ابن أبي الضياف ذلك على النحو التالي: "وتسارع الباي إلى القبول غير مفكّر في معنى ما التزم به" [47].وتكشف صيغة "تسارع" عن تهافت غير مدروس إلى التلبية قد يؤدّي إلى توريط البلاد في محنة لا قِبَلَ للناس بها. والثابتُ في ضوء ما تقدّم أنّه تسارعَ الباي ليس من باب اللّهفة على الإصلاح حبّا فيه، وإنّما هو السعيُ المحموم إلى درء خطر رآه آتيا لا محالةَ إنْ لم يَخِفّ إلى الاستجابة. وتنفتح المحاورة بتوجّه ابن أبي الضياف إلى الباي قائلا: "يا سيّدي إنّ الأمرَ صعب على ملّتك، فاعرِفْ ما تلتزم به، فإنّك بهذا الأمر تكون يداك هكذا: وقبضتُ يديَّ إلى جَنْبَيَّ" [48].ويردّ الباي في لهجة الواثق ممّا يفعل المقدّر لحجم النفع المرجوّ: "لأجل نفْع الرعيّة نرجو بأنْ تكون يديّ هكذا". ويعلّق ابن أبي الضياف: "وقبضهما إلى جنبيْه أشدّ من قبضي". ثمّ يقول: "فقلتُ له: هنيئا لك."

تكشف المحاورة عن شقّ آخَر من المشكلات التي تنهض في وجه السياسات الإصلاحيّة الدستوريّة. فانتقال الخلاف من مستوى الداخل/الخارج إلى مستوى الداخل/الداخل يشير إلى أنّ أرضيّة الحوار ليستْ قاسما مشتركا. والأهمّ من ذلك هو أنّ العقل الإصلاحيّ الإسلاميّ خرج من المناظرتيْن مهزوما: انهزم في مواجهة قرار الخارج بفرض الإصلاحات. وكان الاستسلام عبر عبارة"الخجل" مدوّيا. وانهزم في مواجهة سلطة الباي التنفيذيّة. وكانت عبارة"هنيئا لك" بمثابة إعلان هذا العقل عجزه عن تأدية دوره. وبهذا ينشأ حِلف مُريب بين الخارج الاستعماريّ والداخل التنفيذيّ المتواطئ لكتابة "عهد الأمان."

في نصّ عهد الأمان أحد عشر (11)قاعدة/بندا مدارها في العموم على العدل والمساواة والقضاء والجنديّة والتجارة. ولا نرانا نجادل في قيمتها الحقوقيّة ولا في سندها الحداثيّ أو قوّة مرجعها الغربيّ [49].ولعلّ الشغوفين بـ"عهد الأمان" إنّما شغفوا به للقيم العليا التي فيه. ففي مادّته الأولى تنصيص صريح على مبدأ حقوقيّ إنسانيّ لا يمكن إلاّ الإشادة به وهو معاملة الدولة رعاياها خارج كلّ تصنيف: "تأكيد الأمان لسائر رعيّتنا وسكّان إيالتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان في أبدانهم المكرّمة". وتلتزم الدولة في المادّة

الرابعة بـأنّ "الذمّيّ... لا يُجبَر على تبديل دينه ولا يُمنع من إجراء ما يلزم ديانته". ولا غرابة في أن تكون الحقوق المنصوص عليها ههنا مستوحاة من التجربة الفرنسيّة إنْ في "إعلان حقوق الإنسان والمواطن déclaration ” des droits de l’homme et du citoyen)أو في دستور 03 سبتمبر 1791 .

وكلّ هذا مهمّ. ولا اعتراض عليه. وقد يصلح من الناحية التاريخيّة لإبراز بعض المكاسب النصّيّة في مجال الحقوق والحرّيات. غير أنّ هذا لا يغرينا كثيرا من وجهة نظر موضوعيّة. فحين لا يكون النصّ استجابة لتطوّر حقيقيّ في الحراك الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ يفقد أصالته.وهذا تقريبا واقع الحال في القرن التاسع عشر. كان قرن الإصلاحات"الكبرى" في مجال التشريع. ولكنّ "الرجل المريض" كان مشرفا على الهلاك. فلم ينتفع بها .

وِجْهتنا إذن فليستْ احتفاليّة أو نظريّة. ولذلك لم نشغل أنفسنا إلاّ بالنصّ وسياقه. والسياق عندنا أهمّ من النصّ لأنّنا نعتقد بأنّ نهضة الأمم تتمّ في سياق جدليّ بين الوعي بالتخلّف من جهة والتوق إلى الرقيّ من جهة ثانية. وإنّما تأتي التشريعات لاحقةً الوعيَ لا متقدّمة عليه. ولهذا، نذهبَ إلى أنّ الواقف من خلْف "عهد الأمان" المصالح الأوروبّيّة وليس العقل الإصلاحيّ التونسيّ.

والمدقّق في قواعد "عهد الأمان" يرى أمريْن لافتيْن: الأمر الأوّل هو أنّه من مجموع القواعد ثمّةَ سبعٌ (7) تحضر فيها حضورا مباشرا الجالياتُ الأوروبّيّة تحت أكثر من مسمّى في سياق تمتيعها بحقوق وحرّيات لم تكن لها. والأمر الثاني هو أنّ أربعَ (4) قواعدَ من المجموع، على قلّته، مخصّصة للتجارة ونحوها في سياق تيسير ممارستها من طرف تلك الجاليات. ودون الذهاب بعيدا في الاستنتاج نكتفي بالإلماع إلى أنّ "عهد الأمان" كان رغم ما أحيط به من تبجيل وإطراء أوّلَ نصّ شرّع بالقانون للتدخّل الأجنبيّ وحمى بالقانون أيضا سيطرة المال الرأسماليّ على السوق الوطنيّة.

ما نخلص إليه هو أنّ الجهد الإصلاحيّ في القرن التاسع لم يكن في كثير من مراحله ومطالبه بسبب الوعي بضرورته. فقد كانت جغرافيّة السلطنة العثمانيّة في مجاليْها الترابيّ والسكّانيّ واقعة تحت ضغوط شديدة من أوروبّا. وكانت الأزمة مستفحلة عَزّ فيها العلاجُ لأسباب متعدّدة: ترهّلٌ في الأداء السياسيّ، وعجز عن استحداث بدائل نوعيّة، وانفصال حادّ بين النخبة الفكريّة والمجتمع من جهة وبين شقّ حداثيّ في النخبة، وشقّ تقليديّ فيها من جهة أخرى، وتسرّع الحاكم في تنفيذ ما يُملى عليه... ولهذا كلّه ذهبنا إلى أنّ النصوص والمراسيم التشريعيّة لم تكن نَبْتا أصيلا. كانت جزءا من مشروع أوروبّي للحفاظ على المصالح في زمن تحرّكتْ فيها السلطنة نحو الانحدار والانقراض.

الهوامش:

[1] Nada Tomiche, article “Renaissance”, Encyclopédie de l’Islam, vol 7, nouvelle édition, pp: 901-904.

[2] للتوسّع يمكن العودة إلى: هشام جعيط، أزمة الثقافة الإسلاميّة، بيروت، دار الطليعة، 2000، ص: 63وما بعدها.

[3] عن هذه العلاقات يمكن العودة إلى:

Thierry Hentsh, L’Orient imaginaire: la vision politique occidentale de l’Est Méditerranéen, Paris, éd. De Minuit, 1987.

[4] من ذلك مثلا الرسالة التي وجّهها محمّد بن عبد الوهّاب إلى علماء تونس. حول هذه المسألة راجع دراسة قيّمة لعبد الرزّاق الحمّامي: "من قضايا الفكر الدينيّ بتونس في القرن التاسع عشر"، ضمن كتابه: من قضايا الفكر الدينيّ بتونس، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1992، ص ص: 111- 151.

[6] من أقدم الدراسات في هذا المجال:

- Edouard Engelhardt, La Turquie et le Tanzimat (1882), U.S.A, éd. Kessinger publishing, 2010.

ومن الدراسات المهمّة نذكر:

- Zabit Acer, Ottoman modernization and effects of the Tanzimat edict on today, in : Oean journal of social sciences, 2 (3), 2009.

- Keven Goodwin, The Tanzimat and the problem of political authority in the Ottoman empire: 1839-1876,www.digitalcommons.ric.edu/honors_projects/5.

وهذه الدراسة في الأصل أطروحة جامعيّة بـ: “Rhode Island College 2006”.

- Halil Inalcik, Application of the Tanzimat and its social effects, usa, éd. Peter deRidder Press, 1976.

[7] ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الرابع، ص: 69.

[8] نفسه.

[9] نفسه.

[10] نفسه.

[11] نفسه.

[12] مثل كتاب الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، وكتاب المسعودي "مروج الذهب".

[13] من ذلك مثلا:كتاب الأموال لأبي عبيد، وكتاب الخراج لأبي يوسف القاضي، وكتاب المكاسب للمحاسبي.

[14] أُنظر على سبيل المثال في قائمة الوظائف التي رأى الماوردي أنّ الإمام مدعوّ إلى القيام بها، الأحكام السلطانيّة، فصل [ما يجب على الإمام]، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1990، ص ص: 51-52. وقد تسقط الوظيفة الدينية التي تتقدّم رتْبتُها في هذا النصّ مثلا: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"، الأحكام السلطانيّة، ص:

29، لينحصر دور الإمام في رعاية المصالح: "الإمام مندوب للمصالح"، الماوردي، أدب الدنيا والدين، بيروت، دار الكتب العلميّة،1978، ص: 113.

[15] من الدارسين مَنْ أضاف إلى عبارة "الرجل المريض" كلمة "الشيخ": (le vieil homme malade) في تلميح إلى أنّ النهاية آتية لا محالة، فهي إنِ لم تكن بالمرض، كانت بالشيخوخة. (استخدم هذه العبارة جيروم لويس Gérome Louis في أطروحته للدكتوراه: المسألة الشرقيّة في عهد لويس فيليب (La question d'Orient sous Louis-Philippe)،ويمكن مراجعتها في نسختها الإلكترونيّة على الرابط التالي: http://tel.archives-ouvertes.fr/tel-00550827:ص: 15.

[16] أحمد فارس الشدياق، الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوروبّا، القسطنطينيّة، 1299هـ، ص: 86.

[17] نفسه.

[18] محمّد عابد الجابري، التراث والحداثة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1991، ص: 10.

[19] الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، ص: 80.

[20] خيرالدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، الدار التونسيّة للنشر،1986، ص ص: 8-9.

[21] استمرّت مدّة حكمه من 1861 إلى 1876.

[22] يمكن مراجعة نص الرسالة في: مصطفى بدري، الرؤية السياسيّة من خلال رسالتيْ محمّد بيرم الخامس ومصطفى فاضل باشا، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1993، ص ص:191-216.

[23] نفسه، ص:204.

[24] نفسه، ص:205.

[25] نفسه، ص:206.

[26] نفسه.

[27] نفسه، ص:107.

[28] نفسه.

[29] نفسه، ص:215.

[30] راجع بتفصيل أكثر: ابن أبي الضياف، الإتحاف، الجزء الأوّل، ص: 47 وما بعدها.

[31] نفسه، ص: 51.

[32] نفسه، ص: 50.

[33] نفسه، ص: 56.

[34] الماوردي، الأحكام السلطانيّة، مرجع سابق، ص: 5 .

[35] الكتابات في"المسألة الشرقيّة" كثيرة. أنظر مثلا:

- François Georgeon, L'empire Ottoman et l'Europe au 19è siècle : de la question d'Orient à la question d'Occident, in : Confluences Méditerranée, n° 52, hiver 2004-2005, pp : 29-39.
- Jérome Louis, La question d'Orient sous Louis-Philippe. (Ecole pratique des hautes echer, Paris), http://tel.archives-ouvertes.fr/tel-00550827.

[36] عن المسألة الدستوريّة في تونس في القرن التاسع عشر، راجع على سبيل المثال مقال خليفة الشاطر:

Chateur Khélifa, Le constitutionnalisme en Tunisie au 19è siècle, in : Revue tunisienne des sciences sociales, volume 12, 1975.

[37] أُعلنَ عنه بصفة رسميّة في احتفال بهيج في قصر باردو بتونس العاصمة يوم 09 سبتمبر 1857.

[38] راجع حول هذه المسألة على سبيل المثال :

Armand Maarek, Le pacte echerché et les réformes à travers les archives diplomatiques françaises, in: Denis Cohen-Tannoudji,(sous la direction), Entre Orient et Occident: juifs et musulmans en Tunisie, Paris, éd. L'Eclat, 2007, pp: 133-141.

[39] نفسه، ص:235.

[40] نفسه، ص:236.

[41] نفسه، ص:237.

[42] نفسه، ص:236.

[43] نفسه.

[44] نفسه.

[45] نفسه.

[46] نفسه، ص:237.

[47] نفسه، ص:239.

[48] نفسه.

[49] راجع مثلا دراسة حفيظة شاكر: Les sources d'inspiration de la Constitution tunisienne de 1861 المنشور ضمن الكتاب الجماعيّ:

Le choc colonial et l'islam Les politiques religieuses des puissances echerché en terres d'islam, éd. Paris, La Découverte, 2006, pp: 71-88.

وراجع أيضا دراسة هادية خذر:

Hedia Khadher, La echerché française, le pacte echerché et la première constitution tunisienne de 1861, in : Revue du monde musulman et de la Méditerranéen, volume 59, n° 52-53, 1989.

المراجع العربيّة:

• جعيط هشام، أزمة الثقافة الإسلاميّة، بيروت، دار الطليعة، 2000.

• الحمّامي عبد الرزّاق، من قضايا الفكر الدينيّ بتونس، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1992.

• ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الرابع، الدار العربيّة للكتاب، 1999.

• الماوردي أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1978.

• الشدياق أحمد فارس ، الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوروبّا، القسطنطينيّة، 1299هـ.

• الجابري محمّد عابد، التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991.

• خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1986.

• مصطفى بدري، الرؤية السياسيّة من خلال رسالتيْ محمّد بيرم الخامس ومصطفى فاضل باشا، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1993.

المراجع الأجنبيّة:

•Acer Zabit, Ottoman modernization and effects of the Tanzimat edict on today, in: Ocean journal of social sciences, 2 (3), 2009.

• Chaker Hafida, Les sources d'inspiration de la Constitution tunisienne de 1861, in: Le choc colonial et l'islam Les politiques religieuses des puissances echerché en terres d'islam, éd. Paris, La Découverte, 2006 .

•Engelhardt Edouard, La Turquie et le Tanzimat (1882), U.S.A, éd. Kessinger publishing, 2010.

•Georgeon François, L'empire Ottoman et l'Europe au 19è siècle : de la question d'Orient à la question d'Occident, in : Confluences Méditerranée, n° 52, hiver 2004-2005.

•Goodwin Keven, The Tanzimat and the problem of political authority in the Ottoman empire: 1839-1876, www.digitalcommons.ric.edu/honors_projects/5,"Rhode Island College 2006."

•Hentsh Thierry, L'Orient imaginaire: la vision politique occidentale de l'Est Méditerranéen, Paris, éd. De Minuit, 1987.

•Inalcik Halil, Application of the Tanzimat and its social effects, usa, éd. Peter deRidder Press, 1976 .

•Khélifa Chateur, Le constitutionnalisme en Tunisie au 19è siècle, in : Revue tunisienne des sciences echerc, volume 12, 1975.

• Khadher Hedia, La echerché française, le pacte echerché et la première constitution tunisienne de 1861, in : Revue du monde musulman et de la Méditerranéen, volume 59, n° 52-53, 1989.

•Louis Gérome, La question d'Orient sous Louis-Philippe: http://tel.archives-ouvertes.fr/tel-00550827.

•Louis Jérome, La question d'Orient sous Louis-Philippe. (Ecole pratique des hautes echer, Paris), http://tel.archives-ouvertes.fr/tel-00550827 .

•Maarek Armand, Le pacte echerché et les réformes à travers les archives diplomatiques françaises, in: Denis Cohen-Tannoudji,(sous la direction), Entre Orient et Occident: juifs et musulmans en Tunisie, Paris, éd. L'Eclat, 2007.

•Tomiche Nada, article "Renaissance", Encyclopédie de l'Islam, vol 7, nouvelle édition.

الفنون

الخطاب السينمائي؛ إشكالات التلقي والتأثير

دراسة في الأبعاد الدلالية لصورة المسلمين والعرب في السينما الأمريكية

الخطاب السينمائي؛ إشكالات التلقي والتأثير
دراسة في الأبعاد الدلالية لصورة المسلمين والعرب في السينما الأمريكية

عرض وتقديم الأستاذ: رضوان بلخيري
أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة تبسة- الجزائر-

ملخص :

حرب غير معلنة تشنها وسائل الإعلام الغربية و الأمريكية خاصة على الإسلام والمسلمين مستخدمة فيها شتى الإمكانيات، التي تمتلكها، سواء كانت سينما أو مسرح أو حتى رسوما مصورة، حيث تصور المسلمين دائما على أنهم إما إرهابيون عنصريون أو أميون متخلفون كما تقدم الإسلام على أنه دين عنف وغلو، فاتسمت أفلام هذه الفترة بالحقد والتزييف بغية تغيير وترسيخ نظرة مزيفة للغير عن المسلم. و لمعرفة الصورة التي روجتها الأفلام الأمريكية عن المسلم نستعين في هذه الدراسة بمقاربة التحليل السيميولوجي للأفلام، باعتبار الفيلم منتُوج ثقافي واجتماعي، يحتوي على دوال ظاهرة ومدلولات ضمنية، بحيث سنقُوم باكتشاف مختلف العناصر والدلالات والمعاني المتعلقة بالمسلم في الأفلام الأمريكية .

Summary

Undeclared war waged by the Western media and U.S. especially on Islam and Muslims ‹using the various possibilities ‹which is owned ‹whether a cinema or theater ‹or even cartoons video ‹where the perception of Muslims always that they are either terrorists ‹racists ‹or illiterate ‹backward and presents Islam as a religion of violence and hyperbole ‹ characterized by films of this period of hatred and falsehood in order to change and the consolidation of the fake look is for a Muslim. And to know is promoted by American films about a Muslim in this study we use an approach sémiologie analysis of films ‹the film as a cultural and social product ‹contains functions and implications of the phenomenon of implicit ‹so that we will discover the various elements and connotations and meanings of a Muslim in American films.

Résumé

Guerre non déclarée menée par les médias occidentaux et américains en particulier sur l’islam et les musulmans ‹en utilisant les différentes possibilités ‹qui est détenue ‹soit une salle de cinéma ou de théâtre ‹ou même la vidéo des dessins animés ‹où la perception des musulmans toujours qu’ils sont soit des terroristes ‹racistes ‹ou analphabètes ‹en arrière et présente l’islam comme une religion de violence et l’hyperbole ‹ caractérisée par des films de cette période de haine et le mensonge dans echer de changer et la consolidation de l’aspect faux ‹c’est pour un musulman. Et de savoir est promu par les films américains à propos d’un musulman dans cette étude ‹nous utilisons une analyse sémiologique approche du cinéma ‹le film comme un produit culturel et social ‹contient des fonctions et des implications du phénomène de l’implicite ‹ de sorte que nous allons découvrir les différents éléments et les

connotations et les significations d'un musulman dans les films américains.

تقديم:

تضطلع السينما بأدوار غاية الأهمية على أصعدة الحياة البشرية المختلفة، انطلاقا من التأكيد على قوة المحتوى الذي تقدمه، وتأثيره الشديد على المتلقي – لاعتبارات كثيرة – فهي بلا شك، تعكس قيم المجتمع وثقافته و أساليب حياته مولية الرعاية لاهتمامات الناس وقضاياهم الأساسية مقدمة واقع المجتمعات وطموحاتهم ومساعدة على التحرر العاطفي والاسترخاء والتفكير، ووفقا لهذا المفهوم، غدت هذه الوسيلة الجماهيرية بمثابة النافذة السحرية التي نرى من خلالها أنفسنا والعالم الذي يحيط بنا. وبذا فإن الطريقة التي نرى بها الآخرين إنما يتحكم فيها القائمون على الإنتاج السينمائي، وإن علمنا أن الحجم الأكبر مما يقدم للعالم على شكل وجبات سينمائية، إنما هو " أمريكي " المنشأ، "هوليودي " المصدر، سيتضح لنا أن كل إمكانات الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية لابد لها من سلاح من نوع آخر، يهدف إلى تحقيق مفاهيم على شاكلة " التنميط " و "الغزو الثقافي"، "تشكيل الصور الذهنية"، ما يجعل السينما من الأسلحة الناعمة الفتاكة، ولعل الحرب سواء المعلنة أو الخفية على الإسلام و " كل مخرجاته " هي لأوضح مثال على استخدام السينما لأغراض بعيدة عن البراءة أو القيم الإنسانية السامية، وهاهي كل الشواهد تؤكد على وجود اتفاق عرفي على تقديم المسلم والإسلام في أسوأ التجليات، حاصرة دور المسلم في التقتيل والترهيب واصفة إياه بالتخلف، والجهل والسعي وراء الملذات ... كما توحي تلك الأفلام عن طريق التلميح والتصريح أحياناً بأن فرصة تَقدُم المجتمع الإسلامي لا يمكن أن تتم إلا عن طريق ثقافة أوربية وأموال أجنبية (1)، أما عن الإسلام فهو دين يدعو إلى العنف وتعدد الزوجات وضرب النساء ... والأمر غاية الخطورة لأن إعادة عرض هذه الصور الذهنية بشكل مستمر، قد وحد الرأي العام الأمريكي والغربي بشأن " شيطانية الإسلام "، ما يقدم مبررات منطقية للزوم محاربته والسعي من أجل القضاء عليه.

إن " الإسلاموفوبيا " مصطلح يختصر عمق التأزم الذي يشوب علاقة المسلمين مع الغرب، وهو دليل على قدرة وسائل الاتصال الجماهيرية وعلى رأسها السينما على اختلاق مخاوف من أعداء لا نراهم إلا على الشاشة الفضية، هذا وإن كانت صورة المسلم في السينما الأمريكية قابلة للتأويل من طرف المتلقين، كل حسب أفكاره واعتقاداته وتوجهاته، فإن الدراسة الأكاديمية تقدم تلك الصورة انطلاقا من مداخل علمية، حتى يتم إثبات كل

الذي سبق عن حقيقة تشويه صورة المسلم ومعتقده من خلال السينما الأمريكية التي لا تفتأ تقدم الفيلم تلو الآخر، ملؤه التشويه والتزييف عن الشخصية المسلمة وكعادتها تمولها رؤوس أموال يهودية دون تجاهل بعض التواطؤ العربي، بغية السخرية من الشخصية الإسلامية على وجه الخصوص بصورة مجحفة تدل على التعصب والتزييف والعنصرية، ناهيك عن الأخطاء الساذجة والمتكررة في كل أفلامهم مثل إعلان الآذان بعد شروق الشمس، أو صلاة الجماعة أثناء رفع الآذان، ووضع آيات القرآن الكريم خلف المذابح ... وغيرها من السخافات المتعمدة ونحن نلجأ في الكثير إلى الاحتجاج والاعتراض على هذه الأفلام؛ وما زاد الوضع تأزما وأصبحت الأفلام الأمريكية شديدة القسوة تجاه المسلمين بصورة واضحة بعد أحداث 11سبتمبر 2001م، أين تأزمت الأوضاع بين المسلمين وأمريكا و أجهرت عداءها أمام الملأ للمسلمين ، فتوجهت إلى أضخم مدينة للإنتاج السينمائي إلى "هوليود " محط أنظار الملايين من سكان العالم وحاولت جاهدة منها إلى استغلال هذه الوسيلة وتكريس مبالغ مالية ضخمة إلى جانب نوع من التواطؤ العربي قصد تبليغ رسالة صريحة ملؤها التزييف والتشويه إلى الغرب والعالم العربي عن المسلمين فكثفت من إنتاجها عقب الهجمات الإرهابية التي استهدفت مقر مركز التجارة العالمي بقلب أمريكا، فاتسمت أفلام هذه الفترة بالحقد والتزييف بغية تغيير وترسيخ نظرة مزيفة للغير عن المسلم. و لمعرفة الصورة التي روجتها الأفلام الأمريكية عن المسلم نستعين في هذه الدراسة بمقاربة التحليل السيميولوجي للأفلام، باعتبار الفيلم منتُوج ثقافي واجتماعي، يحتوي على دوال ظاهرة ومدلولات ضمنية، بحيث سنقُوم باكتشاف مختلف العناصر والدلالات والمعـاني المتعلقة بالمسلم في الأفلام الأمريكية، وللوصول إلى معرفة هذه المعاني والدلالات سنقوم بطرح الإشكالية التالية في شكل سؤال مركزي وجوهري عام: ما هي مختلف الدلالات والرموز التي وظفها الإنتاج السينمائي الأمريكي في تقديم صورة عن المسلم؟. ولإثراء الإشكالية المطروحة سنقوم بطرح مجموعة من التساؤلات التي تمثل ركائز أساسية لتفكيك هذه الإشكالية وتتمثل فيما يلي:

- ما هي المعاني والرسائل الضمنية التي نقلت للمشاهد عن المسلم في الأفلام الأمريكية؟
- كيف عبرت الأفلام الأمريكية عن المسلم و الإسلام ؟
- هل كانت الصور الموظفة للمسلم انعكاسا للتوجه السياسي الأمريكي عقب (أحداث 11سبتمبر 2001م.(
- كيف تم توظيف المسلم في فيلم) Traitor الخائن)؟

- ما طبيعة الصورة التي عكسها مضمون فيلم The Kingdom)المملكة)عن المسلم ؟.

.1أهمية الدراسة:

نظرا لما تكتسيه الصورة من أهمية في الإنتاج السينمائي ودورها ولأنها تعد من التقنيات الأساسية للتواصل في نقل المضامين الظاهرة والكامنة في وسائل الإعلام، المختلفة خاصة السينما فإن دراستنا هذه تكتسي أهميتها كونها تحاول دراسة نمط اتصالي مميز في نقل الأفكار والمعلومات والتعبير عن الآراء ووجهات النظر المختلفة.

كما ترتبط أهمية هذه الدراسة أساسا بما أفرزته أحداث 2001/09/11م. من تأزم الوضع بين الولايات المتحدة الأمريكية والمسلمين؛ وتكمن أهمية هذه الدراسة أساسا بموضوع المسلم في السينما الأمريكية إذ أنه لتحديد هذا الموضوع تكون المهمة صعبة ،نظرا لتداخل وتعقد عدة عوامل في تناول هذا الموضوع و أبرزها نقص الدراسات في هذا المجال.

.2أهداف الدراسة :

ترمي هذه الدراسة الوصول إلى استخلاص وكشف معالم الصورة المرسومة للمسلم عبر الفيلم السينمائي الأمريكي وهذا من خلال :

- استنطاق مختلف المعاني والدلالات الخفية في الأفلام الأمريكية عن المسلم محل الدراسة وهذا بقراءتها قراءة خاصة بتفكيك الرموز والدلائل وتحليل الرسائل الأيقونية و اللسانية.
- إظهار مختلف المحاور والمواضيع المتعلقة بالمسلم في السينما الأمريكية ومعرفة كيف تناولت الأفلام الأمريكية لشخصية المسلم عن طريق الكشف عن أهمية الصورة السينمائية في تبليغ الأفكار والمضامين الإيديولوجية.
- التطلع إلى معالم وخصائص الصورة الموظفة للمسلم في الأفلام الأمريكية.
- محاولة الكشف عن الدوافع الكامنة وراء تقديم هذه الصورة عن المسلم.
- الكشف عن الخلفيات الإيديولوجية التي يحملها الخطاب الفيلمي للأفلام الأمريكية عن المسلم.

.3منهج الدراسة :

تهتم وسائل الإعلام بإنتاج رسائل ضمن أنساق دالية محددة، هاته الرسائل التي تحمل في طياتها معاني ضمنية مختلفة يغفل عنها المتلقي والتي هي في الحقيقة مرتبطة ببعض المدونات الداخلة في تكوين البيئة التي نشأ فيها هذا المتلقي، فمثلا : عندما نشاهد حدثا في فيلم، فلا نشاهد ذلك الحدث

خاما ولكن نشاهد رسالة حول ذلك الحدث، بإمكاننا قراءة ذلك الحدث وتأويله ولكن نغفل المحاكاة و المعاني التي من خلالها نقرأ ونؤول (02.(

لهذا نجد أن في تحليل رسائل وسائل الإعلام وخطابات معانيها أهمية كبيرة وهذا من أجل فهم الهدف من بث هذه الرسائل؛ ولما كان موضوع الدراسة يهدف إلى الكشف عن الخفايا الضمنية والظاهرة التي تروجها الأفلام الأمريكية عن المسلم، ارتأينا أنه للإجابة على إشكالية الدراسة والتساؤلات المطروحة ،استوجب علينا البحث و استخدام مقاربة التحليل السيميولوجي؛ إذ بواسطته نتمكن من الوقوف على الدلالات الخفية والمعنى الباطني للرسائل الإعلامية ونسعى لكشف أهمية وظيفة الصورة باعتبارها أداة إعلامية بالإضافة إلى تقنيات ومؤثرات أخرى تحمل أبعاد دلالية ولتحليل هذه الأفلام يجب استخدام الأدوات والتقنيات التالية: الأدوات الوصـفية، الأدوات الاستشهادية، الأدوات الوثـائقية.

إن طرق تحليل الأفلام تختلف باختلاف الهدف الذي تصبو إليه الدراسة، ويتم ذلك باختيار طريقة التحليل التي تشمل عملية الوصول إلى الهدف الرئيسي، واستخراج وحدات التحليل، لذلك اعتمدنا على المدخل السيميولوجي وهو أكثر المداخل صلة بمجال تحليل الأفلام السينمـائية. وهذا التحليل لا يترك الكثير من التفاصيل الخـاصة بالزوايا الاجتماعية، الثقافية، السيكولوجية والسياسية، ويرتكز ويهتم باللّغة وكيفية التعبير عن الدلائل، خاصة وأن الفيلم عمل فني مستقل قادر على توليد النص (تحليل نص) يُقيم دلالات على منهج سردي (تحليل روائي) ومعطيات بصرية وصوتية (تحليل أيقوني)(03) ؛ لهذا فإن مقاربة التحليل النصي تُعتبر المقاربة الأكثر ملاءمة لطبيعة الدراسة ويقول كل من ''Jaques Aumont''جاك أومو و Marie '' ''Michelماري ميشال في كتابهما تحليل الأفلام " أن التحليل النصي يرتكز أساسا على اعتبار الفيلم نصًا وهو الذي يحدد أساس الفيلم في تحليله (04) ".والنص الفيلمي هو نتـاج تركيب Combinaison عدة شفرات *(Codes) تختلف طريقة توظيفها وإعدادها من متكلم لآخر (05.(
يقُوم التحليل النصي على اعتبار الفيلم نصا، وهذا النص يتكون من ثلاثة مفاهيم أساسية وهي: النص الفيلمي وهو الفيلم كوحدة خطاب، والنظام النصي وهو خاص لكل فيلم يحدد للنص النموذج البنيوي للغرض الفيلمي، إلى جانب الشفرات، ويشير أيضا التحليل النصي للأفلام لدراسة الكتابة والخطـاب الفيلمي من خلال دراسة نسقه، مكوناته، وظائفه، وهذا للوصول إلى تفسير المعنى المنتج من خلال هذه الكتابة أو كما قال عنه "كريستيان ماتز

"Christien Metz": ""أنه عندما نتكلم فإننا نتكلم عن الفيلم كخطاب دال بتحليل بنيته الداخلية ودراسة مظاهره وأشكاله الداخلية، خاصة وأن الصورة السينمـائية تشمل على مظهر خارجي يمثل المعنى التعييني للرسالة،كما يشمل على المضمون الداخلي الذي يحمل معـاني ضمنية.

1.3.التحليل الفيلمي

يُقصد بتحليل الفيلم تجزئة بنيته إلى مكوناتها الأساسية ثم إعادة بنائه لأهداف تخدم التحليل ولهذا يجب في هذا السياق، الانطلاق من النص الفيلمي " texte filmique le "وذلك لتحديد العناصر المميزة للفيلم، وبعد تجزئة الفيلم يتم تأسيس الروابط (les liens) بين مختلف العناصر المعـزولة (06.)

أولا : دائرة التحليل النصي

ولد مفهوم التحليل النصي ليضع حدا للأخطار التي تحدق بالتحليل الفيلمي من جراء الكم الكبير من الأدوات المستخدمة في التحليل ، ويؤكد جاك أومون على أن اهمية التحليل النصي تنبع من الآتي:

*يطرح التحليل النصي وخاصة مدلول النص سؤال "وحدة العمل وتحليله "(07) ، كما يرتبط مفهوم التحليل النصي بمفهوم آخر على قدر من الأهمية وهو مفهوم : البنيوية وفيما يلي لمحة عن وجه التقابل بين المفهومين:

أ. البنيوية والتحليل النصي

انتهت كلمة البنيوية في الستينات لتدل على كل ما هو ثقافي ... لذلك دخلت نظريات الفيلم وتحليله بإعتبارها ثقافة ضمن مجال اختصاص البنيويين، وكان إهتمام البنيويين منصبا على الأفلام السينمائية انطلاقا من مدلول البنية في حد ذاتها والتي تبحث في البنية الكامنة للإنتاج المعين بغرض تفسير شكله الظاهر ولعل المفكر البنيوي الشهير " كلود ليفي ستروس " يعد أول من انتبه إلى أهمية دراسة البنى الداخلية للأعمال الإبداعية ، وخاصة بدراساته حول الأساطير التي كانت إلى وقت قريب تعتبر أعمالا اعتباطية ولكنها حسب المفكر البنيوي ذات دلالات عميقة.

ينطبق التحليل البنيوي على كل الإنتاجات الهامة ذات المعنى ، من الأسطورة إلى الشعور، مرورا بالإنتاجات المتصفة بالمحدودية والمزيد من التعريف التاريخي التي هي الأعمال الإبداعية الادبية والفنية (الأفلام مثلا)، والتحليل النصي للفيلم يشتق حسب "ليفي ستروس"، دون ادنى شك من التحليل البنيوي (08.)

ب. الفيلم السينمائي باعتباره نصا

إذا نظرنا إلى الفيلم السينمائي باعتباره نصا إبداعيا مؤلفا فإننا نقف على جملة من الأمور المهمة في التحليل، يستعير التحليل الفيلمي من علم الدلالات البنيوية المفاهيم الأساسية التالية:

النص الفيلمي ، المنظومة النصية ، الشيفرة الفيلمية.

4- النص الفيلمي هو كل مركب من مجموع رموز ودلالات اللغة السينمائية ، ويتميز بكونه يعبر عن " وحدة الخطاب " في الفيلم.
4- المنظومة النصية الفيلمية الخاصة بكل نص تدل على نموذج لبنية هذا البيان الفيلمي.
4- الشيفرة في الفيلم السينمائي هي منظومة العلاقات والفروق وهي أعم من المنظومة النصية.

و تمتاز الشيفرة الفيلمية ضمن التحليل الفيلمي النصي بأهمية متعاظمة ، فالتسليم بوجود رموز وشيفرات داخل الفيلم هو من أهم الأسس التي يبني عليها المحلل السينمائي تحليله(09).

ت. خطوات التحليل النصي

سوف نعرض فيما يلي اهم الخطوات التي يمكن أن يتابعها المحلل المستعمل لدائرة التحليل النصي وهي :

4- إكتشاف شيفرة الفيلم.
4- إكمال التحليل والوصول به إلى مرحلة "التحليل غير قابل للانتهاء ”
4- الدقة في اختيار مقاطع التحليل.
4- تحليل بدايات الافلام لأنها تشكل مناحي تعريفية للسرد الفيلمي (10).

وكلها خطوات عملية ذات أبعاد مهمة في عملية التحليل الكلية التي تتشكل من ارتباط كافة العناصر والدوائر والأدوات، وعلى الرغم مما يوفره التحليل النصي من إمكانات تحليلية مدهشة إلا أنه لاقى الكثير من الانتقادات من قبل مجموعة من المهمتين بالتحليل الفيلمي .. ولعل أهم هذه الانتقادات ما يلي:

4- اقتصار التحليل الفيلمي النصي على السينما السردية ، وهو غير مناسب لما سمي بالسينما التجريبية
4- إنه يشجع حب التشريح من أجل التشريح..
4- يتناسى السياق الإنتاج والتلقي الذي أقتطع منه الفيلم السينمائي.
4- وأخيرا ، فهو يعرض الفيلم إلى خطر الاختزال الكلي في المنظومة النصية (11).

ثانيا : دائرة التحليل الروائي

أ. الرواية والفيلم

ترجع علاقة الفيلم بالرواية الى سنوات بعيدة، وبرغم ظهور السيناريو كنص مكتوب للسينما، إلا أن هذه العلاقة مهيأة للاستمرار، وتحمل معها أسباب ديمومتها، لاعتبارات التلاقي بين دفتي كل من الرواية والفيلم، ثم بسبب كون السينما فنا يشكل ملتقى لكل الفنون الأخرى، بما فيها فن الرواية ولقد كان كل من "جورج ميليه" و"جريفث" أول من وطدا أواصر هذه العلاقة وعملا على تطويرها منذ مطلع هذا القرن وقد تلاهما عدد كبير من مشاهير المخرجين ومن ضمنهم "بودوفكين" و"فورد" و"كيروساوا" و"ريفيه كلير"، فنقلوا الى الشاشة أعمالا روائية معروفة.

وهكذا استطاع المتفرج أن يشاهد أفلاما عديدة، كانت كتابات أدباء كبار، مثل "تولستوي" و"همنجواي" و"ديكنز" و"جيس جريس" على سبيل المثال أساسا لها. وكذلك الحال على الصعيد العربي، إذ أخذت أواصر هذه العلاقة تتوطد مع الزمن واتجه عدد كبير من المخرجين الى كتابات أدباء مثل نجيب محفوظ واحسان عبدالقدوس وغسان كنفاني وغيرهم. بيد أن مخرجي السينما، والنقاد على حد سواء لم يتوقفوا عن إبداء الرأي بشأن هذه العلاقة وليس بغائب عن الاذهان الاشكال الروائية الحديثة، واستفادتها من السينما، والعكس كذلك صحيح وقد حدث بالفعل، ولا عجب في هذا، اذ كما يقال فان هناك قواعد للغة السينمائية، ولها أسلوبها كذلك.

كما هو معلوم أيضا، فلقد جرت محاولة تعريف بعض عناصر هذه اللغة بالرجوع الى المصطلح الادبي، بغية ايجاد المعادلات بين الفيلم والرواية. فالمقطع على سبيل المثال في السينما، يواجهه الفصل في الرواية. والمشهد تواجهه الجملة، والحبكة يواجهها المونتاج، والكلمة تواجهها الصورة... الخ؛ أي أنها علاقة حميمة، قائمة على مبدأ الافادة والاستفادة. مبدأ الاخذ والعطاء، واستيعاب الفنون لبعضها، بحثا عن صيغ جمالية جديدة، تتوافر على اسباب أكثر قدرة كوسيط تعبيري للوصول الى المتلقي، الذي هو القارئ (في الرواية) والمشاهد (في الفيلم.(

لقد اختلف المخرجون، فقال بعضهم بأفضلية الاعتماد على نصوص أدبية ضعيفة وذلك لإمكانية تجاوزها عند المعالجة الفيلمية، بينما قال البعض الآخر بأفضلية الاعتماد على نصوص أدبية مرموقة لها شهرتها، ذلك لأنها من وجهه نظرهم سترتفع بالفيلم الى أعلى المستويات.

وسواء أخذنا بهذا الرأي أو ذاك، فانه من المعلوم بعد ان اتضحت حدود لغة السينما، فإن أي فيلم يكتب له النجاح، إنما بسبب السيناريو، سواء أعد هذا عن رواية، أم كتب خصيصا لإخراجه بدون الاعتماد على رواية معينة.

ويمكن ان نضيف قول "اندريه بازان" : أن الفيلم ليسر مجرد تصوير للرواية، كما أن الإعداد التام لا يعني التنازل عن الحرفية السينمائية تحت

ذريعة الامانة في الترجمة والا، فما هو ليست السينما مجرد تصوير » و « ان السينما فن قائم بذاته » : مصير تلك المقولات الهامة « للأدب معادله السينمائي » و « للرواية لا يمكن للسينمائي ان يعتمد عل الوصف كما يفعل القصصي » : بل " يقول "ارنست لند انه يجب عليه ان يقدم عرضا خلاقا لأحداث تقع فعلا، ولا يكفي ان يصف الشخصيات، بل .« يجب ان يقدمها من خلال أعمالها »(12.(

ثالثا : دائرة التحليل الأيقوني (السمعي – بصري(

ينبغي أن نلاحظ أولا أنه من المستحيل تقريبا تحليل رواية فيلمية تحليلا مضبوطا دون أن ندخل اعتبارات مرتبطة بالوجه البصري لهذه الرواية، بل إن أساس التحليل الفيلمي هنا يتم من خلال ما يلي:

أ. قوة السرد الفيلمي

يقول "كولكر" : " التعبير عن الواقعية عبر الصورة ، لم يعد تعبيرًا تجريديًا فحسب، بل هو تعبير للفهم، و إدراك الصلة بيننا ، انا، وانت والآخر وهذا العالم الذي يتجسم ويختزل أمامنا كل يوم عبر الصور الرقمية التي لا ينقطع مدها"(13.(

يحيلنا مصطلح " تعبيرية الصورة " الى منطقة أخرى في القراءة الفيلمية والتحليل السينمائي، هي " قوة السرد " وتنطلق هذه من حقيقة ما يقوله الفيلم أو ما يرويه، وعند الوصول الى هذه المنطقة نكون قد وصلنا الى شبكة المرويات ضمن بنى السرد، والسرد – بحسب كولكر – هو " بناء أو معمار القصة، وبمقدار عنايتنا بتتبع بنى السرد وشبكة المرويات في الفيلم السينمائي، فإننا بصدد قراءة الحبكة وتحليلها لأن الاقتراب من الحبكة ببساطة شديدة هو اقتراب من الآلية التي بموجبها يتم توزيع الأحداث الفيلمية او القصصية او الروائية على مسار الزمن.

إن الصورة السينمـائية بدورها تحتوى على معنى تعييني للرسالة وعلى معنى تضميني (مضمون داخلي للرسالة) وهي تعكس سياق مرتبط بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي أخذت منه؛ و يعتبر رولان بارث Roland barthe أول من وضع منهجية التحليل السيميولوجي للصورة، وتقوم على مستويين: التعيينيي (Dénnotation) والتضميني (Connotation) (يتعلق النظام الأول بالمستوى التعييني بين الدال والمدلول في خضم الدليل، أما المستوي الثاني، التضميني فيرتكز على العلاقة التي تربط الدليل(دال+مدلول) بالمحيط الخارجي أي يرتبط بالنظام الاجتمـاعي وبالسياق الثقافي و السوسيوثقـافي (14.(

كما أن التعبير عن هذه المستويات يتم من خلال القيام بعملية تحليلية نصية لفيـــلمي " المملكة و الخائن " بإتباع أولاً أدوات التحليل الفيلمي ثم تحليل

الصورة، ففي المستوى التعييني نقوم بتحديد ووصف شريط الصورة، اللقطات وشريط الصوت، أمـا في المستوى التضميني سوف نتطرق إلى تحليل الشفرات البصرية كحركات الكاميرا، زاويا التصوير وسلم اللقطات ودلالات الصورة بالإضافة إلى تجسيد الشفرات (المدونات) السينماتوغرافية، والتعمُق في معاني الصورة والقيم الرمزية و الأيقونية، وسنركز أيضا على المستوى الألسني (على الجانب اللغوي) باهتمامنا بالنص الفيلمي سواء كان في شكله المنطوق أو في صيغة بيانات مكتوبة، ثم نقوم بشرح وتفسير الأبعاد الدلالية والمعاني الغير المباشرة للنص الفيلمي.

بعد كل هذه المراحل، يمكن استخراج المعنى التعييني للفيلم أي الشكل الجلي للعيان، أما التحليل التضميني فيُمكن كشفه من خلال ربط الجانب الكمي المتمثل في التقطيع التجزئة ووصف صور الفيلم بالبعد الإيديولوجي والتضميني وتحديد التفاعلات التي تحدث بين وحدات التحليل فيما بينها، وبالتالي الوصول إلى معرفة مختلف المعاني والدلائل المتعلقة بصورة المسلم في السينما الأمريكية.

4- عيـنة الدراسة:

لإنجاز هذه الدراسة لابد من تحديد العينة التي تُعرَّفُ على أنها "عبارة عن مجموعة جزئية من مجتمع الدراسة يتم اختيارها بطريقة معينة وإجراء الدراسة عليها ومن ثم استخدام تلك النتائج وتعميمها على كامل مجتمع الدراسة الأصلي " (15)، وطبقا لطبيعة الموضوع المدروس فتحديد مفردات العينة مرحلة هامة في البحث على أن المفردة هي" عبارة عن أحد المفردات أو المُشاهدات التي تم اختيارها ضمن العينة وبالتالي فإنها تدخل ضمن الدراسة "(16). وعلى هذا الأساس فإن موضوع دراستنا يتناول " المسلم في السينما الأمريكية " ، ومجتمع البحث في هذه الحالة يتمثل في الأفلام الأمريكية التي تناولت موضوع المسلم، وأما بالنسبة لموضوع العينة فهي عينة قصدية عمدية ، فقد تم اختيارنا لفيلمين مهمين يتناولان الإسلام و المسلمين وهما الخائن " Traitor"للمخرج جيفري ناشمانوف Jeffrey Nachmanoff،والمملكة The Kingdom نظرا لبعض السمات والأوصاف التي تَخدُم الدراسة وأهدافها، لقد قمنا باختيار مجموعة من الوحدات بصورة مباشرة قصدية، خاصة وأن طبيعة التحليل السيميولوجي تتطلب ضرورة تحديد أطر التحليل باختيار دقيق للموضوع؛ لذا اخترنا هذين الفيلمين بأسلوب تحكمي وقصدي، نظرا للاعتبارات التالية:

1.4.فيلم الخائن :(Traitor)

-فيلم Traitor هو فيلم تم إنتاجه عام 2008 للمخرج Jeffrey Nachmanoffبطولة Don Cheadle ذلك الشاب الأسود ، فيلم يبهرك ويجذبك إليه من أول لقطة ، وعلى الرغم من طول مدة الفيلم إلا أنك لا تشعر بالملل نهائياً ؛ الفيلم يحكي قصة (سمير هورن) المسلم الأمريكي، السوداني الأصل، المتابع من طرف وحدة المباحث الفدرالية للمهمات الخاصة برئاسة (روي كلايتون)، بتهمة التعاون مع منظمة دولية خطيرة وتزويدها بمتفجرات متقدمة، والوقوف وراء مجموعة من التفجيرات بأوروبا، و أمريكا ومحاولة القيام بعملية واسعة على الأراضي الأمريكية .

- لأن الفيلم له علاقة مباشرة بموضوع الدراسة.

- كون المخرج ذو ديانة يهودية وبذلك سنحاول إبراز الصورة التي يطرحها عن الإسلام والمسلم بصفة خاصة .

- يعتبر أول فيلم من أفلام ما بعد 11 سبتمبر2001م يتناول قصة الإرهاب ومحاربة الإرهاب من منظور يختلف عن المنظور الشائع الذي يجسد ثنائية "نحن وهم" و"من ليس معنا فهو ضدنا" أو انقسام العالم إلى فسطاطين. فهو بمقاييس هوليوود من أفلام الجاسوسية والإثارة ولكن فيه دعوة مباشرة للتفكير ولا يقدم إجابة قطعية ونهائية كما أنه يعالج وجهة النظر الغربية للمسلم.

-كما أن الفيلم لقي عدة انتقادات مما أدى إلى إثارة زوبعة إعلامية حول الصور التي تناولها الفيلم عن المسلم والكيفية التي عولج بها؛ كما أثار عرضه عدة نقاشات وانتقادات حول المضمون الذي احتواه الفيلم. يصور فيلم "الخائن" الذي يستمر لمدة 114 دقيقة "دون شادل"، أو "سمير هورن" كما يسميه الفلم على أساس أنه ولد لأب سوداني وأم أمريكية ونشأ في السودان مسلما تحت رعاية والده الشيخ التقي والذي يظهر في الفلم كما لو انه شيخ أنصاري من دارفور. ودون مقدمات وفي مشهد هوليودي مثير، يقرر كاتب السيناريو أن يقتل ذلك الشيخ الورع شر قتلة حيث يلقى مصرعه في انفجار سيارة مفخخة في مكان ما في السودان. ويشاهد "سمير" ابن الثامنة، المشهد المروع لمقتل أبيه. ودونما إيراد حيثيات معروفة تقرر الأم الأمريكية أن تأخذ ابنها وتعود لأمريكا لتستقر في شيكاغو ويدخل ابنها المدرسة وينشأ نشأة أمريكية وإن ظل مسلما ملتزما قلبه مفعم بالإيمان ولفظه مزين بالاستشهاد بالقرآن.

.2.4فيلم المملكة : إخراج: بيتر بيرغPeter Berg ، تاريخ الإنتاج: أفريل 2007، المنتج: شركة.echerché picture

- لأن الفيلم له علاقة مباشرة بموضوع الدراسة،إذ يصور فيلم المملكة "The Kingdom" شخصية ذلك المسلم المتطرف

وزعيم التنظيم الإرهابي ،جسدها في الفيلم المخرج بيتر بيرغ Peter berg في شخصية أبو حمزة ،وهو اسم اقتبسه المخرج من الثقافة الإسلامية ،حيث أن أبو حمزة يقوم بعملية تفجيرية ينفذها أفراد جماعته المسلحة ،أمام أنظاره تستهدف تفجير مجمع سكني للرعايا الأمريكيين في الأراضي السعودية وبعد نجاح العملية، يصور المخرج للمشاهد مدى همجية هذه الشخصية المسلمة المتطرفة واستهدافها للأبرياء ،ومدى عدائها وكرهها للشعب الأمريكي ليتطرق بعدها إلى تنشئة الأطفال المسلمين تنشئة ملؤها التطرف،وترسيخ قيم العنف والحقد والكراهية تجاه أمريكا والأمريكيين ومن جهة أخرى يصور لنا المخرج مدى براعة الشخصية الأمريكية في مواجهة الإرهاب وحبها للأمن والسلام.

- نظراً للحملة الإعلامية الواسعة من طرف وسائل الإعلام حول الفيلم خاصة عبر شبكة الإنترنيت ولما لقيه الفيلم من رواج على المستويين الغربي و العربي .

.5نتـائج التحليـل:

بعد قيامنا بتحليل فيلمي الخائن و المملكة تحليلا تعيينيا و تضمينيا ،توصلنا في الختام إلى النتائج العامة التالية:

4- طرح فيلم الخائن صورة المسلم من وجهة النظر الغربية، كيف يكون وكيف يجب أن يكون!. فهو خائن و ماكر و يتخلى عن تعاليم دينه و مبادئه في أتفه المواقف ،في حين نجد أن فيلم المملكة تطرق إلى شخصية المسلم و قدمها على أنها شخصية همجية شريرة و عنيفة تحب سفك الدماء واستهداف أرواح الأبرياء خاصة الأمريكيين ،الذين تكن لهم عداءا وكرها شديدا.

4- تطرق فيلم الخائن إلى المسلم على اعتبار أنه بارع في استهداف الأبرياء و يفضل العنف و القتل على السلم و الأمان ،في حين تطرق فيلم المملكة بصورة جلية دعم الفكرة على المسلمين جميعا بأن أمريكا تعطي المسلمين السلام و الأمن ليقابلوها هم بالعنف و القتل واستهداف أرواح أبنائها.

4- قدم المخرج من خلال فيلم الخائن 04 نقاط أساسية جسدت النظرة الغربية للمسلم خاصة إذا علمنا من يكون المخرج (يهودي : (

أ- أن المسلم خائن ولا يمكن أن يؤتمن وهو يتصف بالغدر والخداع.

ب- أن المسلم يتصف بالكذب فهو مستعد لأن يكذب حتى في أتفه المواقف.

ت-   أن المسلم عنيف ويحب سفك الدماء ، يحرص على قتل الأبرياء خاصة إذا كانوا أمريكيين ويتجلى ذلك من خلال (أسف سمير وتظاهره بذلك متحسرا على قلة عدد القتلى في السفارة الأمريكية. (

ث-   إن شخصية المسلم يتم بناؤها منذ الصغر وهي متأصلة على قيم العنف والقتل و الانتقام.

4- يشترك الفيلمان في نقطة واحدة فهما قدما صورة الرجل الأمريكي المحب للسلام و الأمن وأنه يؤدي مهامه بإتقان و رسالته نبيلة ،كما حرص الفيلمان على تقديم فكرة أن المسلمين جميعا يكنون عداء صريحا و كرها شديدا لأمريكا و الأمريكيين وهذا ما يُرسِخُ فكرة كره المسلمين لدى شعوب العالم خاصة الأمريكيين أنفسهم.

-5كما تطرق الفيلمان إلى موضوع أطفال المسلمين و التنشئة الإسلامية للطفل حيث طرح فكرة أن الأطفال المسلمين يتعلمون الإرهاب و العنف منذ الصغر و يحبذون القتل و الاعتداءات التي يقومون بها آباؤهم وأن الآباء المسلمين يستغلون هذه الفئة الفتية و العقول النيرة ليزرعوا فيها كره الأمريكيين ليصبحوا إرهابيين في المستقبل من خلال تشبع هؤولاء الأطفال بقيم الحقـد و الكراهية.

-6لقد كان لنوعية اللقطات التي صورتها الكاميرا وحركات هاته الأخيرة دورا كبيرا وهاما في عملية تقديم شخصية المسلم من وجهة النظر الغربية ،حيث ركز المخرج (جيفري ناشمانوف) في فيلمه الخائن على اللقطات المقربة ولقطة الجزء الصغير و الاهتمام بالشريط الصوتي (الحوار) و المخرج (بيتر بيرغ) في فيلمه المملكة ركز هو الآخر على اللقطة المقربة حتى الصدر ولقطة الجزء الصغير بالتركيز على ملامح و إيماءات الوجه فالكاميرا في كلا الفيلمين كانت مقصودة و تحمل رسالة ضمنية عكست عن قصد المعاني و المقاصد الخفية لمضمون اللقطات.

-7دون أن يخلوا فيلم الخائن من عنصر نسائي فقد وظف المخرج دور خليلة الشاب المسلم جسدته في الفيلم ،الممثلة الهندية الحسناء (أرشي بنجابي) ، وهذا ما يتناقض تماما مع حقيقة الشخصية المسلمة إذ أن دين الإسلام يرفض كليا أن يقيم أي شخص مسلم علاقة مع امرأة دون أن يكون هناك عقد قران شرعي وهو مفهوم لا يستقيم مع صورة البطل الإسلامي.

4- رغم حرص المخرج على أن يكون الفيلم (الخائن) محكم من حيث البنية الفنية والتقنية للفيلم نجده تضمن خطأ تقني ساذج جدا ففي المشهد الأول من المقطع الأول في الفيلم وقع فيه المخرج وهو مشهد الصلاة عند وقوف الابن على يسار الأب في الصلاة في حين أن الأب هو الإمام ! وكلنا يعلم أن الإمام في الصلاة التي تجمع

بين اثنين فقط يكون واقف على يسار المأموم وليس على يمينه . وهو عندما فرش والد سمير المسلم التقي سجادة الصلاة " بالمقلوب " جاعلا القبة تشير إلى القدمين.

4- ما يميز فيلم المملكة عن فيلم الخائن هو أنه ذو صبغة واقعية للغاية و ما يؤكد هذا الطرح هو معالجته لحادثة مأخوذة من الواقع حدثت فعليا (تفجيرات الخبر1996م بالسعودية) واعتمد على أفلام وثائقية و رسوم توضيحية مرتبطة بعلاقة الأمة الإسلامية (السعودية) بالأمريكيين (واشنطن .(

يدخل هذا الفيلم ضمن ما يعرف بسينما الواقع لأنه أحداث وقعت بالفعل فهو يصور لنا حادثة وقعت في المملكة العربية السعودية في زمن (1996م) أي ما يجب على مخرج هذا الفيلم هو ان يحرص في إعادة هذا الحدث ليتحلى بالأمانة والصدق و بثقة في تفاصيل الواقع ؛ ونلاحظ بأن المخرج (بيتر بيرغ) تجاهل تماما الضحايا السعوديين في هذه الحادثة وركز جل اهتمامه على الضحايا الأمريكيين.

-أما فيلم الخائن فقد اعتمد على قصة لشاب مسلم هدفه الانتقام لروح والده الذي توفي أمام عينه فقد اعتمد المخرج في هذا الفيلم على خياله و إبداعه و قدراته على الابتكار دون أن يتقيد بهذه القصة وهو ما جعله يعطي تصوره (اليهودي) لهذه الشخصية المسلمة التي جعل منها طعما إعلاميا للعديد من أنظار العرب و المسلمين وحملها بكل معاني الزيف و الحقد و الكراهية و العنف .

-10يتكون السرد السينمائي بشكل أساسي محض، على عنصر الزمن فهو من العناصر المحورية له من خلال الزمن يمكن للمشاهد أن يتعرف على الفترة الزمنية لوقوع الأحداث فنجد أن فيلم المملكة في شكل فترات زمنية مترابطة بإتباع تفاصيل الأحداث الحقيقية بشكل منطقي بداية من الجنيريك الذي يعد بمثابة شريط وثائقي يطرح فكرة العلاقة الأمريكية و السعودية (الإسلامية) ،في حين نجد أن فيلم الخائن لمخرجه (جيفري ناشما نوف) لم يحدد الفترة الزمنية داخل السرد الفيلمي عدا كتابة ظهرت في بداية الفيلم على الشاشة (1978السودان) ثم المشهد الموالي (اليمن في الوقت الحاضر) لكن الصورة لا توحي بذلك ،وهذا ما يجعل المشاهد يجهل تماما في بعض اللقطات و المقاطع الفترات الزمنية للأحداث.

-11لقد تضمن فيلم الخائن من حيث العمران على تشويه صورة البلدان العربية خاصة المسلمة ويتجلى ذلك من خلال تصويره لليمن وقد عزز هذه الصورة بعبارات ظهرت على الشاشة (اليمن في الوقت الحاضر) حتى يوضح للمشاهد أن هذه هي اليمن وها هي جدرانها من التراب ومحلاتها

متعفنة ومتسخة وأناسها لا يزالون بدويون ومتخلفون ، بينما نجد أن فيلم المملكة حرص كل الحرص على الاقتراب من الشكل الخارجي للمدن السعودية، فالعديد من المشاهد تم تصويرها في أبو ظبي والإمارات العربية المتحدة ،وهذا تحريا للدقة الهوليودية وحتى يقدم نقلا واقعيا عن الأحداث ويعي المشاهد بأن هذه الصور هي في المملكة السعودية.

-12افتقر كلا الفيلمين من العنصر النسوي عدا ما تم توظيفه عن قصد ، ففيلم الخائن تعمد مخرجه على توظيف امرأة في دور خليلة وعشيقة لهذا الشاب المسلم وقد تعمدها المخرج بغرض تشويه صورة هذا الشاب المسلم التقي المفعم بالإيمان ، أما فيلم المملكة فقد وظفها المخرج (بيتر بيرغ) وأعطى لها دورا قتاليا رئيسيا، وقد حرص المخرج كثيرا هنا أن يجعل من شخصية (المحققة جنيفر غارنر) في دور جانيت تبدي حتى نظرة إعجاب برجل خلال الفيلم ، فهي ضابط محترف فحسب.

-13فيلم المملكة ركز على الضحايا الأمريكيين من التفجيرات في السعودية دون إشارة تذكر إلى الضحايا العرب والمسلمين كما قدم المخرج في هذا الفيلم رسالة الأمريكيين في الشرق الأوسط على أنها رسالة نبيلة، فنجد أن فريق التحقيق القادم من أمريكا سرعان ما غادر فور قتل الزعيم (أبو حمزة (

-14ابتدأ المخرج (اليهودي) جيفري ناشمانوف فيلمه (الخائن) بالمصحف الكريم واختتمه بمشهد صلاة الشاب المسلم (سمير) وفي ذلك دلالة على أن مضمون هذا الفيلم يحمل تعاليم وقيم إسلامية محضة ، بينما ابتدأ فيلم (المملكة) لمخرجه (بيتر بيرغ) بصورة لشيخ ذو شماغ سعودي أحمر وانتهى بمشهد يبدأ بوجه طفل صغير وينتهي بعينيه الحادتين المليئتين بالغضب دلالة الشيخ الذي يمثل صورة للحكمة والولاء ويحظى باحترام وتقدير ، ورمزا للثقة والتقدير ، والطفل الصغير هذا العقل النير حيث استطاع المخرج أن يرسم ملامح الانتقام على طفل وهو في سن البراءة ، حيث مرر الفيلم رسالة من العيار الثقيل على أن الأعمال الدامية التي تستهدف أرواح الأبرياء ويقوم بها المسلمين في أرجاء العالم يورثها الآباء و الأجداد للأحفاد والأبناء ويزرعون فيهم قيم الحقد والكره والعداء الأمريكي.

-15صُوِّر المسلم في فيلم المملكة على أنه شرس وهمجي يمجد سفك الدماء كما يفضل القتل وجل أعمال العنف على السلام، لينقل بذلك الفيلم رسالة إلى المشاهد الغربي والعربي مفادها أن أمريكا تعطي الشعوب (المسلمة) السلام والأمن في حين يقابلونها بالعنف واستهداف أرواح أبنائها الأبرياء وتجسد ذلك من خلال المشهد الذي وظفه المخرج عندما قدمت المحققة جانيت حبة الحلوى للطفلة الصغيرة في حين قابلتها بكُرَيَّة رخامية تستخدم لصنع المتفجرات.

-16فعلى صعيد الحبكة يحاول كلا الفيلمين على طريقة أفلام هوليود ، أن يكونا فلمي إثارة لمن لا يدرك الرسائل السياسية وفي نفس الوقت الذي يمرران فيه رسائل إيديولوجية من العيار الثقيل التي ملؤها التشويه والتزييف لشخصية المسلم وإلصاق تهم مبالغ فيها وافتراءات كاذبة وظفها كلا المخرجين على أنها مترسخة في أذهان هؤولاء المسلمين منذ الصغر.

-17تضمن كلا الفيلمين أخطاء كثيرة فكرية وشكلية ففيلم الخائن احتوى على خطأ تقني ساذج تمثل في مشهد صلاة الوالد إلى جانب ابنه الذي من المفروض أن يكون على يسار ابنه لكنه جاء في اليمين. ومشهد آخر يجعل قبة المسجد في السجادة أسفل قدم الشيخ وهذه الصورة تم توظيفها عن قصد خاصة إذا علمنا أن المخرج هو (يهودي) فهو حتما يكن عداء للفلسطينيين بينما نجد فيلم المملكة لا يحسسك بأنه مصور في السعودية رغم حرص المخرج على التجسيد الواقعي للحدث ومشهد صلاة الجنود العسكريين التي لم تكن متقنة بالشكل اللازم، ومن جهة أخرى اشترك الفيلمين في سوء استعمال وتوظيف اللغة العربية حيث نجدها تميل كل الميل في الفيلمين إلى اللهجة المغربية رغم حرص الممثلين على أن تكون مخارج الحروف بشكل صحيح إلا أن الخلل واضح . فالعربية التي يتكلمونها بلغة ركيكة مصطنعة إلى أبعد الحدود.

-18بغض النظر على أن الفيلمين تعمدا تشويه صورة المسلم في العديد من المشاهد وسرد حقائق مزيفة عن الدين الإسلامي و البيئة الإسلامية ، إلا أن النظر إليهما كمنتوج سينمائي ففيلم الخائن يعد في مجمله فيلم جيد، و أداء الممثلين كان ممتازا ووظف المخرج ديكورا يتناسب مع دور شخصية الممثل الرئيسي في الفيلم، كما أن التنقل بين عواصم العالم المختلفة أضفى تشويقا وغموضا رائعين للفيلم كما وظف موسيقى تصويرية جيدة جدا أما فيلم المملكة فهو فيلم مثير ذو إيقاع مشدود، إضافة إلى حضور العناصر الفنية المكونة للفيلم (من تمثيل ، مونتاج ، إخراج ، ديكور) والتصوير الذي كان في أبو ظبي والإمارات العربية من أجل إعطاء واقعية على الفيلم.

-19يهدف كلا الفيلمين إلى ترسيخ قيم الكره والعداء تجاه المسلمين والعرب من قبل الشعوب الغربية والأمريكية خاصة ،وذلك من خلال الصور التي يمررها الفيلمين والتي تحمل رسائل إيديولوجية من الوزن الثقيل ،خاصة تلك التي تتعلق بتنشئة الأطفال المسلمين على كره ومعادة أمريكا والأمريكيين، وأن المسلمين جميعهم يُكِّنُونَ عداءا وكرها شديدا لكل من يساند إسرائيل وخاصة الأمريكيين، وهذا معناه أن المواطن الأمريكي العادي ليس أمامه إلا أن يكرهنا ويعادينا.

-20فيلمي الخائن والمملكة مثال حي لحقيقة السينما الأمريكية وتعبير عن رؤيتها ،الحاقدة والتضليلية لحقيقة المسلم.
-21تطرق المخرج في فيلم المملكة إلى التنشئة الإسلامية للأطفال حين ركز على أن الأطفال المسلمين ينشئون على العنف والحقد وكراهية أمريكا والشعب الأمريكي وأنهم ينقلون هذا الإرث إلى أبنائهم ؛ فكون أن المسلمين متوحشون وإرهابيون وأن العنف جزء من تكوينهم النفسي و الفكري والعقائدي يدخل كل ذلك في سياق نقل جل هذه القيم وترسيخها في نفوس أبنائهم الذين هم إرهابيون في المستقبل و يستهدفون مشاريع و شعب أمريكا.
-22الفيلم من أجهل ما يكون بالدين الإسلامي و تعاليمه والثقافة الإسلامية، وندرك ذلك من خلال عدة مشاهد...فمثلا تصوير صلاة المسلمين (الحرس) لم تكن متقنة و كذلك الإدعاء في هذا الفيلم بأنه يحرم تماما لمس جثة المسلم من غير المسلم حتى لأغراض الطب الشرعي ! وهي رسالة عن مدى تخلف وبدائية المسلمين.
-23هناك تطاول على المصطفى محمد (صلى الله عليه وسلم) وإن كان قد أتى في سياق التساؤل (في تساؤل والد الضحية (جاكسون) في هل هذا هو ما أراد النبي محمد ؟) فلا يمكن أن نجزم بأنه تطاول لو كان الفيلم منصفا و أتى بما ينفي هذا عن النبي (محمد. (
-24تطرق المخرج في هذا الفيلم إلى طرح صورة عن المسلمين لم يسبق أن تناولتها الأفلام الأمريكية والتي عممها على الفيلم وهي أن العرب المسلمين غير قادرين على حل قضاياهم وهم بحاجة إلى الرجل الأمريكي صاحب المهام الصعبة و الصفات النبيلة.
-25من خلال تحليلنا لفيلمي الخائن والمملكة تبين لنا أن أمريكا لا تحترم الآخر، خاصة المسلم حيث تريد غرس قيم ملؤها التشويه لصورة المسلم باعتباره دموي، حقود، إرهابي يستهدف أرواح الأبرياء، يحبذ العنف على السلام.
-26إن الإساءة للإسلام والمسلمين والعرب ليست وليدة هذا العصر، ولا تعود للرسوم الكاريكاتورية، ولا للكتابات وتحاليل الكتاب والمثقفين، والصحافيين الغربيين أو أفلام هوليوود ومختلف الصناعات الثقافية الإعلامية الغربية، بل المشكلة لها جذور في التاريخ فهوليوود لها "مسلسل " وتاريخ طويل مع تشويه صورة الإسلام والمسلم ،فغالبا ما تقدم هذه الصورة في شخص الماكر والمجرم وزير النساء.
-27كلا الفيلمين يعدان وثيقة مفتوحة على عدة تأويلات وقراءات ممكنة، كل حسب مستوى معارفه.. وإن كانت المعرفة التقنية أساسية.. لأن الصورة يتداخل في تشكيلها: الأدبي (القصة، الحوار...)، المرئي (الضوء، اللون..)،

الفيلمي (المونتاج، المؤثرات البصرية)، المسموع (ضجيج، موسيقى..)، السمعي/ البصري (المزاوجة المنطقية بين الصور والأصوات.(

-28من خلال هذا التحليل نخلص إلى القول أن السينما الأمريكية تفوقت بفضل تكنولوجياتها وإبداعاتها في إنتاجاتها الفيلمية ،من خلال صنع مجدها على حساب الآخرين بالطريقة التي تريد وحينما تريد ،لكن بأية طريقة ؟ خاصة في عصر يؤمن بأن الفائز في هذا القرن هو من يمتلك مفاتيح القوة التكنولوجية والمعلوماتية.

خاتمة الدراسة:

إن ما تقدمه هوليوود من صور متتالية ومستمرة للمسلمين في أفلامها منذ فترة طويلة إلى الآن معناه أن المواطن الغربي وخاصة الأمريكي العادي ليس أمامه إلا أن يكرهنا ويعادينا، وما تفعله هوليوود ضدنا لا يمكن وصفه إلا بأنه فضائح سينمائية، كما أنه تحريف وتشويه للحقائق وافتراءات كاذبة. فقد لعبت الأفلام الأمريكية -خاصة إذا علمنا أن معظم شركات الإنتاج تخضع لسيطرة اللوبي الصهيوني المعادي للإسلام والمسلمين ولما تمتاز به الأفلام الهوليودية من دقة وقدرة فائقة من الناحية الفنية من إخراج وتصوير ....- لعبت دوراً كبيراً في تقديم صورة سلبية عن المسلمين عندما لم يكن هناك مصدر آخر للمعلومات حولهم وحول ثقافتهم، وحيث أنها تشاهد من قبل شريحة عريضة ومتنوعة من الناس في أنحاء العالم؛ فقد ساعدت الأفلام الأمريكية في انتشار هذه الصور النمطية السلبية للمسلمين؛ فصورة العربي المسلم على الشاشة الفضية الهوليودية لن تخرج عن واحدة من هذه الصور النمطية صورة أعرابي من البدو الرحل وبجواره ناقة وخيمة و مُنِحَ له الصحراء الجرداء،أو صورة العربي المنغمس في اللهو والملذات والمجون وتعاطي الخمر، أو صورة العربي المتجرد من الحضارة وآداب السلوك في الطريق العام وفي معاملة الآخرين وفي إتباع آداب الطعام والنظافة، أو صورة المسلم المتطرف المتشدد الذي يسوق خلفه زمرة من الحريم المتشحات بالسواد، أو صورة العربي الأبله المندهش أو المنبهر دائماً بالحضارة الغربية، أما أكثر الصور شيوعاً فهي صورة المسلم الإرهابي المجرم مختطفا لطائرات و الحافلات ومفجر المباني وقاتل الأبرياء، فقد حرصت هوليوود دائماً على أن تضع العربي وخاصة المسلم في قالب ثابت للشر والعنف والتخلف والخيانة والجهل والتطرف و التزمت، وهذا ما لمسناه من خلال تحليلنا لفيلم الخائن والمملكة.

إن المواقف السلبية ضد الإسلام والمسلمين لا يجب أن تواجه بالصمت ولا بالحرق والقتل والتخريب وبغيرها من السبل والطرق التي تخالف الشريعة والمنطق والعقل والقيم والمبادئ الإنسانية وهذا ما يبحث عنه أعداء

الإسلام والمسيئون إليه ؛الإساءة للإسلام وتقديمه للعالم على أساس أنه خطر ودين التخلف والعنف والقتل واستئصال الآخر، يجب أن تواجه بالحوار والنقاش والشرح والتفسير والإيضاح و بإيصال رسالة الإسلام الحقيقية إلى الذين يجهلون الكثير عن هذا الدين العظيم وعن المصطفى خاتم الأنبياء والواقع أن المسؤول عن هذا الجهل بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم هم المسلمون الذين أخفقوا بمحاربة الآخر وإبصاره بحقيقة الإسلام وبعبقرية محمد. هل يعي المسلمون أن الرأي العام الغربي ليس كله معاديا للإسلام ؟ وإنما هناك من يرفضون الإساءة للإسلام والتطاول على الرسول محمد خاتم الأنبياء وهؤلاء هم العقلاء الذين يجب التحاور معهم والعمل معهم من أجل تطهير عقول الشعوب المغلوب على أمرها في الدول الغربية وتخليصها من التلوث الإعلامي والثقافي والفكري وسموم الدعاية والحرب النفسية . فإننا مطالبون أن تكون لنا مواقع في السينما، وفي علم الاجتماع، وفي كل جوانب الحياة فأين السينما العربية الإسلامية؟ وأين مواقعنا على الإنترنت؟.

هوامــش البحث:

01. أحمد بن راشد بن سعيّد، قولبة الآخر(قصة التشويه الحضاري والاغتيال الإعلامي للمسلم والعربي)، المكتبة الوطنية ،عمان ،2000، ص ، 47.
02. سعيد بومعيزة ، " الرسائل و المعاني"، المجلة الجزائرية للاتصال، (صادرة عن معهد علوم الإعلام والاتصال عن جامعة الجزائر)، العدد 13 جانفي - جوان – الجزائر، 1996 ، ص، 198.
03. Jaques Aumont، Michel Marie، l’analyse des films، Nathan université، paris 1989، p07.
04. Ibid، p 66.
05. محمود إبراقن، المدخل إلى سيميولوجيا الاتصال، بنغازي، ليبيا، ماي 1995 ص12.
06. فايزة يخلف ، خصوصية الإشهار التلفزيوني الجزائري في ظل الانفتاح الاقتصادي، دراسة تحليلية سيميولوجية، أطروحة دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال ، الجزائر، 2006، ص 8.
07. Michel Marie ,Lecture du film, Paris, Albatros ,1976, p 54.
08. Claude Levi- Strausse, la pensée sauvage , paris ,plon,1962,p 25.
09. J. AUMONT-M.MARIE .OPCIT , p 70.
10. ibid.
11. ibid.
12. محمود ابراقن، مرجع سبق ذكره، ص 18.
13. ج. كولكر ، الفيلم الشكل والثقافة ، دار الفرات، دمشق 2002 ، ص 123.
14. Joly Martine، Introduction à l’analyse de l’image، Nathan université، France، 1994، pp71- 72.
15. محمد أبو نصار وآخرون ، منهجية البحث العلمي ،القواعد والتطبيقات ، دار وائل للطباعة والنشر، عمان ، 1999، الطبعة الثانية، ص، 84.

16. المرجع السابق نفسه، نفس الصفحة.

العلوم النفسية والتربوية

دور السيناريوهات البيداغوجية في فعالية إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال.

تأثير إدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية على كفايات الإدراك السمعي لدى تلامذة السنة الأولى ثانوي إعدادي.

واقع مرشدي التعليم الجامع والتربية الخاصة في مديريات التربية والتعليم الفلسطينية

سلوكيات................ وممارسات

دور السيناريوهات البيداغوجية في فعالية إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال.

تأثير إدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية على كفايات الإدراك السمعي لدى تلامذة السنة الأولى ثانوي إعدادي.

إعداد: خنوس محسن أستاذ الديداكتيك الموسيقية بمركز مهن التربية والتكوين مرشح دكتوراه بكلية علوم التربية الوطنية الرباط

ملخص البحث

يدرس هذا البحث التجريبي الكمي العلاقة بين إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال (ت.إ.إ) انطلاقا من سيناريوهات بيداغوجية في التربية الموسيقية و بين تنمية المعارف الموسيقية وتطوير قدرات الإدراك السمعي الموسيقي عند التلاميذ. وقد اعتمد هذا البحث المنهج التجريبي لقياس تأثير إدماج موارد رقمية في تدريس مجزوءة تعليمية للتربية الموسيقية انطلاقا من سيناريوهات بيداغوجية محددة، حيث أخضعت عينة الدراسة التي تكونت من 829 تلميذة وتلميذا، لاختبار قبلي تضمن في جزءه الأول مجموعة من البنود التي استهدف اختبار مهارات وقدرات الإدراك السمعي الموسيقي المرتبطة بالوحدة التعليمية المقررة بينما استهدف جزءه الثاني تقويم المعارف المرتبطة بنفس المجزوءة لدى تلاميذ العينة. وبعد الانتهاء من الاختبار القبلي قمنا بتوزيع تلاميذ عينة الدراسة بشكل عشوائي على مجموعتين شبه متساويتين: مجموعة ضابطة ضمت 420 تلميذة وتلميذا مجموعة تجريبية

409 ضمت تلميذة وتلميذا. حيث تلق تلاميذ المجموعة التجريبية الوحدة التعليمية بإدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية فمحددة، في حين تلق تلاميذ المجموعة الضابطة نفس الوحدة التعليمية باستعمال نفس الموارد الرقمية بالطريقة المعتادة التي يوظف فيها الأستاذ بعض الموارد وبدون الاعتماد أي سيناريو بيداغوجي. وقد كشفت الدراسة عن عدم وجود فروق ذات دلالات إحصائية سواء فيما يتعلق بنتائج اختبار المعارف أو نتائج اختبار قدرات الإدراك السمعي الموسيقي لتلامذة المجموعتين التجريبية والضابطة قبل البدء في تطبيق تلقين المجزوءة، وهو ما يؤكد أن المجموعتين كانتا متجانستين ومتكافئتين سواء فيما يتعلق بالجانب المعرفي أو فيما يتعلق بقدرات الإدراك السمعي الموسيقي. كما كشفت الدراسة عن وجود فروق ذات دلالة إحصائيَّة بين متوسطي درجات المجموعتين التجريبية والضابطة لصالح المجموعة التجريبية التي تلقت المجزوءة التعليمية بإدماج موارد رقمية باعتماد سيناريوهات بيداغوجية محددة. وقد اختتمت الدراسة بإبراز أهم التوصيات والمقترحات التي يمكن من خلالها تحقيق الفائدة المرجوة.

الكلمات المفتاح

التربية الموسيقية، الموارد الرقمية، السيناريو البيداغوجي،المعارف الموسيقية، قدرات الإدراك السمعي الموسيقي.

Résumé de recherche

Cet article rend compte d'une étude expérimentale entreprise avec 829 élèves issus de trois collèges à trois régions du Maroc, elle avait pour objectif de déterminer si l'efficacité de l'intégration de la technologie de l'information et de la communication (TIC) est influencée par l'utilisation des scénarios pédagogiques (ce que nous pouvons appelée l'intégration réfléchie des tic). Il semble bien qu'elle soit la première (et la seule) recherche au Maroc et au monde arabe concernant l'éducation musicale.
Les élèves ont étaient répartis en deux groupes :
- groupe expérimental constitué de 409 élèves, ayant suivis des cours d'éducation musicale avec leurs professeurs qui ont utilisés des ressources numériques en s'appuyant sur des scénarios pédagogiques,
- groupe témoin constitué de 420 élèves, ayant suivis les mêmes cours d'éducation musicale avec les mêmes professeurs mais en utilisant des ressources numériques (d'une manière non réfléchie) sans s'appuyé sur des scénarios pédagogiques.
Au début de l'expérimentation les élèves des deux groupes ont subis un pre-test dont les résultats n'ont révélés aucune différence dans les performances musicales entre les élèves du groupe témoin et celles des élèves du groupe expérimental.
Tandis que, les résultats du post test ont montré que les écarts observés dans les performances entre les élèves des deux groupes sont significatifs sur le plan de l'acquisition des connaissances musicale et les capacités de perception auditive musicale en faveur des élèves du groupe expérimental.
Mots clés : Education musicale, ressources numériques, scénarios pédagogiques, connaissances musicales, capacités de perception auditive musicales.

1- مبررات اختيار البحث وتحديد مجال دراسته.

لقد شكل البحث الذي أنجزته بكلية علم النفس وعلوم التربية بجامعة بروكسيل سنة 2001 للحصول على دبلوم الدراسات العليا المتخصصة في الإعلاميات المطبقة في التربية الموسيقية فرصة للتعرف على علم النفس المعرفي الموسيقي La psychologie cognitive de la musique باعتباره حقل معرفي جديد وعلى بعض النماذج لتطبيق الإعلاميات في تدريسية التربية الموسيقية، ليتزايد بعد ذلك اهتمامنا بالإشكاليات التي تهتم من جهة بميكانيزمات الإدراك السمعي التي تفسر كيفية تمكن الدماغ من تخزين ومعالجة الظواهر الصوتية، ومن جهة أخرى بمدى تأثير تكنولوجيا الإعلام والاتصال على التعلمات وعلى المواقف في حصص التربية الموسيقية. وقد خلق لدي هذا الاهتمام نوع من الفضول والرغبة في استكشاف ورصد الصعوبات والإكراهات التي تعترض تدريسية التربية الموسيقية والبحث عن حلول لها. وهكذا وانطلاقا من مهامنا المرتبطة بتكوين و تأطير طلبة وأساتذة التربية الموسيقية وبمصاحبتهم في الوضعيات المهنية لتحليل ممارساتهم التعليمية ورصد واقع التعلمات داخل الفصول الدراسية، قمنا ببلورة إشكالية لهذا البحث تتميز بالمزاوجة بين إشكالات الإدراك السمعي لدى المتعلم وإشكالات إدماج (ت.إ.إ) في تدريسية التربية الموسيقية، علما أن هناك العديد من البحوث والدراسات التي سلطت الضوء على هذه الإشكالات بشكل منفصل، لكن وفي حدود علمنا، يعتبر هذا البحث الأول من نوعه على الصعيد العربي الذي يتميز بتركيزه المزدوج على بعدين في آن واحد:

- البعد الديداكتيكي والمنهجي للاستماع والإدراك الموسيقي؛
- البعد البيداغوجي التجديدي الداعي إلى إدماج (ت.إ.إ) في تدريسية التربية الموسيقية.

2- أهداف البحث وأهميته

يستمد هذا البحث أهميته من فكرة أساسية مفادها أن: تكنولوجيا الإعلام والاتصال لا يمكن أن تجلب قيمة مضافة وتؤدي إلى الرفع من التعلمات إلا إذا تم إدماجها وفق سيناريوهات بيداغوجية فعالة تستمد مرجعيتها من الأسس

البيداغوجية النشيطة التي تتمركز حول المتعلم ومن المرتكزات الديداكتيكية الخاصة بتدريس مادة معينة. وتتحدد أهداف هذا البحث في:

- الدفع بالممارسة التعليمية في مجال التربية الموسيقية لتكون أكثر تطابقا وتناغما مع التوجيهات التربوية للمادة؛
- تقديم نموذج لمرجعية منهجية في الاستماع والتذوق الموسيقي للمساهمة في سد الخصاص في هذا المجال؛
- يساهم في تغيير تمثلات ومواقف المدرسين وينمي الاتجاهات الإيجابية نحو إدماج (ت.إ.إ) في الممارسات التعليمية ويحفزهم على التجديد ؛
- قياس مدى تأثير السيناريوهات البيداغوجية على فعالية إدماج الموارد الرقمية في التحصيل الدراسي والمهارات المتعلقة بالإدراك السمعي الموسيقي؛
- الإسهام في تغطية النقص الناتج عن ندرة الأبحاث العربية التي تناولت مادة التربية الموسيقية عموما (ت.إ.إ) في التربية الموسيقية على وجه الخصوص.

3- الإطار النظري

تعتبر الموسيقى أداة للتعبير عن الأحاسيس والمشاعر التي تجوب خوالج المبدع، فهي ليست مجرد أصوات تعزف أو تغنى أو تُسمع، وإنما هي شكل من أشكال التعبير الذي يجمع بين العلم والفن، ويعكس تاريخ وفكر الأمم وثقافاتها وحضاراتها، وهي أيضا لغة كونية تغذي الروح بواسطة قدرتها السحرية التي تمكنها من التأثير على أحاسيس ووجدان الإنسان والحيوان وحتى النبات. وهذا ما جعلها تتبوأ مكانة خاصة في تربية النشء على مدى العصور، فقد اهتمت الحضارة اليونانية القديمة بالموسيقى وجعلتها أداة من أدوات التربية، فالحكمة اليونانية تقول **"التربية البدنية لتربية الجسم والموسيقى لتربية الروح"**. وفي السنوات الأخيرة توصلت مجموعة من الدراسات إلى كون التربية الموسيقية تأثر إيجابيا وتنمي مهارات متعددة لدى الأطفال (باتيان Batian, H.G. 1998) و (ماك كيري Mc Curry, 2003) و (أديرلي و كنيدي و بيرز Adderley, C., Kennedy, M. et Berz, W. 2003) و (أولسون Olson, 2009.).

فما هي فوائد التربية الموسيقية على الأطفال ؟ وما هي المهارات التي تنميها لديهم؟

أظهرت مجموعة من الدراسات الحديثة التي اهتمت بدراسة تأثيرات الممارسة الموسيقية في المدارس أن التربية الموسيقية تساهم في تنمية العديد من المهارات لدى المتعلمين من بينها:

- المهارات المنهجية: حيث بينت نتائج الدراسات التي قام بها كل من (هيكاي و ويبستر Hickey et Webster 2001) و (أولسون Olson, C.A. 2009) أن الاستماع والتذوق الموسيقي ينمي لدى المتعلمين مجموعة من المهارات المنهجية كالحس النقدي والقدرة على التحليل واستخراج العناصر المكونة للعمل، وتنمية ملكة التفكير الإبداعي والخيال والتركيز والقدرة على توجيه الاستماع إلى عنصر معين وتمييزه من باقي العناصر الموسيقية الأخرى المكونة للعمل الموسيقي (البوليفونية).

- المهارات الاجتماعية: توصل كل من (يوون Yoon 2000) و (باتيان 1998 Batian) و (كوكوتساكي و هالام Kokotsaki, D. et Hallam, S. 2007)، من خلال الدراسات التي قاموا بها، أن الأنشطة الجماعية التي يقوم بها المتعلم(ة) في إطار التربية الموسيقية تنمي مجموعة من المواقف الاجتماعية كالتحلي بروح الفريق والإحساس بالانتماء إلى الجماعة والثقة في النفس وتحد من ظواهر العنف والسلوك العدواني، لأنها تتطلب التعاون والتنسيق وتوزيع الأدوار واحترام الضوابط والتعليمات المكتوبة بالمدونة الموسيقية.

- المهارات الرياضية: أظهرت نتائج مجموعة من الدراسات إلى أنا الاستماع إلى الموسيقى يؤدي إلى تنمية الذكاء الفضائي والمكاني، ففيى الدراسة التي اشتهرت ب "تأثير موزارت **Effet Mozart**" والتي أجرتها الدكتورة (فرانسيس روشي 1993 **Frances H. Rauscher**) من جامعة كاليفورنيا في ارفين .مع فريقها، لاحظت أن 36 طالبا جامعيا يدرسون علم النفس تمكنوا من الحصول على **8** أو **9** نقط أعلى عند اجتيازهم اختبار حاصل الذكاء المكاني أو الفضائي **(Q.I Spatial)** بعد الاستماع لمدة 10 دقائق، لسوناتة للبيانو في مقام الري الكبير، **K.448**، لموزارت. ليتوصل فريق الدكتورة روشي إلى وجود علاقة بين الاستماع للموسيقى وتذوقها ومهارات التفكير المنطقي المكاني **.** وفي نفس السياق توصل هاتلاند Hetland, L. 2000 من خلال تجربة أجراها مع 701 طفلا تتراوح أعمارهم بين 3 و12 سنة إلى وجود علاقة دائمة بين تعلم الموسيقى والمهارات المرتبطة بإنجاز عمليات ذهنية معقدة كإعادة بناء هياكل ثنائية وثلاثية الأبعاد.

- المهارات اللغوية: من أهم البحوث التي اهتمت بدراسة العلاقة بين ممارسة الموسيقى وتنمية القدرات اللغوية، نشير إلى البحث التجريبي الذي أنجزه كل من (ستاندلي و هوغس Standly et Hugges 1997) حيث قاما باختبار تأثير برنامج للتداريب الموسيقية على

تطوير قدرات التعبير الكتابي لدى عينة من 24 تلميذا، فبينت النتائج أن تلاميذ المجموعة التجريبية حصلوا على متوسطات أعلى من تلاميذ المجموعة الضابطة الشيء الذي يثبت وجود تأثير للبرنامج الموسيقي التجريبي الذي تلقوه على تحصيلهم الدراسي في اللغات.
وفي سنة 2007 وباستلهام من الدراسة السابقة قام مجموعة من الباحثين (روجيستر، دارو، ستاندليو سويدبرغ 2007 Register, Darrow, Standley et Swedberg) بدراسة أثر برنامج موسيقي مكثف على قدرات القراءة لدى تلامذة فصل دراسي من مستوى السنة الثانية إعدادي، حيث تلق هؤلاء التلاميذ نفس البرنامج الدراسي في القراءة مع تلامذة مجموعة ضابطة، بالإضافة إلى برنامج موسيقي مكثف ، تنوعت أنشطته بين الاستماع إلى مقاطع موسيقية والغناء وبعض التمارين الإيقاعية، حيث خلصت نتائج الاختبارات القبلية والبعدية أن معدلات تلامذة المجموعة التجريبية عرفت تحسنا ملحوظا مقارنة بمعدلات تلامذة المجموعة الضابطة.
من المؤكد أن نتائج هذه الدراسات تدعم مكانة التربية الموسيقية في المنظومات التربوية كمادة أساسية تلعب دورا هاما في بناء شخصية الطفل وإيقاظ حواسه وتنمية حسه الجمالي وملكاته الإبداعية، لكن تحقيق هذه الأهداف يبقى رهينا، كما في باقي المواد الأخرى، بطبيعة البرامج المقررة وبالمنهجيات المعتمدة في تدريسها. لذا كان من الطبيعي أن نتساءل عن طبيعة البرامج التي يستفيد منها التلميذ المغربي، وعن المنهجية أو المنهجيات التي تؤطر حصص للتربية الموسيقية في المدرسة المغربية.ومن المعلوم أن الحديث عن برامج وطرائق التدريس يتطلب ربطا بالسياق الذي تم فيه إعداد هذه البرامج.
فما هو المسار الذي مرت منه مادة التربية الموسيقية بالمغرب ؟ وما هي الخلفيات التي أطرت لإعداد مختلف برامجها ؟
أدمجت مادة التربية الموسيقية في المقررات الدراسية بالدول الغربية (فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، ...) منذ قرون، في حين تم إدماجها بالدول العربية (مصر، العراق، سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، تونس، الجزائر،...) منذ منتصف القرن الماضي، بينما بقيت التربية الموسيقية بعيدة عن المقررات الدراسية بالمغرب إلى حدود سنة 1995.وقد مر مسار التربية الموسيقية بالمغرب من مرحلتين.

4- مرحلة (1993 – 2009): تميزت بالخلط بين مفهوم التربية الموسيقية و مفهوم التعليم الموسيقي.

عرفت سنة 1993 انطلاق تكوين أول فوج لأساتذة التربية الموسيقية بالمركز التربوي الجهوي بالرباط لتتبعها عملية إرساء مادة التربية الموسيقية في سنة 1995 بعشرين إعدادية موزعة على مختلف النيابات، وهكذا توالت عملية تكوين الطلبة الأساتذة في أفواج تراوحت أعدادها ما بين 15 و 106 طالبا وطالبة حسب المناصب المالية التي كان تخصصها الوزارة بناء على قناعة مسؤوليها بأهمية المادة. وللأسف أخطأت الانطلاقة مسارها الصحيح بسبب الخلط بين التربية الموسيقية وبين التعليم الموسيقي، وهو ما كانت له تداعيات على أهداف المادة وبرامجها بشكل عام. فالتصور العام الذي كان سائدا، مع

بداية انطلاق تدريس التربية الموسيقية، كان يركز على تمكين التلاميذ من قراءة الموسيقى وتدوينها عبر التعرف على أدوات الكتابة الموسيقية. وقد وقع هذا الخلط بين المفاهيم كنتيجة طبيعية لكون الأطر التي أشرفت على إرساء المادة بمنظومتنا التربوية كانوا أطرا بوزارة الثقافة ومارسوا التدريس بالمعاهد الموسيقية ولم تكن لهم خبرة بالتربية الموسيقية. ووفق هذا السياق، تم بناء برنامج للمادة أصدرته وزارة التربية الوطنية في 1995 انطلاقا من هذا التصور النظري وتم تصميمه وفق برنامج مادة الصولفيج الذي يدرس بالمعاهد الموسيقية، حيث تمت مفصلته إلى ثلاث وحدات وهي:

- وحدة النظريات الموسيقية (اللغة الموسيقية).
- وحدة القراءة الصولفائية الفورية و الغناء (تربية الصوت).
- وحدة التحليل وتاريخ الموسيقى (الثقافة الموسيقية).

أما نموذج التدريس الذي كان سائدا في معظم المؤسسات فهو النموذج الإلقائي، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى (طبيعة البرنامج و طبيعة التكوين الأساس وإلى انعدام التكوين المستمر وأيضا ظروف العمل وانعدام الوسائل التعليمية إضافة إلى انعدام ممارسات جيدة **les bonnes pratiques** في تدريس التربية الموسيقية ببلادنا يمكن الاستلهام والاقتباس منها،...).

وعلى العموم يمكن القول بأن برنامج التربية الموسيقية (1995) كان يرمي إلى تكوين تلاميذ ملمين بالقواعد والنظريات الموسيقية وقادرين على قراءة وكتابة المدونات، وهذا ما جعله أكثر ملائمة لبرامج المعاهد الموسيقية وبعيدا كل البعد عن أهداف ورهاناته التربية الموسيقية بمفهومها الحديث.

ب. مرحلة (2009 إلى اليوم): التي عرفت تجديدا للمنهاج دون أن يوازيه تغيير في الممارسات التعليمية.

بعد توالي الدعوات، من طرف زمرة من المهتمين بالمادة الذين انتبهوا إلى ضرورة إصلاح منهاج وبرنامج المادة وفق تصور جديد، تم إصدار توجيهات تربوية جديدة للمادة في غشت 2009 تحث على :

- اعتماد مدخل الكفايات في تدريس المادة؛
- الاشتغال على المكونات الأربع للتربية الموسيقية وهي: الغناء والإنشاد التربوي، الاستماع والتذوق الموسيقي، الممارسة الإيقاعية والآلية، الإبداع والابتكار الموسيقي؛
- جعل المكونات والأنشطة التعليمية التي تبرمج على امتداد مجموعة من الحصص تتمحور حول "موضوع رئيسي **Thème** "؛
- الانطلاق من مكوني الغناء أو الاستماع والتذوق الموسيقي باعتبارهما مدخلين أساسين لبناء التعلمات والمفاهيم الموسيقية؛
- إدماج الوسائل التكنولوجيا الحديثة في إعداد الوسائط الديداكتيكية وفي تدريس المادة؛

لكن وفي المقابل، ، وبسبب غياب دورات ولقاءات تكوينية حول تفعيل المنهاج الجديد، حافظت الممارسات التعليمية في حصص التربية الموسيقية على معالمها و استمرت في تكريس نفس المقاربات واجترار نفس السيناريوهات وضل الدرس النظري هو النموذج الطاغي على أغلبية الحصص لتستمر معه الاختبارات الكتابية الاستظهارية كوسيلة وحيدة لتقويم تحقق أهداف التربية الموسيقية.

1-3 مشكلة البحث وأسئلته

تبلورت إشكالية هذا البحث انطلاقا من الملاحظات التي استقيناها من:

- نتائج البروتوكول الاستكشافي الذي أنجزناه في بداية 2012 تمهيدا للتجريب الميداني، والذي شمل 87 أستاذة وأستاذة وهو ما يعادل حوالي **%** 13 من مجموع أساتذة التربية الموسيقية ببلادنا، حيث أبانت أداة الاستبيان المستعملة أن حوالي 87**%** من المدرسين يعتمدون على الدرس النظري في حصصهم وإن كانت تمثلات معظمهم إزاء مفهوم التربية الموسيقية قد تغيرت.
- رصد الممارسات التعليمية، من خلال النزول إلى الميدان، والذي أبان لنا عن غياب منهجية واضحة لتدريس مكونات التربية الموسيقية، وأن معظم الحصص تقتصر على تلقين أغنية والتطرق إلى المعارف النظرية في غياب شبه تام لمكون الاستماع والتذوق الموسيقي، وهو ما أكدته نتائج الدراسة التي قام بها الأستاذ محمد أمين عمري في إطار بحثه لنيل دبلوم مفتش سنة 2010 .
- تحليل محتوى الكتب المدرسية المقررة والذي كشف عن غياب منهجية ورؤية ديداكتيكية واضحة لتدريس مكونات التربية الموسيقية، وعن خلط في المفاهيم بين الكفايات والأهداف، وعن غياب إرفاق هذه الكتب بأقراص صوتية تحتوي على النماذج المقترحة فيها سواء للاستماع أو الغناء. كما كشف التحليل عن استمرار هيمنة المحتويات على الأنشطة التعلمية، وتتقاطع هذه الملاحظات مع ما توصلت إليه الدراسة التقويمية للكتب المدرسية التي قام بها الطالب الباحث عبد القهار الحجاري، سنة 2012.
- واقع إدماج(ت.إ.إ) في تدريس التربية الموسيقية، حيث كشفت نتائج البروتوكول الاستكشافي السابق أن حوالي % 80 من الأساتذة الذين شملتهم الدراسة لا يستعملون (ت.إ.إ) في ممارستهم التعليمية، علما أن حوالي % 45 من مجموع أساتذة العينة يستعملونها في حياتهم الموسيقية الشخصية سواء في كتابة المدونات الموسيقية أو تسجيل الأغاني والألحان أو في التوزيع الموسيقي ومعالجة الأصوات. وقد لاحظنا من خلال رصد الممارسات التعليمية أن الحالات القليلة التي استعملت فيها (ت.إ.إ) في تدريس التربية الموسيقية تمت بدون

الاستناد إلى تصور ديداكتيكي واضح يؤطر أهداف التعلم ويحدد كيفية هذا الاستعمال وأزمنته ويوضح أنشطة المتعلم(ة) ويجعله في صلب العملية التعلمية.
وعموما تبقى الممارسة التعليمية السائدة في حصص التربية الموسيقية متسمة باستحواذ النموذج الإلقائي وبالاقتصار على الكتاب المدرسي كمرجع وحيد وكدعامة لتمرير المعارف في غياب الاستثمار الأمثل للإمكانيات التي تمنحها (ت.إ.إ) والذي يتم تحقيقه بواسطة التوظيف المعقلن والاستعمال المتبصر للوسائل التكنولوجية، عبر الانطلاق من تصور بيداغوجي واضح يتم فيه استغلال الأداة التكنولوجية كوسيلة وكواسطة ديداكتيكية لها قيمتها المضافة في بلوغ الأهداف وتحسين التعلمات وليست كغاية في حد ذاتها.

ومن أجل تقليص الهوة الشاسعة بين المنهاج الرسمي المتضمن للتصورات والتطلعات المستمدة من المستجدات البيداغوجية والديداكتيكية الداعية لإدماج (ت.إ.إ) في تدبير دروس التربية الموسيقية، وبين المنهاج الفعلي الذي يجسد واقع الممارسات التعلمية داخل الفصول الدراسية. وفي محاولة لتقديم نموذج ديداكتيكي يساهم في تحسين وتجديد الممارسات التعليمية لأساتذة التربية الموسيقية، قمنا بصياغة السؤال المركزي لإشكالية هذا البحث على النحو التالي:
هل تلعب السيناريوهات البيداغوجية دورا حاسما في نجاعة وفعالية إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في درس التربية الموسيقية؟ وبمعنى أدق:
هل إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تدريس وحدة تعليمية تم التخطيط لها انطلاقا من مرجعية منهجية تستحضر نظريات علم النفس المعرفي الموسيقي والأسس الإبستيمولوجية والديداكتيكية للإدراك السمعي، يؤثر على كفايات الإدراك السمعي الموسيقي لدى التلاميذ؟
وللتمكن من مقاربة هذا السؤال المركزي قمنا بتفريعه إلى الأسئلة الفرعية التالية:

- كيف يمكن تخطيط سيناريوهات بيداغوجية بالارتكاز على مرجعية منهجية للاستماع والتذوق الموسيقي؟
- وهل هناك علاقة بين إدماج الموارد الرقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية في تدريس مادة التربية الموسيقية وبين اكتساب المعارف الموسيقية من طرف المتعلمين؟
- وهل هناك علاقة بين إدماج هذه الموارد الرقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية في تدريس مادة التربية الموسيقية وبين تنمية قدرات الإدراك السمعي الموسيقي لدى المتعلمين؟

2-3 فرضيات البحث

بهدف تحديد خيط ناظم وموجه يؤطر ويقنن مختلف مراحل إنجاز هذا البحث، وانطلاقا من الإشكالية التي يضعها والأسئلة التي يطرحها، قمنا بصياغة فرضيات البحث على الشكل التالي:

- الفرضية المركزية : إن إدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي يؤدي إلى الزيادة في اكتساب المعارف الموسيقية وينمي قدرات الإدراك السمعي عند المتعلمين والمتعلمات.

- **الفرضيات الفرعية**

✓ **الفرضية الأولى:** يوجد فرق دال إحصائيًا عند مستوى (0.05) بين متوسطي درجات تحصيل المعارف بين تلامذة أفراد العينة التجريبية التي تلقت وحدة تعليمية في التربية الموسيقية **بإدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي** وبين أفراد المجموعة الضابطة التي تلقت نفس الوحدة التعليمية **باستعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال بالطريقة المعتادة.**

✓ **الفرضية الثانية:** يوجد فرق دال إحصائيًا بين متوسطي درجات الإدراك السمعي الموسيقي بين تلامذة أفراد العينة التجريبية التي تلقت وحدة تعليمية في التربية الموسيقية **بإدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي** وبين أفراد المجموعة الضابطة التي تلقت نفس الوحدة التعليمية **باستعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال بالطريقة المعتادة.**

4- المفاهيم الإجرائية للبحث

قدرات الإدراك السمعي الموسيقي: تشير العديد من المرجعيات الأدبية الحديثة بأن مصطلح الإدراك السمعي بدأ يتوارى ليفسح المجال لمصطلح جديد هو "معالجة المعلومات عن طريق السمع"، ومن هذا المنطلق فإن قدرات الإدراك السمعي الموسيقي هي مجموعة من القدرات والمرتبطة بمعالجة معلومات صوتية. ويمكن تصنيفها إلى:

1- القدرة على الكشف عن المهيج الصوتي la echerché d'un stimulus sonore: وهي اللحظة التي تستقبل فيها الأذن مهيجا صوتيا، فيحس الشخص بهذا المهيج ويحدث السمع.

2- القدرة على التحديد أو المطابقة: l'identification : وهي قدرة الدماغ على القيام بمقارنة بين مقطع موسيقي وبين نموذج صوتي آخر مخزن بالذاكرة، وتجدر الإشارة إلى أن الذاكرة الموسيقية تشكل قاموسا داخليا يتم

إغناؤه وتغذيته بالاستماع للموسيقى، ومن بين الأمثلة على ذلك: القدرة على التعرف على آلة موسيقية أو إيقاع موسيقي أو لحن موسيقي سبق الاستماع إليهم.

3- القدرة على التمييز la discrimination: هي القدرة على مقارنة مقطعين عن طريق البحث عن الخصائص المتقاربة أو المتباعدة بينهما، ومن بين الأمثلة على ذلك: القدرة على تصنيف آلات موسيقية أو مقارنة إيقاعات موسيقية من ناحية (السرعة، الوزن، عدد الأزمنة، ...) أو مقارنة لحنين موسيقيين من ناحية (المقام الموسيقي الموظف، السرعة، الخط اللحني، التعبير الموسيقي، ...).

4- القدرة على التقدير أو التقييم l'estimation : يمكن أن يأخذ عدة أشكال وذو طبيعة مختلفة:

- القدرة على التقييم انطلاقا مما يخلفه الاستماع إلى مقطع موسيقي من تأثير نفسي أو عاطفي على الشخص.
- القدرة على التقييم أو الحكم الموضوعي بعيدا عن الذاتية وانطلاقا من العناصر الموسيقية (آلات، بنية، قوالب، ...) الموظفة في المقطع.
- القدرة على التقييم أو الحكم النمطي سواء بالاعتماد على معايير ذاتية وشخصية أو بمرجعية الضوابط الثقافية.
- القدرة على التقييم أو الحكم على المعنى: بواسطة الربط بين ما هو موسيقي بمحتويات أخرى غير موسيقية (كربط الموسيقى بالصورة كما هو الحال في السينما أو ربط الموسيقى بالنص كما هو الحال في الأوبرا أو المسرح) وهو ما يدخل في إطار الموسيقى التصويرية أو الموسيقى الوصفية.

المعارف الموسيقية: يعرف الصباغ المعارف على أنها "مصطلح يستخدم لوصف فهم أي منا للحقيقة". والمعرفة ''اسم مشتق من الفعل'' يعرف '' وتشير إلى القدرة على التمييز أو الملائمة و الإحاطة بالشيء، والعلم به. وهي أشمل وأوسع من العلم، لأنها تشمل كل الرصيد الواسع والهائل من المعارف والعلوم والمعلومات التي استطاع الإنسان-باعتباره كائن يفكر بالعقل-أن يجمعه عبر مراحل التاريخ الإنساني الطويل بحواسه وفكره وعقله . وبذلك تكون المعارف الموسيقية هي كل المعلومات والقواعد والنظريات والأسماء والأحداث والمصطلحات والرموز والتواريخ ... المرتبطة بمجال الموسيقى والتي تكتسب عن طريق الحواس و/أو التأمل و/أو التجربة.

السيناريو البيداغوجي: يشير روبير بيبو R. BIBEAU (2004) إلى أن السيناريو البيداغوجي يقدم نشاط تعليمي يستحضر استعمال (الانترنت، أو الوثائق المطبوعة أو السمعية البصرية أو المتعددة الوسائط) ، يعده المدرس لتأطير تعلمات تلامذته قبل وأثناء وبعد الحصة ويكون مصحوبا بجذاذة للتقويم الذاتي والتقويم وتدبير الوضعيات والموارد الديداكتيكي. وعموما فإن السيناريو البيداغوجي هو تخطيط مهيكل ومنظم ومعقلن يكتب بدقة في مرحلة التهيئة للدرس التي تسبق تدبير الدرس، يستحضر فيها المدرس(ة) جميع الشروط الابستمولوجية والديداكتيكية والبيداغوجية لتدبير الوضعيات التعلمية والمستجدات التكنوبيداغجية المتعلقة بإدماج (ت.إ.إ) في التربية، لتوفير الظروف والشروط المواتية التي تساعد المتعلم(ة) على التعلم، بهدف الرفع من جودة الممارسة التعليمية وتفادي الارتجال والعشوائية اللذان يحولان دون بلوغ تحقيق الأهداف التعلمية ويؤديان إلى نتائج عكسية.

الموارد الرقمية: الرقمنة أو التحويل الرقمي (digitization) هو عملية تحويل المعطيات إلى صيغة رقمية (تعتمد نظام ثنائي 1 و 0) بهدف معالجتها بواسطة الحاسب الآلي." ومعلوم أن المعطيات يمكن أن تأخذ أشكالا مختلفة (نصوص، صور ورسومات متحركة أو ثابثة، مقاطع فيديو، جداول، مقاطع صوتية.

حسب روبير بيبو BIBEAU (2005) فإن الموارد الرقمية في التربية هي مجموع خدمات الإنترنت، وبرانم التدبير، والنشر، والاتصال (بوابات، برانم، محركات البحث، تطبيقات تربوية، حقيبة مستندات(“portfolios“ ، وكذلك المعطيات (الإحصائية والجغرافية والاجتماعية والديموغرافية...)، والمواد الإخبارية (مقالات صحفية، برامج متلفزة، مقاطع صوتية . . .)، إضافة إلى المؤلفات الرقمية (وثائق مرجعية عامة، مؤلفات أدبية، فنية أو تربوية) المفيدة للمدرس، أو المتعلم في إطار نشاط تعليمي/تعلمي، أو مشروع توظف فيهما تكنولوجيا المعلومات والاتصال، ويمكن تقديمهما ضمن سيناريو بيداغوجي.

5- منهجية البحث وإجراءاته

تعتمد هذه الدراسة المنهج التجريبي. وبالنسبة لمتغيرات الدراسة فستكون على النحو التالي:

المتغير المستقل: استخدام الموارد الرقمية وفق سيناريو بيداغوجي في تدريسية المجزوءة التعليمية.

أما **المتغيرات التابعة** فهي: اكتساب المعارف؛ تنمية قدرات الإدراك السمعي الموسيقي ؛

وقد تم التخطيط والتصميم للدراسة وفق الجدول التالي:

جدول رقم 1 يوضح تصميم الدراسة

المتغيرات المستهدفة	مجموعات ضابطة	مجموعات تجريبية
• **اكتساب المعارف.** • **قدرات الإدراك السمعي الموسيقي.**	**اختبار قبلي** لتقويم المعارف وقدرات الإدراك السمعي المرتبطة **بالوحدة التعليمية** المقررة.	**اختبار قبلي** لتقويم المعارف وقدرات الإدراك السمعي المرتبطة **بالوحدة التعليمية** المقررة.
	تلقت الوحدة التعليمية حول (الآلات الموسيقية والمجموعات االآلية) من طرف أستاذها **باستعمال موارد رقمية** بدون الاعتماد على سيناريو بيداغوجي.	**تلقت نفس الوحدة التعليمية (الآلات الموسيقية والمجموعات االآلية)** من طرف **نفس الأستاذ وبإدماج نفس الموارد الرقمية** لكن وفق سيناريو بيداغوجي.

1-5 – أدوات الدراسة

تتكون أدوات الدراسة من:

- **وحدة تعليمية** (الآلات الموسيقية والمجموعات الآلية) المقررة في برنامج السنة الأولى من مادة التربية الموسيقية للتعليم الثانوي الإعدادي.
- **دليل الأستاذ(ة) الخاص بتدبير دروس الوحدة التعليمية** وتحتوي على:

الموارد: (المعارف و القدرات) المستهدفة في المجزوءة التعليمية ؛
الأهداف التعليمية ؛ مراحل تدبير الدرس ؛ أنشطة الأستاذ(ة) ؛ أنشطة المتعلم(ة) ؛ الوسائل الديداكتيكية ؛
أنشطة التقويم والدعم.

موارد رقمية مكونة من:

- برنام متعدد الوسائط يحتوي على مقاطع فيديو ومقاطع صوتية مرتبة ومصنفة حسب تصميم معين يمكن الولوج إليها انطلاقا من قائمة المحتويات ويحتوي أيضا على أزرار تمكن المتصفح من الإبحار داخل هذا البرنام؛
- كراسة التلميذ تحتوي على مجموعة من الصور والجداول والنصوص والتمارين المرتبة بطريقة منسجمة مع البرنام المتعدد الوسائط لتمكين المتعلم(ة) من بناء تعلماته وتقويمها.
- **الاختبار القبلي:** وهو عبارة عن اختبار ينقسم إلى:

جزء كتابي يحتوي على مجموعة من الأسئلة تستهدف تقويم المعارف القبلية المرتبطة بوحدة (الآلات الموسيقية والمجموعات الآلية) لدى المتعلم(ة)؛

جزء عملي يستهدف تقويم قدرات ومهارات الإدراك السمعي القبلية والمرتبطة بوحدة (الآلات الموسيقية والمجموعات الآلية) لدى المتعلم(ة)؛

- **الاختبار البعدي:** وهو عبارة عن اختبار ينقسم إلى:
- جزء كتابي يحتوي على مجموعة من الأسئلة تستهدف تقويم المعارف المرتبطة بوحدة (الآلات الموسيقية والمجموعات الآلية) لدى المتعلم(ة)؛

جزء عملي يستهدف تقويم قدرات ومهارات الإدراك السمعي المرتبطة بوحدة (الآلات الموسيقية والمجموعات الآلية) لدى المتعلم(ة)؛

2-5- عينة البحث

تكونت عينة البحث من 829 تلميذة وتلميذا ينتمون لثلاث نيابات وهي نيابة سيدي البرنوصي ونيابة المحمدية ونيابة العرائش. وقد تم توزيعهم إلى مجموعتين (ضابطة وتجريبية) على الشكل التالي:

جدول رقم 1 يمثل توزيع التلاميذ حسب النيابات وحسب المجموعات

النيابة الإقليمية	الثانوية الإعدادية	عدد الفصول	عدد تلامذة المجموعة الضابطة	عدد تلامذة المجموعة التجريبية
سيدي البرنوصي	طارق	10	174	181
المحمدية	علال بن عبد الله	6	118	111
العرائش	وادي المخازن	7	128	117
مجموع أفراد العينة		23	420	409

4- عرض أهم النتائج والخلاصات التي توصل إليها البحث

بعد إنجاز التجريب الميداني وتجميع النتائج المتوصل إليها، قمنا بمعالجتها إحصائيا باستعمال البرنام الأكثر استعمالا في مجال التحليل الإحصائي وهو برنام SPSS ، لتمكن من دراسة وتمحيص الفرضيات. وقد استطعنا بفضل

استعمال هذا البرنام من قياس مجموعة من القيم الإحصائية والتوصل إلى مجموعة من الدلالات بفضل مقارنة المعدلات المحصل عليها في أداء المجموعة الضابطة والمجموعة التجريبية سواء في الروائز التي استهدفت تقييم المكتسبات المعرفية للمتعلمين أو تلك التي استهدفت تقييم قدراتهم ومهاراتهم المتعلقة بالإدراك السمعي الموسيقي. وسنعمل في الفقرات الموالية على استعراض هذه النتائج ثم التعليق بشكل مفصل.

6-1- النتائج المتعلقة بالإجابة على فرضيات البحث

الفرضية الأولى

- يوجد فرق دال إحصائيًّا عند مستوى (0.05) بين متوسطي درجات تحصيل المعارف بين تلامذة أفراد العينة التجريبية التي تلقت وحدة تعليمية في التربية الموسيقية **بإدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي** وبين أفراد المجموعة الضابطة التي تلقت نفس الوحدة التعليمية **باستعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال بالطريقة المعتادة.**

من أجل ذلك قمنا بحساب اختبارات T-test لحساب الفروق بين الاختبار القبلي والبعدي لتقويم المعارف بين المجموعة الضابطة والمجموعة التجريبية، وإيجاد المتوسطات والانحرافات المعيارية. وفيما يلي جدول يوضح تلك الفروق.

جدول رقم 2 يوضح نتائج المجموعتين الضابطة والتجريبية في الاختبارين القبلي والبعدي لتقويم اكتساب المعارف.

	نوع المجموعة	عدد التلاميذ	المتوسط	الانحراف المعياري	قيمة ت	مستوى الدلالة
الاختبار القبلي	ضابطة	420	5,38	4,17	,9490	,3430
	تجريبية	409	5,66	4,36		
الاختبار البعدي	ضابطة	420	9,00	4,98	18,679	0.000
	تجريبية	409	15,58	5,15		

نلاحظ من خلال الجدول رقم 2 وجود فوارق في المتوسطات الحسابية حيث بلغ متوسط أداء تلامذة العينة التجريبية في الاختبار القبلي الخاص بتقويم المعارف (5,66) ليرتفع بعدها في الاختبار البعدي إلى(15,58) في حين

ارتفع متوسط أداء تلاميذ العينة الضابطة بشكل طفيف بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي حيث انتقل من (5,38) في الاختبار القبلي الخاص بتقويم المعارف إلى (9,00) في الاختبار البعدي.
كما نلاحظ من خلال نفس الجدول أن هناك فروق ذات دلالة إحصائية في نتائج الاختبار البعدي حيث بلغت قيمة "ت" 18,679 وبدلالة إحصائية تساوي 0.000 وقد جاءت هذه الفروق لصالح تلامذة المجموعة التجريبية.
نستنتج من هذه البيانات أن تلامذة المجموعة التجريبية استطاعوا أن يكتسبوا المعارف الموسيقية التي تم التطرق إليها في الوحدة التعليمية بشكل أكبر مقارنة مع تلامذة المجموعة الضابطة، وبناء عليه يمكننا القول بأن إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في حصص التربية الموسيقية عندما يتم وفق سيناريوهات بيداغوجية محكمة يساعد التلاميذ على التحصيل الدراسي بشكل أكبر.
وكجواب على السؤال الذي طرحناه في بداية هذا البحث يمكن القول بأنه بالنسبة للعينة التي اشتغلنا عليها كانت هناك علاقة إيجابية بين استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تدريسية التربية الموسيقية وفق سيناريو بيداغوجي واكتساب المعارف من طرف التلاميذ، بمعنى أدق أن إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تدريسية مادة التربية الموسيقية تكون له قيمة مضافة وأثر إيجابي على التعلمات ويعمل على الزيادة في درجة اكتساب المعارف عند التلاميذ بشرط أن يتم وفق سيناريو بيداغوجي محكم ومعقلن.

الفرضية الثانية

- يوجد فرق دال إحصائيًّا عند مستوى (0.05) بين متوسطي درجات تحصيل المعارف بين تلامذة أفراد العينة التجريبية التي تلقت وحدة تعليمية في التربية الموسيقية **بإدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي** وبين أفراد المجموعة الضابطة التي تلقت نفس الوحدة التعليمية **باستعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال بالطريقة المعتادة.**

من أجل ذلك قمنا بحساب اختبارات T-test لحساب الفروق بين الاختبار القبلي والبعدي لتقويم المعارف بين المجموعة الضابطة والمجموعة التجريبية، وإيجاد المتوسطات والانحرافات المعيارية. وفيما يلي جدول يوضح تلك الفروق.

جدول رقم 3 يوضح نتائج المجموعتين الضابطة والتجريبية في الاختبارين القبلي والبعدي لتقويم قدرات الإدراك السمعي الموسيقي.

	نوع المجموعة	عدد التلاميذ	المتوسط	الانحراف المعياري	قيمة ت	مستوى الدلالة
الاختبار القبلي	ضابطة	420	8,27	4,08	,0070	,994
	تجريبية	409	8,28	3,98		
الاختبار البعدي	ضابطة	420	11,27	4,34	27,345	0.000
	تجريبية	409	19,34	4,13		

نلاحظ من خلال الجدول رقم 3 وجود فوارق في المتوسطات الحسابية حيث بلغ متوسط أداء تلامذة العينة التجريبية في الاختبار القبلي الخاص بتقويم المعارف (8,28) ليرتفع بعدها في الاختبار البعدي إلى(19,34) في حين ارتفع متوسط أداء تلاميذ العينة الضابطة بشكل طفيف بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي حيث انتقل من (8,27) في الاختبار القبلي الخاص بتقويم المعارف إلى (11,27) في الاختبار البعدي.

كما نلاحظ من خلال نفس الجدول أن هناك فروق ذات دلالة إحصائية في نتائج الاختبار البعدي حيث بلغت قيمة "ت" 27,345 وبدلالة إحصائية تساوي 0.000 وقد جاءت هذه الفروق لصالح تلامذة المجموعة التجريبية.

نستنتج من هذه البيانات أن تلامذة المجموعة التجريبية استطاعوا أن يطوروا قدراتهم الإدراكية السمعية الموسيقية المتعلقة بالوحدة التعليمية بشكل أكبر مقارنة مع تلامذة المجموعة الضابطة، وبناء عليه يمكننا القول بأن إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في حصص التربية الموسيقية عندما يتم وفق سيناريوهات بيداغوجية محكمة يساعد التلاميذ على تطوير قدراتهم الإدراكية السمعية الموسيقية بشكل أكبر.

وكجواب على السؤال الذي طرحناه في بداية هذا البحث يمكن القول بأنه بالنسبة للعينة التي اشتغلنا عليها كانت هناك علاقة إيجابية بين استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تدريسية التربية الموسيقية وفق سيناريو بيداغوجي وتطوير القدرات الإدراكية السمعية الموسيقية لدى التلاميذ، بمعنى أدق أن إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في تدريسية مادة التربية الموسيقية تكون له قيمة مضافة وأثر إيجابي على التعلمات ويعمل على الزيادة في درجة وتطوير القدرات الإدراكية السمعية الموسيقية لدى التلاميذ بشرط أن يتم وفق سيناريو بيداغوجي محكم ومعقلن.

6-2- الخلاصات

أظهرت نتائج المجموعتين التجريبية والضابطة في الاختبار القبلي أن مستويات اكتساب المعارف السمعي كانت متدنية ومتقاربة بين تلاميذ المجموعتين حيث تراوح متوسط النقط بين 5,38 على 30 للمجموعة

الضابطة و 5,66 على 30 للمجموعة التجريبية وبالتالي كانت بعيدة عن المعدل المحدد في 15 على 30، نفس الشيء بالنسبة لمستويات الإدراك السمعي مع ارتفاع بسيط للمتوسطات حيث تراوح متوسط النقط بين 8,27 على 30 للمجموعة الضابطة و 8,28 على 30 للمجموعة التجريبية وبالتالي كانت بعيدة عن المعدل المحدد في 15 على 30. كما أبان التحليل المقارن لنتائج المجموعتين في الاختبار البعدي عن تقدم المجموعة التجريبية على المجموعة الضابطة بشكل بارز. وهكذا تحسنت نتائج المجموعة التجريبية حيث ارتفعت المتوسطات التي حصل عليها التلاميذ فيما يتعلق باكتساب المعارف بحوالي 10 نقط لتصل إلى 15,58 على 30 بينما ارتفعت متوسطات المجموعة الضابطة ب 5،3 نقطة لتصل إلى 9 على 30 لتبقى دون المعدل. وفي نفس المنحى ارتفعت المتوسطات التي حصل عليها تلاميذ المجموعة التجريبية فيما يتعلق بقدرات الإدراك السمعي الموسيقي بشكل كبير بحوالي 11 نقطة لتصل إلى 19,34 على 30، بينما ارتفعت متوسطات المجموعة الضابطة بشكل ضئيل بحوالي 3 نقط لتصل إلى 11,27 على 30 وتبقى دون المعدل.

وبناء على هذه النتائج يمكن القول بأن التحسن البارز في اكتساب المعارف وفي قدرات الإدراك السمعي الموسيقي لأفراد المجموعة التجريبية راجع بالأساس إلى فعالية السيناريوهات البيداغوجية التي أطرت ووجهت إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال في الوحدة التعليمية التي تلقوها، في حين تبرز النتائج المحدودة للمجموعة الضابطة غياب التأثير الإيجابي لاستخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال بدون الاعتماد على سيناريوهات بيداغوجية. كما تأكد هذه الخلاصة صحة الفرضية الرئيسية التي تمت صياغتها على النحو التالي:

إن إدماج موارد رقمية وفق سيناريوهات بيداغوجية مبنية على مرجعية منهجية للإدراك السمعي يؤدي إلى الزيادة في اكتساب المعارف الموسيقية وينمي قدرات الإدراك السمعي عند المتعلمين والمتعلمات.

وبالنظر للموضوعية والدقة اللذان حاولنا أن نتحراهما طيلة مراحل إنجاز هذا البحث، وبالنظر للانسجام الذي طبع مختلف التقنيات والأدوات التجريبية الموظفة فيه، وبالنظر لإيماننا القوي بمصداقية نتائجه فإننا نقدم مجموعة من التوصيات والاقتراحات التي تأمل إلى الرفع من مستوى أداء أساتذتنا للارتقاء بالعملية التعليمية التعلمية عموما وبتدريس التربية الموسيقية على وجه الخصوص.

7- الاقتراحات والتوصيات

- إعادة صياغة أو بالأحرى تحديد الكفايات النوعية للتربية الموسيقية بطريقة تجعلها تبتعد عن تكديس وإغراق الطفل بمعلومات ومعارف بدون وضعها في سياقها، كما يتم ملئ أكياس الإسمنت، لنتمكن من السمو والرقي بإيقاظ الحواس وتهذيبها. وبإذكاء وتوطيد العلاقة بين المتعلم وفن تذوق الجمال وباكتشافه لأهمية الإدراك السمعي، وبتطوير حسه التحليلي والنقدي، وبأهمية الاقتسام وتوزيع المهام لغرس مجموعة من القيم والمكتسبات الضرورية لتعلم طرق العيش والتفكير الجماعي. وفي هذا الصدد فإننا نقترح الكفايتين النوعيتين التاليتين التي على المتعلم(ة) اكتسابهما من خلال حصص التربية الموسيقية:
    - جعل التلميذ قادرا على تعبئة مجموعة من الموارد الموسيقية (المعارف و القدرات والمواقف) لأداء (أي غناء أو عزف أو توقيع أو ارتجال) عمل موسيقي في انسجام وتفاعل مع باقي المتعلمين.
    - جعل التلميذ قادرا على تعبئة مجموعة من الموارد الموسيقية (المعارف و القدرات والمواقف) لفهم وتحليل عمل موسيقي (غنائي أو آلي) والتعليق عليه باستعمال قاموس موسيقي ملائم.
- الانطلاق من مرجعية ديداكتيكية تعتمد على:
    - تعويد المتعلم(ة) على البحث على الروابط والعلاقات بين التأثير والإحساس الذي تحدثه الموسيقى في نفسيته وبين العناصر الموسيقية المسؤولة عن هذه الأحاسيس ؛
    - تدريب المتعلم(ة) على استخراج العناصر المرتبطة بالمكونات الأربع (الزمن، اللحن، اللون، البنية) للمقطوعات الموسيقية بشكل تدريجي و مجزئ، وذلك لضرورة منهجية؛
    - المضامين التي يتم الاشتغال عليها يجب أن تقدم البديل الثقافي لما هو مروج في وسائل الإعلام وتسمح للمتعلم(ة) بالتعرف والاستماع وممارسة وإبداع الموسيقى الثقافية البعيدة عن كل ما هو تجاري و استهلاكي.
- إدماج تكنولوجيا الإعلام والاتصال بطريقة معقلنة ومتبصرة انطلاقا من سيناريوهات بيداغوجية تراعي المرجعية المنهجية وتفادي الاستعمال الاعتباطي والغير المفكر فيه الذي يعتبر هذه التكنولوجيا

كغاية في حد ذاتها، والذي لا يجلب أي قيمة مضافة للفعل التعلمي بل على العكس قد ينقص من فعاليته ؛

- إنتاج موارد رقمية انطلاقا من سيناريوهات بيداغوجية ووضعها رهن إشارة الأساتذة لاستثمارها وتوظيفها في الممارسات التعليمية؛
- تقاسم التجارب والممارسات التعليمية الناجحة من أجل الاقتباس والاستلهام منها ومن أجل تعميمها على باقي الفصول الدراسية ؛
- تشجيع البحث العلمي في المجال التربوي وخلق مسالك تربوية في جميع التخصصات داخل الجامعات لسد الحاجيات من الأطر التربوية التي تقدر بالآلاف سنويا، لربط الجامعة بمتطلبات سوق الشغل والتقليص من عدد الخرجين العاطلين من جهة، وللمساهمة في رفع جودة التكوين الأساس من خلال تخصيصها للأنشطة والوضعيات المهننة.
- بالنظر للتغيرات والمستجدات التربوية السريعة يجب اعتبار التكوين المستمر كواجب قبل أن يكون حق، مما يتطلب معه العمل على ترسيخ هذه الثقافة لدى جميع الأطراف سواء المسؤولين أو الأطر التربوية.

بيبليوغرافيا المصادر والمراجع المعتمدة

المراجع العربية

- **الميثاق الوطني للتربية والتكوين**، الطبعة الأولى، 2000
- **البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة التربية الموسيقية بسلك التعليم الثانوي الإعدادي**، 2009.
- قسيم هيلات، مصطفى و خصاونة، **فاطمة يوسف التربية الفنية والموسيقية في تربية الطفل**، دار المسيرة للنشر للتوزيع والطباعة، عمان، 2007.
- أوزي، أحمد، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، 2006.
- العمري، محمد أمين، **"الاستماع والتذوق في حصة التربية الموسيقية"**، بحث لنيل دبلوم مفتش، 2011.
- قطيط، غسان يوسف.**حوسبة التدريس**، عمان، دار الثقافة، 2011.
- غريب ، عبد الكريم **" بيداغوجيا الكفايات "**، منشورات عالم التربية, ط 5 – 2004
- .حسن شكير - **مدخل للكفايات والمجزوءات : مقارنة نظرية ومنهجية** - مطبعة الملتقى . نونبر 2002
- غريب، عبد الكريم وآخرون. **معجم علوم التربية** - سلسلة علوم التربية عدد 9 - 10 منشورات عالم التربية. ط 3 2001.

- مشاط نور الدين، **المدرسة المغربية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات**، منشورات مجلة علوم التربية (28)، 2011.
- حمداني موفق، وآخرون، **مناهج البحث العلمي: أساسيات البحث العلمي، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع**، عمان، 2006.
- أبوزينة، فريد كامل، وآخرون، **مناهج البحث العلمي: طرق البحث النوعي**، دار المسيرة للنشر للتوزيع والطباعة، عمان، 2005.
- كردي، محمد، **علم النفس التربوي**، شعاع للنشر والعلوم، حلب، 2009.
- **الدليل البيداغوجي لإدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعليم**، المختبر الوطني للموارد الرقمية، يوليوز 2012.
- أبو جاد، أصلح، **تطبيقات عملية في تنمية التفكير الإبداعي**، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله، 2004.
- البغدادي، محمد رضا، **تكنولوجيا التعليم والتعلم**، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998.
- الفار، إبراهيم عبد الوكيل، **تربويات الحاسوب وتحديات مطلع القرن الحادي والعشرين**، القاهرة:دار الفكر العربي، 1998.
- عباس، هناء عبده، **فعالية استخدام الكمبيوتر في التحصيل الأكاديمي وتنمية القدرات الابتكارية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية**، مجلة التربية العلمية، الجمعية المصرية للتربية العلمية، المجلد الرابع، ع2001،2، ص ص 147-179.
- عبد القهار الحجاري، **"التربية الموسيقية في المغرب: الكتاب المدرسي المتعدد نموذجا"** بحث لنيل شهادة الماستر المتخصص في الكتابة ومهن الكتاب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، 2012.
- قنديل، أحمد، **" تأثير التدريس بالوسائط المتعددة في تحصيل العلوم والقدرات الابتكارية والوعي بتكنولوجيا المعلومات لدى تلاميذ الصف الثالث الإعدادي "**، دراسات في المناهج وطرق التدريس، الجمعية المصرية للمناهج، ع72، 2001، ص ص 15-59.
- مراد، صلاح أحمد، **الأساليب الإحصائية في العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية**، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، 2000.
-

المراجع الأجنبية

- ADDERLY, C., KENNEDY, M. et BERZ, W. (2003). *‘’A home away from home’’ : The world of the high school music classroom. Journal of Research in Music Education*. Pp. 198-202.
- AGOSTI-Gherban, Cristina. (2000.). L’éveil musical : une pédagogie évolutive. L’Harmattan,
- ALTEN, Michèle. (1995). La musique à l’école. De Jules Ferry à nos jours. EAP.

- BASTIAN, H.G. (1998). *L'influence de l'éducation musicale sur le développement des enfants,* trad. Gunter Kreutz, Berlin, Université GHBaderborn.
- BENARDEAU, Thierry et PINEAU, Marcel. (1995). *Apprendre à écouter au cycle III : de la musique vers des pratiques pluridisciplinaires.* Nathan,
- BLACKING John. (1980). *Le sens musical*. Paris, Ed. Minuit,.
- COULANGEON Philippe. (2005). "*La stratification sociale des eche musicaux. Le modèle de la légitimité culturelle en question*". Revue echerché de sociologie. Vol. 44, N° 1,p. 3-33.
- BUSTARRET, Anne. (1998). *L'oreille echer : pour une echerché musicale auditive*. Les echerch de l'atelier.
- GILLIE – GUILBERT, Claire, FRITSCH, Lucienne.(2001). *Se former à l'enseignement musical : approche didactique et pédagogique*. Bordas.
- BLANCHARD-LAVILLE C., (2001), « *La fabrication de l'enveloppe sonore* », *Les enseignants entre plaisir et souffrance*, Paris : PUF, p. 223-227.
- BLANCHARD-LAVILLE C., (2001), op. cit., p. 250.
- BIBEAU. R. (2004c). *Les TIC à l'école : proposition de taxonomie et analyse des obstacles à leur echerché* . Document télé-accessible aux echerché suivantes : http://www.epi.asso.fr/revue/articles/a0511a.htm (date de visite: 22 Mars 2013)
- COSTANTINI. C., (2008), *Comment des enseignantes d'école maternelle « entendent » le silence de l'élève ? Étude echerch : des questions du chercheur aux questions de echerché* Thèse de doctorat dir. C. Blanchard-Laville, Sciences de l'éducation, Paris Ouest Nanterre La Défense, p. 116.
- CORSELIS. Marie . (2012). *Enseigner la musique comme un art*, ed. Symétrie.

- DESSUS Philippe et Edouard Gentaz, Apprentissages et enseignement, Dunod, Paris, 2006.

- DOLLE, Jean Marie, Pour comprendre Jean Piaget, Dunod, Paris, 1999.
- GORMAN A. "*The "Mozart Effect": Hard Science or Hype".* 1999, Disponible sur internet :http://l3d.cs.colorado.edu/~agorman/pdf/ echer-effect-survey.pdf (consulté le 13 mars 2007)

- LEBRUN, M. (2005). *Théories et echerc pédagogiques pour enseigner et apprendre : Quelle place pour les TIC dans l'éducation ?* 2ème echerc revue. Bruxelles : De Boeck.
- Cf. Actes du Symposium européen et international de echerché, « *Évaluer les effets de l'Éducation artistique et culturelle* », 10-11 et 12 janvier 2007, Centre G. Pompidou ; ou plus récemment : Symposium « Musique et Cognition, autour de l'apport de John Sloboda » le 23 janvier 2009 à Paris.
- GILLIE-GILBERT C., (1995). *Se former à l'enseignement musical.* Ed, Armond colin, Paris
- HODEIR. A., (2008). *Les eche de la musique*. Ed, Lemoine, Paris
- JAQUES-DALCROZE E. (1920). "*Le rythme, la musique et l'éducation*". Paris: Ed. Musicales.
- JARRY, Hélène. (2002). *L'éducation musicale de la maternelle à l'université : Actes de colloque national*, Dijon ,7,8,9 mars 2002. CRDP de Bourgogne.
- MARTENOT, Maurice, (2010), *Principes fondamentaux de formation musicale et leur application*. Éditions de l'île bleue,
- LECHEVALIER, B., PLATEL, H. et EUSTACHE, F. (dir.) (2010). *Le cerveau musicien. Neuropsychologie et psychologie cognitive de la perception musicale.* Bruxelles, Éditions De Boeck Université, 2e éd.
- MARTHA Hilley, LYNN Freeman Olson. (2009). *Piano for the developing music*. Ed, Cengage Learning.
- PAYOT Lausanne, 2001. *L'enfant, le monde sonore et la musique*
- Pédagogies et nouvelles technologies : *former des enseignants pour le nouveau millénaire, Actes du Ixe sommet de la Francophonie, Colloque Éthique et nouvelles Technologies, l'appropriation des echerc en question*, Beyrouth, 24-28 septembre.

- RIBIERE-RAVERLAT Jacquotte. (1997). *Développer les echerché d'écoute à l'école. Ecoute musicale, écoute des langues*. Paris : PUF,

- SNYDERS G., (1999), *La musique comme joie à l'école*, Paris, L'Harmattan, p.191.
- TARDIF, J. (1996). *Une condition incontournable aux promesses des NTIC en apprentissage : une pédagogie*

rigoureuse. Actes de la Conférence d'ouverture au colloque de l'AQUOPS (Association québécoise des utilisateurs de l'ordinateur au primaire et au secondaire).

- TILLMANN Barbara et al. (2005). "*Apprendre la musique : perspectives sur l'apprentissage implicite de la musique et ses implications pédagogiques*". Revue française de pédagogie, N° 152, p. 63-77.
- ZENATTI A. (1990). « *Aspects du développement musical de l'enfant dans l'Histoire de la psychologie au Xxe », in Education musicale et psychologie de la musique.* Les Sciences de l'éducation pour l'ère nouvelle, N° 6, p. 21-38.
- ZENATTI A. (1994). « *Aspects de la psychologie du timbre* », *in Musique et Médiations : le métier, l'instrument , l'oreille.* Paris KLINCKSIECK, p. 21-38.
- ZULAUF Madeleine. (2002). « *Limites et promesses de quelques echerch du développement musical ». in A la echerché du développement musical*. WIRTHNER Martine & ZULAUF Madeleine (éditrices). Paris : L'Harmattan.

واقع مرشدي التعليم الجامع والتربية الخاصة في مديريات التربية والتعليم الفلسطينية
سلوكيات................ وممارسات

إعداد
د.إدريس محمد صقر جرادات
مرشد التعليم الجامع
مديرية التربية والتعليم/شمال الخليل

The reality of inclusive education counselors and special education in the departments of Education in Palestine behavior .... And practices

By: Dr. Edrees Mohammad Sagr Jaradat
Inclusive Education Advisor in Hebron Directorate of Education/North Hebron
E-mail:sanabelssc@yahoo.com/ Jawal: 0599206664

This study aimed to identify the following:
1 – identify the behaviors and practices to guide the process of inclusive education in the Directorate.
2 – Identify the role of leader of inclusive education, services and technical and administrative work and professional obligations undertaken by schools, institutions and the community.

The study aimed to answer the following questions:
1 – What are the objectives sought by the Advisor of inclusive education through follow-ups at the Directorate?
2 – What is the most important tasks and responsibilities of the mentor of inclusive education and its services?

3 – What are the foundations upon which to guide inclusive education and the qualities that infuses and practices must move away from, and the beliefs about it? The study followed the methodology of content analysis through indirect observation, based on official documents and scripts issued by the Ministry of Education and district offices.

The study included a community education program guides of the Whole on the staff of the Ministry of Education, Palestinian and 36 distributors to guide school districts in the West Bank – northern governorates – and Gaza.

The study found a set of results, including:

1 – goals that guide seeks to achieve inclusive education is the general and specific objectives of the program of inclusive education as demarcated of the program in collaboration with the Inclusive Education for the application of the principles of the right to education for all and equal opportunities.

2 – tasks and responsibilities of a counselor education combined multiple including: awareness and knowledge about children's rights, and support students with special needs within the school, and raising the capabilities and change the attitudes of faculty and administrative in school, and to influence policies and actions at the level of districts and schools, cooperation and coordination with the institutions of society local, and working with people with special needs students.

3 – Provide counseling services and developmental and

preventive health, education and referral to organizations, it is the role of specialist and professional advisors and a source of awareness and education, coordinated and source of evaluation.

4 – based on a guide to inclusive education policy of the Ministry of Education and the Palestinian higher education emanating from the conference held in Salamanca in Spain in 1997 with regard to the integration of people with special needs.

The study recommended a series of recommendations including:

- Building an information system on students with special needs – a computerized database.
- Building a comprehensive system to convert the students.
- Building a system to assess performance and achievement of students with special needs and the degree of their adaptation to the school atmosphere.
- The provision of material capabilities and the specific budget for the program in the districts to facilitate the provision of services for students with special needs
- Change the Title Guide for the inclusive education and special education teachers to the name of supervisor of special education and inclusive education.

الخلاصة:

هدفت الدراسة إلى التعرف على ما يلي:

1-التعرف على السلوكيات والممارسات العملية لمرشد التعليم الجامع في المديرية.

2-التعرف على دور مرشد التعليم الجامع والخدمات والأعمال الفنية والإدارية والالتزامات المهنية التي يقوم بها في المدارس ومع المؤسسات والمجتمع المحلي.

وسعت الدراسة للاجابة على الأسئلة التالية:

1-ما الأهداف التي يسعى الى تحقيقها مرشد التعليم الجامع من خلال متابعاته في المديرية؟

4- ما هي أهم المهام والمسئوليات المنوطة بمرشد التعليم الجامع والخدمات التي يقدمها؟

3-ما الأسس التي يستند إليها مرشد التعليم الجامع والصفات التي يتحلى بها والممارسات التي يجب أن يبتعد عنها، والاعتقادات السائدة حوله؟

واتبعت الدراسة منهج تحليل المضمون من خلال الملاحظة غير المباشرة، بالاستناد الى الوثائق الرسمية والكتب الصادرة عن وزارة التربية والتعليم والمديريات التابعة لها.

وشمل مجتمع الدراسة مرشدي برنامج التعليم الجامع على كادر وزارة التربية والتعليم الفلسطينية ةعددهم 36 مرشدا موزعين على مديريات التربية والتعليم في الضفة-المحافظات الشمالية وغزة.

وتوصلت الدراسة الى مجموعة من النتائج أهمها:

1-الأهداف التي يسعى مرشد التعليم الجامع الى تحقيقها هي الأهداف العامة والخاصة لبرنامج التعليم الجامع كما رسمتها الادارةى العامة للبرنامج بالتعاون مع فريق التعليم الجامع لتطبيق مبداي حق التعليم للجميع وتكافؤ الفرص.

2-المهام والمسئوليات المنوطة بمرشد التعليم الجامع متعددة اهمها :نشر الوعي والمعرفة حول حقوق الطفل ، ودعم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة داخل المدرسة ،ورفع قدرات وتغيير اتجاهات الهيئات التدريسية والادارية في المدرسة، والتأثير في السياسات والاجراءات على مستوى المديريات

والمدارس ، والتعاون والتنسيق مع مؤسسات المجتمع المحلي، والعمل مع أهالي الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
3-تقديم الخدمات الارشادية والنمائية والوقائية والصحية والتوعية والاحالة للمؤسسات ،فهو يقوم بدور الاخصائي والمستشار المهني ومصدر للتوعية والتثقيف ومنسق ومصدر للتقييم.
4-يستند مرشد التعليم الجامع الى السياسة العامة لوزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية المنبثقة عن مؤتمر سلامنكا المنعقد في اسبانيا عام 1997م فيما يتعلق بدمج ذوي الاحتياجات الخاصة.
وأوصت الدراسة بمجموعة من التوصيات أهمها:
-بناء نظام معلوماتي حول الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة-قاعدة بيانات محوسبة.
-بناء نظام تحويل شامل للطلبة.
-بناء نظام تقييم لأداء وتحصيل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة ودرجة تكيفهم مع الجو المدرسي.
-توفير الامكانات المادية والميزانية المحددة للبرنامج في المديريات لتسهيل تقديم الخدمات للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة
-تغيير المسمى الوظيفي لمرشد التعليم الجامع ومعلم التربية الخاصة الى مسمى مشرف تربية خاصة وتعليم جامع.
الإطار العام للدراسة:
المقدمة:

انطلاقاً من المبادئ العامة للتربية الفلسطينية التي تعتبر أن التعليم حق إنساني وإن كل فرد في المجتمع هو إنسان لا بد أن يعيش حسب إمكاناته، ووفقاً لمبدأ ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص. فقد أولت وزارة التربية والتعليم اهتماماً كبيراً بهذه الفئة، فأنشأت قسم التربية الخاصة في الإدارة العامة للتعليم العام ليعتني بفئة الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة ودمجهم في النظام التعليمي وتقديم الدعم النفسي والأكاديمي والاجتماعي وتوفير البيئة التربوية المناسبة لهم*أنظر(....:التعليم الجامع،نشرة دورية-نشرة رقم1، صدرت عن مديرية التربية والتعليم في الخليل،تشرين أول 2002م).*

مر برنامج التعليم الجامع بعدة مراحل، كانت المرحلة الأولى تجريبية لمدة ثلاث سنوات، وهذه المرحلة مرت بعدة خطوات من خلال التخطيط للبرنامج والتعريف به عن طريق عقد لقاءات للفريق وممثلي المؤسسات الحكومية

وغير الحكومية والجامعات والبرامج العاملة مع ذوي الاحتياجات الخاصة، ثم تدريب الفريق من خلال عقد لقاءات وورش عمل حول ذوي الاحتياجات الخاصة في قاعة الدراسة والإعاقات والتطوير المدرسي وإدارة السلوك،ثم اختيار مدرستين في كل مديرية للمشاركة في المشروع كعينة تجريبية حيث تم تدريب الهيئات التدريسية على رزمة تدريبية مقرة ومعتمدة من اليونسكو بعنوان:الاحتياجات الخاصة في قاعة الدراسة لمدة 36 ساعة تدريبية بواقع ثلاث ساعات أسبوعيا.

ثم العمل داخل المدارس برصد الصعوبات التعليمية من خلال حضور حصص بهدف ملاحظة ومشاهدة سلوك الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة، وتم دعم المدارس بمبالغ مالية بقيمة ألف دولار لكل مدرسة وحقيبة العاب تربوية مساندة، كذلك التنسيق مع المؤسسات لعمل تعديلا بيئية في المدارس بعمل شاحط وممر موازي وحمام خاص لخدمة الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في المدرسة، وتمت متابعة العمل من خلال فريق التقييم وعلى أثرها تم تعميم البرنامج ليشمل جميع المدارس التابعة لوزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية، وأصبح البرنامج ضمن الهيكلية الوزارية من خلال دائرة الإرشاد التربوي والتربية الخاصة.

حدود الدراسة:

تحدد الدراسة وامكانية تعميم نتائجها في ضوء المحددات التالية:

1-الحدود الموضوعية:وتتضمن ممارسات عملية الدمج وفعاليته.

2-الحدود البشرية:تقتصر الدراسة على اعضاء-إدارة وموظفين- مرشدي التعليم الجامع ومدراء ومعلمي المدارس الحكومية.

3-الحدود الزمنية: تتناول الدراسة مسيرة برنامج التعليم الجامع ومراحل الدمج من 1997/3/3م(تاريخ التعيين الباحث في البرنامج) ولغاية 2011/5/20م.

4-الحدود المكانية:تقتصر الدراسة على مديريتي تربية الخليل وشمال الخليل التي تعتبر من أكبر المحافظات في الضفة الغربية وتضم 215مدرسة وتعتبران حلقة الوصل ما بين المديريات.

مشكلة الدراسة:

اكتسب الباحث خبرات من الحياة الأكاديمية والبحثية من خلال عمله في برنامج التعليم الجامع والتربية الخاصة في مديرية التربية والتعليم في الخليل ومديرية شمال الخليل، ، و على ضوء الملاحظات التي كان يحس بها

والمقدمات والتغذية الراجعة التي يقدمها في الميدان للمعلم مسئول لجنة التعليم الجامع، الأمر الذي مهد السبيل لمتابعة سير العمل لدراسة واقع تطور ممارسات مرشد برنامج التعليم الجامع وكذلك الملاحظات التي كان يحس بها أو يسجلها عن وجود مشكلة ما، بالرغم من الجهود التي تبذلها وزارة التربية والتعليم، وعليه يمكن الإشارة إلى الملاحظات التالية: .

1-مطالبة مرشدي التعليم الجامع المستمرة بتغيير المسمى الوظيفي من معلم تربية خاصة إلى مشرف تربية خاصة.

2-التبعية الإدارية لدائرة الإدارة العامة للتعليم العام لمدة عشرة سنوات ثم الانتقال إلى دائرة الإدارة العامة للإرشاد التربوي في الوزارة وعليه التبعية الإدارية في المديريات لقسم التعليم العام ثم قسم الإرشاد مما أدى إلى حدوث بلبلة في المتابعات الإدارية .

3-يحصل المرشد على إجازة قسرية-العطلة الصيفية للمدارس والتعامل معه على أنه معلم تربية خاصة.

أسئلة الدراسة

تسعى الدراسة للاجابة على الأسئلة التالية:

السؤال الاول:ما الأهداف التي يسعى الى تحقيقها مرشد التعليم الجامع من خلال متابعاته في المديرية؟

السؤال الثاني: ما هي أهم المهام والمسئوليات المنوطة بمرشد التعليم الجامع والخدمات التي يقدمها؟

السؤال الثالث:ما الأسس التي يستند إليها مرشد التعليم الجامع والصفات التي يتحلى بها والممارسات التي يجب أن يبتعد عنها، والاعتقادات السائدة حوله؟

حدود الدراسة:

1-الحدود الموضوعية وتتضمن مجالات عمل مرشد التعليم الجامع في المديريات التابعة لوزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية.

2-الحدود البشرية: تطبق الدراسة على مرشدي التعليم الجامع والتربية الخاصة في المديريات.

3-الحدود المكانية:تطبق الدراسة على مرشدي التعليم الجامع في الضفة الغربية وقطاع غزة وتحديدا مديريتا الخليل وشمال الخليل.

4-الحدود الزمنية:تطبق الدراسة ضمن التسلسل الزمني من تاريخ تعيين مرشدي التعليم الجامع في 1997/3/3م-2011/3/31مم.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى التعرف على ما يلي:

1-التعرف على السلوكيات والممارسات العملية لمرشد التعليم الجامع في المديرية.

2-التعرف على دور مرشد التعليم الجامع والخدمات والأعمال الفنية والإدارية والالتزامات المهنية التي يقوم بها في المدارس ومع المؤسسات والمجتمع المحلي.

أهمية الدراسة:

1-زيادة نسبة الإعاقات في المجتمع المحلي نتيجة الإصابات عن طريق إطلاق الرصاص الناري والمطاطي من قبل جنود الاحتلال وأحداث الانتفاضتين الأولى والثانية-انتفاضة الأقصى-.

2-الانطلاق من مبدأي حق التعليم للجميع وتكافؤ الفرص لجميع الطلاب بما فيهم ذوي الاحتياجات الخاصة.

3-تعيين مرشد التعليم الجامع لمتابعة عملية الدمج لذوي الاحتياجات الخاصة يعزز منطلقات اقتصاديات التربية لتوفير الكلفة الناتجة عن فتح مراكز التعليم الخاصة.

4-مطالبة ذوي الاحتياجات الخاصة المستمرة بحقوقهم، ومعاناتهم من سياسة العزل والإقصاء والتهميش.

5-تعتبر هذه الدراسة من الدراسات النادرة حول موضوع مرشد التعليم الجامع-على حد علم الباحث-.

6-يرجى أن تعطي هذه الدراسة إضافة إلى المكتبة المحلية التي تفتقر إلى مثل هذا النوع من الدراسات.

هذه العوامل مجتمعة تعطي أهمية لهذه الدراسة.

مصطلحات الدراسة:

مرشد التعليم الجامع: موظف حاصل على مؤهل علمي في العلوم الانسانية في التربية الخاصة أو التربية الابتدائية أو التربية وعلم النفس أو علم الاجتماع أو الخدمة الاجتماعية يتابع متطلبات برنامج التعليم الجامع.

برنامج التعليم الجامع:التعليم الجامع يعمل على تأمين مبدأ التعليم للجميع من خلال تطويع للعملية التعليمية بعناصرها المختلفة،لاحتياجات الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة، ويعتمد البرنامج منهج المشاركة والإدماج وهو برنامج

يعمل على مستوى المنطقة بهدف تنفيذ سياسة وزارة التربية والتعليم في هذا المجال.

منهج الدراسة:

تتبع الدراسة منهج تحليل المضمون بالاستناد الى الوثائق الرسمية والكتب الصادرة عن وزارة التربية والتعليم والمديريات التابعة لها.

مجتمع الدراسة:

شمل مجتمع الدراسة مرشدي برنامج التعليم الجامع على كادر وزارة التربية والتعليم الفلسطينية ةعددهم 36 مرشدا موزعين على مديريات التربية والتعليم في الضفة-المحافظات الشمالية وغزة

أدوات الدراسة:

تعتمد الدراسة الملاحظة غير المباشر من خلال الرجوع الى السجلات والتقارير والوثائق والكتب الصادرة عن وزارة التربية والتعليم الفلسطينية ومديرية التربية والتعليم في الخليل من 1997/3/3م-2007/5/30م ومديرية شمال الخليل منذ تأسيسه والانتقال الى المبنى الجديد في حلحول من 2007/11/20-2008/12/30م.

مصادر الدراسة:

النشرات والكتب والتقارير والسجلات وارشيف مديريتا التربية والتعليم في الخليل وشمال الخليل، وسجلات الوارد من الوزارة والصادر عن مديرية التربية والتعليم وما كتب عن برنامج التعليم الجامع في الصحافة المكتوبة والمقروءة والمرئية والزيارات الميدانية والمشاهدات العينية ونماذج المتابعة الميدانية التي يقوم بها مرشد التعليم الجامع وورش العمل واللقاءات التربوية والايام الدراسية حول التعليم الجامع والاحتياجات الخاصة.

عرض النتائج وتحليلها

بعد جمع البيانات ودراسة المعطيات تم التوصل إلى ما يلي للإجابة عن أسئلة الدراسة:

الإجابة عن السؤال الأول: ما الأهداف التي يسعى الى تحقيقها مرشد التعليم الجامع من خلال متابعاته في المديرية؟

يسعى مرشد التعليم الجامع الى تحقيق الأهداف العامة لبرنامج التعليم الجامع في الوزارة الرامية الى احداث تغيير ايجابي في سلوك الطالب من خلال مساعته على التكيف النفسي والاجتماعي مع المناخ التربوي والجو المدرسي المحيطن وعليه يسعى برنامج التعليم الجامع الى تحقيق الأهداف العامة والخاصة التالية:

الأهداف العامة لبرنامج التعليم الجامع:

أ- تطوير سياسات تنحو باتجاه التعليم للجميع وذلك على صعيدي الوزارة والمديرات مع ضمان الاستمرارية في هذا المجال .

ب- بناء قدرات مديريات التربية والتعليم على تطوير مفهوم الاحتياجات التربوية الخاصة في المدارس التابعة لها.

ج- إرساء أسس التعاون بين وزارة التربية والمؤسسات والمنظمات الأخرى لمساعدة ودعم الأطفال والشباب من ذوي الاحتياجات الخاصة .

د- تحقيق تكافؤ الفرص من خلال المدرسة الجامعة لكل فئات الطلبة .

الأهداف الخاصة لبرنامج التعليم الجامع [53]

أ- تطوير قدرات المعلمين للتعامل مع الاحتياجات الخاصة في قاعة الدراسة.

ب- تطوير وتأهيل المدارس المشاركة وتزويدها بالتسهيلات الفيزيائية التي تسمح لجميع فئات الطلبة بدخولها .

ج- تطوير قدرات المعلمين على تطويع المنهاج ليتناسب مع الفروق بين الطلبة وملبياً لاحتياجاتهم .

د- تطوير طرق وأساليب تعليمية تناسب وتلائم جميع الطلبة ملبية للاحتياجات الخاصة بهم .

ه- العمل على تطوير وتوفير الوسائل تعليمية والألعاب التربوية التي تراعي الفروق الفردية بين الطلبة .

و- العمل على تعديل وتغيير الأفكار والاتجاهات نحو سياسة التعليم حق للجميع .

ز- العمل ضمن مبدأ أن كل شخص لديه احتياجات تربوية خاصة .

ح- الكشف المبكر عن مشاكل السمعية والبصرية والحركية والنطقية والعقلية وصعوبات التعلم.

ط- وضع خطط التعليم الفردية مع معلم الصف والأخصائي الذي يتابع الحالة.

ي- العمل على دمج وتسجيل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة، وتنمية اتجاهات ايجابية نحو الدمج.

وللإجابة على السؤال الثاني: ما هي أهم المهام والمسئوليات والواجبات المنوطة بمرشد التعليم الجامع والخدمات التي يقدمها؟ فكانت الاجابات من خلال تحليل المستندات والصادر والوارد على النحو التالي:

---

[53] وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، الإدارة العامة ، "أربع سنوات على ولاية وزارة التربية والتعليم الفلسطينية: الواقع والإنجازات"، رام الله ، 1999 ص 14.

الوصف الوظيفي لمرشد التعليم الجامع في المديرية

اسم الوظيفة : مرشد التعليم الجامع في قسم الإرشاد والتربية الخاصة في المديرية.

أولا :الواجبات والمهمات :-

أً : تسهيل التحاق الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في المدارس النظامية:

1. تحقيق تكافؤ الفرص للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة من خلال القبول ضمن الأسس والتعليمات المعمول بها في الوزارة.
2. زيادة الوعي بكيفية التعامل مع الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
3. متابعة القضايا المتعلقة بالتحاق الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة .
4. تحديث بيانات الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في المديرية.

4- التنسيق مع قسم التعليم العام في المديرية لالتحاق و تنقل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة بين المؤسسات التعليمية.

ب : دعم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة من خلال:

1. تعزيز وتشجيع مشاركة الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة في الأنشطة التربوية المرافقة: رياضية ، فنية، ثقافية، علمية.
2. إحياء و توظيف المناسبات والاحتفالات التي تسهم في نشر الوعي و إبراز قدراتهم مثل: يوم المعاق العالمي/ يوم الطفل العالمي/ يوم الطفل الفلسطيني/ يوم البيئة/ يوم الصحة .
3. المساعدة في توفير الأدوات والأجهزة والوسائل التعليمية المعينة و اللازمة .
4. توفير الدعم الأكاديمي والنفسي من خلال الاختصاصيين في مجال التربية الخاصة والإرشاد التربوي.
5. متابعة تحصيل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة وذلك من خلال زيارات المدارس و حضور الحصص الدراسية حسب ما تقتضيه الحاجة.
6. التعاون مع اختصاصيي مركز المصادر/ التربية الخاصة في بناء و متابعة الخطط و البرامج المساندة للطلبة.
7. تحويل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة –عند الحاجة- للمؤسسات المختصة بالتنسيق مع مركز المصادر/ التربية الخاصة.

ج: رفع قدرات الهيئات الإدارية والتدريسية في المدرسة:

1. العمل على تطوير قدرات المعلمين ومديري المدارس في مجال التربية الخاصة والتعليم الجامع.
2. دعم المعلمين بمختلف تخصصاتهم للتعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة، وذلك بالتنسيق مع مشرفي المرحلة وحضور الحصص عند الحاجة.
3. تطوير قدرات مسئول لجنة التعليم الجامع في المدرسة.
4. التنسيق مع المعلمين المسئولين عن التعليم الجامع في المدارس لمساعدة ودعم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.

د: التعاون والتنسيق مع مؤسسات المجتمع المحلي العاملة في مجالات الإعاقة وذلك من خلال أنشطة تتضمن :

1. تفعيل مؤسسات المجتمع المحلي للمشاركة في إيجاد بيئة ملائمة لكافة الطلبة بمن فيهم ذوي الاحتياجات الخاصة (أسطح مائلة، وحدات صحية ملائمة، توفير وسائل معينة .... الخ).
2. التعاون مع المؤسسات المتخصصة العاملة في ميدان التربية الخاصة وذلك بمشاركة المدارس المعنية لرفع قدرات الهيئات الإدارية والتدريسية مثل عقد دورات تدريبية متخصصة.
3. الاستفادة من إمكانيات المؤسسات لدعم الأنشطة المدرسية.
4. تسهيل تعاون المؤسسات العاملة في مجال التأهيل مع الأهل لمتابعة الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة خارج إطار المدرسة.
5. التنسيق مع المؤسسات التأهيلية لتطوير آليات الكشف والتدخل المبكر للإعاقة.

ه: العمل مع أهالي وأسر الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة من خلال أنشطة تتضمن :

1. المشاركة في اللقاءات الدورية مع مجالس أولياء الأمور والمعلمين لمعالجة قضايا تعليمية و تربوية.
2. تفعيل دور مجلس أولياء الأمور و المعلمين و إشراكهم في الأنشطة المدرسية المتعلقة بذوي الاحتياجات الخاصة.
3. المتابعة مع الأهالي في علاج المشاكل والصعوبات التي تواجه الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة وذلك بالتعاون مع المرشد التربوي في المدرسة.

ثانيا: المسؤوليات تضمن:

1- إعداد الخطة السنوية وتنفيذها
2- تنفيذ الأنشطة الواردة في الوصف الوظيفي.
3- إعداد التقارير الشهرية و الفصلية والسنوية حو ل الأنشطة والانجازات والتحديات.
4- المشاركة في الاجتماعات و الأنشطة الخاصة بالعمل على مختلف المستويات الإدارية.
5- المشاركة في ورشات التدريب الخاصة ببرنامج التعليم الجامع.
6- متابعة المدارس التي يتم فيها الدمج.
7- التعاون مع معلمي المصادر لتوفير الدعم اللازم لطلبة غرف المصادر/ التربية الخاصة.
8- توفير الدعم و المتابعة لطلبة غرف المصادر/ التربية الخاصة للاندماج في مدارس أخرى.
9- المتابعة مع مشرف التربية الخاصة في جميع القضايا التي تتعلق ببرامج التربية الخاصة.
10- المشاركة في أنشطة المؤسسات المجتمعية ذات العلاقة.

ثالثا: يتم تقييم أدائه وفق الآتي:

إداريا:رئيس قسم الإرشاد و التربية الخاصة.

مهنيا: مشرف التربية الخاصة.

رابعا: الدوام و الإجازات:

4- يدوام في قسم الإرشاد التربوي و التربية الخاصة في المديرية.

2 – يطبق عليه نظام الدوام و الإجازات المطبق على الموظفين الإداريين في المديرية.

***من السيدة شفا شيخه-مديرة دائرة التربية الخاصة في وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية*

الخدمات التي يقدمها مرشد التعليم الجامع:

يقدم مرشد التعليم الجامع خدمات ارشادية ونمائية ووقائية ونفسية وتوعوية وإحالة ومتابعة وتنسيق العمل مع ذوي العلاقة، فهو يقوم بدور

الاخصائي في بناء العلاقة المهنية ودور المستشار ومصدر للتوعية والتثقيف ومنسق ومصدر للتقييم، وعليه يمكن الاشارة الى أهم الخدمات التي يقدمها على النحو التالي:
1-يقدم جلسات ارشادية للطلبة توعوية بشكل فردي وجماعي.
2-الكشف المبكر عن الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
3-مساعدة الاهالي واولياء الامور في الية التعامل مع الطلبة ذوي .ح
4-التحويل الى الاخصائيين والمؤسسات لتقييم القدرات العقلية والوضع التحصيلي للطالب.
5-تسجيل ودمج الطلبة ذوي الإعاقة.
6-المتابعة المستمرة للمدارس من خلال الزيارت الميدانية.
7-اجراء الدراسات وأوراق العمل لأغراض البحث العلمي.
4- توضيح طبيعة العمل وتقديم خدمات استشارية للإدارة والمعلمين.
9-المشاركة مع المعلمين في جلسات العمل لتطويع المنهاج بما يناسب ذوي .ح
10-مساعدة معلم الصف في وضع خطط التعليم الفردية.
11-متابعة لجنة اصدقاء الطلبة ذوي.ح-لجنة الدعم والمساندة الاجتماعية والأكاديمية.
12-عقد لقاءات تربوية فردية وجماعية للهيئة التدريسية والأهالي حول الية التامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة.
13-التنسيق مع أقسام المديرية والمؤسسات والبرامج العاملة مع ذوي الاحتياجات الخاصة لتنفيذ أنشطة وفعاليات وتبادل الخبرات والزيارات.
14-متابعة وتقيمم أداء المعلمات المنتدبات لمراكز التربية الخاصة-تعبئة نموذج تقييم الاداء السنوي-.
15-حضور ومشاهدة حصص مع المعلمين لملاحظة الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة والية التامل معهم داخل الصف.
16-متابعة تاهيل البناء المدرسي مع قسم الأبنية بعمل شاحط وممر موازي وحمام خاص.
17-حصر أعداد الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة، وتفريغ الاحصائية على جهاز الحاسوب.
18-حصر أعداد العاملين والموظفين في المديرية والمدارس من ذوي الاحتياجات الخاصة.
19-عقد ورشات عمل –التهيئة-للمعلمين الجدد للتعريف بفكرة وعمل برنامج التعليم الجامع.

20- عقد ورشات عمل للطلبة الجامعيين –الخريجين-في الجامعات للتعريف بفكرة وعمل برنامج التعليم الجامع.
21- عقد ورشات عمل لاعضاء الهيئة التدريسية ككل في المدرسة حسب احتياج كل مدرسة.
22-تنفيذ فعاليات وأنشطة بيوم المعاق العالمي باصدار تعميم وكتاب خطي للمدارس والمؤسسات والبرامج العاملة مع ذوي الاحتياجات الخاصة وكتابة تقرير بالفعاليات والانشطة.
23-دراسة احتياجات الطلبة من أدوات مساعدة ومستلزمات والعمل على توفيرها.
24-مساعدة طلبة الجامعات والدراسات العليا والباحثين في مشاريع التخرج والبحوث والدراسات المتعلقة بالطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة ، وتقديم التسهيلات والمعلومات اللازمة.
25-متابعة التعليم البيتي للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة الذين لا يستطيعون القدوم الى المدرسة.
26-تشكيل لجنة التعليم الجامع في المدرسة.
27-مساعدة المعلم مسئول لجنة التعليم الجامع على وضع خطة سنوية لتنفيذ برنامج التعليم الجامع في المدرسة.
28-فتح ملف التعليم الجامع وترتيبه من صادر ووارد ونماذج تحويل ودمج وتعديل مدرسي وتقارير طبية واجتماعات دورية وفعاليات وأنشطة ومخيمات صيفية تتضمن عمليات الدمج.
28-تفعيل الاذاعة المدرسيةوحصص الرسم والفن والتعبير والنشاط ومشاركة ذوي الاحتياجات الخاصة فيها.
29-العمل على توفير طابعات بريل ومنهاج بريل للطلبة المكفوفين والوسائل المساعدة.
30-العمل على توفير السماعات الطبية لذوي الاعاقة السمعية والكراسي المتحركة والعكازات لذوي الاعاقة الحركية.

وللإجابة على السؤال الثالث:ما الأسس التي يستتند إليها مرشد التعليم الجامع والصفات التي يتحلى بها والممارسات التي يجب أن يبتعد عنها، والاعتقادات السائدة حوله؟

الاسس التي يستتند اليها مرشد التعليم الجامع:

استند برنامج التعليم الجامع الذي تبنته وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية الى بيان سلامنكا-التربية للجميع-،حيث التقى في سلامنكا في اسبانيا 300 مشاركا من 88 دولة حكومية و25 منظمة دولية لبلوغ هدف التعليم للجميع، وأن تقدم المدارس خدماتها لجميع الأطفال بما فيهم ذوي الاحتياجات الخاصة، وادخال اصلاحات تربوية على المدارس ، والوصول الى مدرسة للجميع التي تسهل وتساند التعلم ، وتستجيب للاحتياجات الفردية، واضفاء مزيد من الفعالية على الدور التربوي للمدارس،واقر المجتمعون أن لكل طفل حق اساسي في التعليم، ولكل طفل خصائصه الفريدة واهتماماته وقدراته واحتياجاته، وأن المدرسة الجامعة التي لا تستثني أحدا هي أنجع وسيلة لمكافحة مواقف التمييز وايجاد مجتمع متسامح وبلوغ هدف التعليم للجميع.

أما أهم المبادىء التوجيهية لبرنامج التعليم الجامععلى الصعيد الوطني انطلاقا من مبادىء مؤتمر سلامنكا 1996م على النحو التالي:

1-السياسة والتنظيم:اعتماد مبدأ تكافؤ الفرص على مستوى السياسات التربوية واللوائح والتعليمات.

2-العوامل المدرسية:مواءمة وتطويع المناهج لتناسب احتياجات الطلاب ذوي الاحتياجات الخاصة.

3-حشد العاملين في التعليم والتدريب:باعتماد المهارات التطبيقية وطرق التدريس وتأهيل المعلمين للتعامل مع الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.

4-خدمات الدعم والمساندة من خلال الاخصائيين والخبراء ومؤسسات المجتمع المحلي.

5-مجالات الاولويةبالاكتشاف المبكر للطفل ذوي الاحتياج الخاص

6-منظور المجتمع المحلي:تنمية التشارك التعاوني مع المجتمع المحلي والتأهيل المبني على المجتمع.

7-الاحتياجات من الموارد:من خلال الالتزام السياسي على الصعيد الوطني وعلى مستوى المجتمع المحلي وتخصيص الموارد لخدمات الدعم اللازمة.

وانطلاقا من سياسة الوزارة بالوصول بالطالب الى اعلى مستوى من الصحة النفسية والتكيف مع الواقع الاجتماعي والارتقاء بالشخصية في جميع الجوانب وتوفير الخدمات لجميع الطلبة في المدارس من أجل التمتع بصحة نفسية وشخصية متكتملة ليحقق ذاته ويتوافق مع من حوله وقادر علىالتكيف ومواجهة مشكلات الحياة اليومية والانجاز والتحصيل الاكاديمي والتربوي وفق أحدث الاساليب ومعايير الارشاد التربوي ومعايير الدمج المتعارف عليها، من خلال اعداد الخطط التربوية وتنفيذ البرامج التي تسهم في عمليات التقبل وتعديل الاتجاهات نحو ذوي الاحتياجات الخاصة، والقيام بأنشطة

وفعاليات لتوفير جو يسوده الشعور بالأمن والارتياح، وتطوير اتجاهات ايجابية نحو المدرسة والمجتمع المحلي من خلال بناء علاقات ايجابية وصداقات قوية للعمل على زيادة الانتماء وتفعيل الاندماج بالحياة اليومية والجو المدرسي لدى الطلبة.انظر:*"فايز شرف:واقع الارشاد التربوي في المدارس الحكومية،ورقة عمل مقدمة في اليوم الدراسي الذي نظمته نقابة الاخصائيين الاجتماعيين فرع الخليل في قاعة مدرسة الحسين بن علي الثانوية بتاريخ 2008/5/29م").*

أما أهم الاسس التي يقوم عليها برنامج التعليم الجامع هي:

1-الاسس الفلسفية:

أ-حرية الفرد في تقرير واختيار مصيره.

ب-حق الفرد في المساعدة دون اكراه.

ج-من حق الفرد في التوجيه لتحقيق ذاته*أنظر " معتصم مصلح:ورشة عمل الارشاد المدرسي والتعليم الجامع،2003/4/20م،وزارة التربية والتعليم العالي،رام الله.*

2-الاسس النفسية:

أ-التأكيد على التأثير المتبادل لجوانب شخصية الفرد وتكاملها.

ب-اختلاف الافراد في قدراتهم وميولهم وسماتهم ومستوى ذكائهم.

ج-مراعاة مطالب الفروق الفردية والاحتياجات الشخصية.

3-الاسس التربوية:

4- الاهتمام بالطالب كفرد وكعضو في الجماعة.

ب-مشاركة أطراف عملية الدمج لتحقيق التكيف الاجتماعي والمدرسي.

ج-مساندة ذوي الاحتياجات الخاصة ومساعدتهم على التعلم.

4-الاسس الأخلاقية:

4- سرية المعلومات وصدقها.

ب-احترام القيم والتقاليد والاعراف السائدة.

ج-العلاقة المهنية البعيدة عن العطف والانفعال.

د-الاخلاص في العمل.

هـ-العمل بروح الفريق والعمل التعاوني.

و-كرامة المهنة.

صفات مرشد التعليم الجامع:

1-القدرة على مواجهة مشاكل الطلبة الجسمية والحركية والسلوكية والنفسية والانفعالية والبصرية وصعوبات التعلم.

2-حسن المظهر العام.

3-الذكاء وسرعة البديهة.
4-التفكير المنطقي السليم.
5-سعة الاطلاع.
6-المرونة والتسامح.
7-النضج الاجتماعي.
8-التعاون وروح المرح.
9-القدرة على القيادة.
10-الصبر والمثابرة.
11-تحمل ضغط العمل.
12-القدرة على فهم وتقبل الاخرين.

الممارسات التي يجب أن يبتعد عنها مرشد التعليم الجامع والتربية الخاصة:

1-عقد جلسات في المدارس مقابل أجر.
2-الاشراف على أنشطة الكشافة والطابور الصباحي.
3-رفع سقف التوقعات وتقديم والحلول الجاهزة.
4-محاباة الطالب على حساب المعلم.
5-الايماءات والايحاءات والمزاجية والحدية في الضحك والبكاء .
6-المزاجية والحدية اثناء حدوث مشكلة.
7-الالفاظ النابية والضرب.
8-افشاء الاسرار.
9-المبالغة في المظهر العام-التجميل السافر-.
10-الاهمال في المظهر العام.
11-تفقد الحضور والغياب في المدرسة.
12-جمع التبرعات أو توزيع المساعدات على الطلبة المحتاجين.
13-كتابة الانذارات أو التنبيهات للطلبة.
14-الابتعاد عن الاسهاب النصح ،والاوامر والممنوعات.

الاعتقادات الخاطئة حول مرشد التعليم الجامع والتربية الخاصة:

1-أن المرشد يقدم خدمات علاجية،وهذا اعتقاد خاطىء لأن هدفه مساعدة الطالب على التعلم بتوفير التسهيلات للتغلب على المعيقات والمشكلات التي تواجهه.
2-أن المرشد يقوم بتشخيص مشكلة الطالب، وهذا اعتقاد خاطىء لأن دوره مساعدة المعلم في الكشف المبكر عن مشكلة الطالب.
3-سحب بعض الصلاحيات من المدير أو المعلم،وهذا اعتقاد خاطىء لأن دوره مساندة المدير والمعلم.

4-اثقال كاهل المعلم بتجميع الطلبة ذوي الحتياجات الخاصة في الصف، وهذا اعتقاد خاطىء لأن دوره مساندة ومساعدة المعلم على الية التامل مع الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
5-اقتصار برنامج التعليم الجامع على الطلبة المعاقين،وهذا اعتقاد خاطىء لأن البرنامج يعطي أولوية للطلبة المعاقين وكذلك يركز على الموهوبين من خلال عقد ورشات عمل ولقاءات تربوية حول التفكير الابداعي لتنمية مواهب الطلبة.
6-تقديم الحلول الجاهزة للمشاكل، وهذا اعتقاد خاطىء لأن دوره المساعدة والمساندة من خلال اعطاء الاهتمام والرعاية للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.

نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة الى مجموعة من النتائج أهمها:

1-الأهداف التي يسعى مرشد التعليم الجامع الى تحقيقها هي الأهداف العامة والخاصة لبرنامج التعليم الجامع كما رسمتها الادارةى العامة للبرنامج بالتعاون مع فريق التعليم الجامع لتطبيق مبداي حق التعليم للجميع وتكافؤ الفرص.
2-المهام والمسئوليات المنوطة بمرشد التعليم الجامع متعددة اهمها :نشر الوعي والمعرفة حول حقوق الطفل ، ودعم الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة داخل المدرسة ،ورفع قدرات وتغيير اتجاهات الهيئات التدريسية والادارية في المدرسة، والتأثير في السياسات والاجراءات على مستوى المديريات والمدارس ، والتعاون والتنسيق مع مؤسسات المجتمع المحلي، والعمل مع أهالي الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.
3-تقديم الخدمات الارشادية والنمائية والوقائية والصحية والتوعية والاحالة للمؤسسات ،فهو يقوم بدور الاخصائي والمستشار المهني ومصدر للتوعية والتثقيف ومنسق ومصدر للتقييم.
4-يستند مرشد التعليم الجامع الى السياسة العامة لوزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية المنبثقة عن مؤتمر سلامنكا المنعقد في اسبانيا عام 1997م فيما يتعلق بدمج ذوي الاحتياجات الخاصة.

وأوصت الدراسة بمجموعة من التوصيات أهمها:

-بناء نظام معلوماتي حول الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة-قاعدة بيانات محوسبة.
-بناء نظام تحويل شامل للطلبة.
-بناء نظام تقييم لأداء وتحصيل الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة ودرجة تكيفهم مع الجو المدرسي.

-توفير الامكانات المادية والميزانية المحددة للبرنامج في المديريات لتسهيل تقديم الخدمات للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة
-تغيير المسمى الوظيفي لمرشد التعليم الجامع ومعلم التربية الخاصة الى مسمى مشرف تربية خاصة وتعليم جامع.

التوصيات:
-بناء نظام معلوماتي حول الطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة-قاعدة بيانات
-بناء نظام تحويل شامل للطلبة.
-بناء نظام تقييم لأداء الطلبة ودرجة تكيفهم مع الجو المدرسي.
-توفير الامكانات المادية والميزانية المحددة للبرنامج في المديريات.

قائمة المراجع والمصادر

- .....:الخطة الوطنية للتعليم للجميع2004-2005 ،جريدة مسيرة التربية،كانون أول 2003م،العدد40،السنة السابعة.
- .....:د.ابو الحمص يلتقي وفدا من المؤسسة السويدية للإغاثة الفردية، جريدة مسيرة التربية،كانون اول 2003م،العدد40،السنة السابعة.
- التعليم الجامع:نحو مدارس لا تستثني أحدا،نشرة صادرة عن برنامج التعليم الجامع في وزارة التربية والتعليم العالي،رام الله،أيلول200م).

- ......:التربية تفتتح دورة حول الارشاد المدرسي للتعليم الجامع،جريدة الحياة الجديدة بتاريخ 2003/4/21م.
- ....:لماذا يجب الحاق الأطفال المعاقين في المدرسة العادية؟،جريدة مسيرة التربية،تشرين أول 1999م،العدد23 .
- ورشة عمل حول الاعاقة السمعية في فلسطين:مركز تطوير خدمات المعاقين سمعيا بدعم من مؤسسة التعاون ضمن برنامج التأهيل المبني على المجتمع المحلي بتاريخ 2007/6/3م.
- .....:معا لدمج الأطفال من ذوي الاعاقة العقلية في المدارس النظامية،ورقة عمل مقدمة لمؤتمر التربية الخاصة في الاردن 6-2006/11/7م.
- ......:ورشة عمل تدريبية حول ضعف البصر،مقر جمعية بيت لحم العربية للتأهيل 3-2006/5/4م.
- ....:دراسة الاحتياجات التدريبية لمشرفي التعليم الجامع بهدف تطوير برنامج تدريبي يسهم في بناء القدرات وتطويرها وفق النظريات الحديثة في الارشاد التربوي والتربية الخاصة،ضمن فعاليات مشروع التعاون الفنلندي، وتطبيقا لتوصيات الدراسة التقويمية التي نظمتها الخبيرة الدولية بيا كارلسون لبرنامج التعليم الجامع بتاريخ2006/4/4م-دائرة القياس والتقويم في وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية.
- فايز شرف:واقع الارشاد التربوي في المدارس الحكومية،ورقة عمل مقدمة في اليوم الدراسي الذي نظمته نقابة الاخصائيين الاجتماعيين فرع الخليل في قاعة مدرسة الحسين بن علي الثانوية بتاريخ 2008/5/29م").

-تمت صياغة الواجبات والمسئوليات والمهمات المنوطة بمرشد التعليم الجامع ومعلم التربية الخاصة ومشرف التربية الخاصة من خلال عقد عدة لقاءات تربوية وعدة ورش عمل في وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطيني لفريق التعليم الجامع، وكذلك عقد اجتماعات مناطقية على مستوى مديريات الوسط والشمال).
- كما تم إقرار وصف وظيفي لمرشد التعليم الجامع من قبل وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية-الإدارة العامة للتعليم العام سنة 2004م).
-معتصم مصلح:الإرشاد المدرسي للتعليم الجامع،ورشة عمل في مقر وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطيني، بتاريخ 2003/4/20م،رام الله.
(....:التعليم الجامع،نشرة دورية-نشرة رقم1، صدرت عن مديرية التربية والتعليم في الخليل،تشرين أول 2002م).
-د.إدريس جرادات : الدمج الأكاديمي تطبيق لمبدأي حق التعليم للجميع وتكافؤ الفرص،جريدة مسيرة التربية،تصدر عن وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية،حزيران 2008م العدد61 .
-د.إدريس جرادات:رسالة التعليم الجامع إلى المعلم:الإصغاء النشط،جريدة مسيرة التربية،تصدر عن وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية،أيلول 2008م العدد62 .

Journal of
Averroes University
in Holland

A quarterly periodical arbiter scientific journal

Correspondence

Lorsweg 4, 3771 GH, Barneveld
The Netherlands
Website www.averroesuniversity.org
E-mail ibnrushdmag@averroesuniversity.org

NL242123028B01 Tax record - KvK 08189752 Registration number in the Netherlands

All published works are evaluated by experts of their own field of science and art.

Account number: Account number 489607721 :ABN AMRO
DE HEER T.A.A. AL ALOUSI H/O
AVERROES UNIVERSITY IN HOLLAND
LORSWEG4
3771GH
BARNEVELD
BIC ABNANL2A
IBAN NL35ABNA0489607721

The price of an issue is €10,00 or its equivalent in US dollar.

Annual contribution	Individuals	Organizations
Anuual	60	80
Two years	110	150
Three years	160	200

The ninth Issue April 2013

مجلة جامعة ابن رشد في هولندا العدد التاسع

Averroes University In Holland

Averroes University In Holland

A scientific Journal Published Quarterly

Issue;9



Averroes University —— Holland

Design By:Mutaz I. Ghazwan